النهوض من القاع

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : النهوض من القاع
اسم المؤلف: حبيب محمد أبرص
التدقيق اللغوي: ملك محمد جلال
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٠٠٤٧ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٤٤-٠

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

النهوض من القاع

قراءة في الأحداث المجتمعية

حبيب محمد أبرص

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى: والدي محمد أبرص، ووالدتي سمحة حسن

إلى: زوجتي حليمة عبد العزيز وأبنائي محمد ومروة.

تقديم

يكتب الزميل حبيب محمد أبرص في هذا السفر مقالات تشريحية لأداء الواقع التشادي المرير، لم تكن مقالات صحفية عابرة، بل كانت صورة قلمية عن الواقع، واقع السياسة، والتعليم، والتربية، والثقافة، والصحة، والتدين.

وبما أن الصحفي يعيش واقعه ليقص لجيله والأجيال اللاحقة ما خفي من تفاصيل الحكاية، فإن الكاتب ـ وهو الصحفي والمتخصص في الصحة ـ سلط الضوء على مشكلات التخلف في العالم الثالث، باعتبار جمهورية تشاد واحدة من تلك النماذج العاكسة لأزمة الإنسان، أزمة الفكر، والثقافة والتربية التي انعكست على باقي مناحي الحياة بما فيها السياسية والاجتماعية فأفرزت هذا الواقع المأزوم في كل جوانبه، فبنفس الصحفي وروح التقصي يسبر غور المشكلة من خلال لملمة شتاتها، وبصبر الطبيب يعالج موضع الداء من خلال الأطروحات والمقترحات التي يقدمها.

يحمل الكاتب هموم أمته وواقعه، فتلامس في ثنايا حديثه تلك المرارة التي يعتصرها بحرقة ليجعل من وضوح فكرته الإصلاحية هي الغاية، حتى لا تتشوه الفكرة بالتشاؤمية المحضة، فيَعبُر بنا في هدوء لنشخص المرض سوياً، ثم نشهده وهو يوقع على (روشتة) العلاج.

وكما يحمل الكاتب هموم وطنه وقضاياه، يحمل قلمه وهو مسافر نحو تونس الثورة، تونس الربيع العربي، تونس الزيتونة، ليدون مشاهداته، يدون الفوارق بين هذا الوطن ووطن الغير، فوارق العمران والإنسان، إنساننا وإنسانهم، ثقافتنا وثقافتهم، عاداتنا وعاداتهم، عواطفنا وعواطفهم، سياستنا وسياستهم، ليلفت نظرنا إلى ذلك النموذج، لكن في الوقت نفسه يملك الكاتب منهجاً ومبادئ للقياس، فهو لا يدعونا إلى الانبهار الأعمى بالغير، بل يقدم قراءته الخاصة لتفاعلات الواقع التونسي من وحي تجربته،

كشاهد لكثير من تحولات الواقع السياسي لتونس ما بعد الثورة، فيعجب بذلك الخطاب الوحدوي الذي يسمو فوق حمى التجييش الأيديولوجي، وينتقد تلك الخطابات التي تسير مع التنميط، ثم يقدم رؤيته وفق رؤاه الإصلاحية.

***

لما خرج المجتمع التشادي من حروب التسعة أشهر لعام ١٩٧٩م كانت قد تركت الحرب رواسبها في الإنسان الذي هو محور البناء، لم يستطع الإنسان التشادي التشافي من تلك الرواسب، فأورثته القبلية، وغرست القابلية للانشطار في النسيج الاجتماعي، ثم عززته الحكومات والأنظمة المتعاقبة، فكانت ثقافة اللامبالاة (ما لماني) قد تجذرت في النفس، فالسرقة، والرشوة، ونهب المال العام، وانعدام التفكير في بناء الدولة، ماهي إلا أعراض للأنانية، وقد تركت سياسات النظام السياسي ندوباً على الجسد الاجتماعي من خلال سياسات التفتيت، وتقسيم المقسم، وتكاثرت الكنتونات وطفحت الحساسيات القبلية، وتفرقت القبيلة الواحدة إلى عشائر وبطون وأفخاذ، تمزقت الوشائج الاجتماعية، وبرزت الفردانية في مجتمع لا يعرف المدنية ولا أخلاق المدينة في شكل يشبه التشوه القيمي، فهذا البدوي الذي قطن المدينة يستخدم أدوات المدينة بعقلية البادية، ويدير الدولة بعقلية القرية، ويخوض السياسة بعقلية الغابة، فإذا بنا نشهد انقلاباً في السياسة والاجتماع والدولة، إنه تفسخ البدوي الذي تجاوز التمدن إلى وحل المدنية مباشرة، فمصالح الذات مقدمة على كل قيمة، على المصلحة العامة، وعلى الصالح العام، يطغى سلوك الاستئثار البدوي، وتختفي قيمة العفة والعفاف من المعادلة، يطغى سلوك الإغارة على الغير والانقضاض على حقه، وتختفي قيمة حماية الضعيف أياً كان، تضطرب التصنيفات لتداخل التناقضات أحياناً.

***

يدرك الكاتب أن الأزمة في السياسة تفرز مواطناً يخوض الصراع من أجل البقاء،

يسلبه هذا الصراع أحياناً ماهية الذات، وقد يقع فريسة اليأس، قد تتلاشى أحلامه وطموحاته، قد يذهب كفاحه في لحظة من الزمن أدراج الرياح، فينبهنا إلى مطبات الطريق وإلى الزاد المطلوب لرحلة الكفاح.

ليس ثمة ما يدمر الإنسان مثل اليأس، اليأس يقضي على ذلك الطموح، ويحطم الأمل، التشبث بالأمل وإعادة المحاولة والوقوف على سير الآخرين إحدى طرق النجاح.

في هذا السفر تطواف متعدد الأغراض، ومتعة وحزن، نفخة في روح الكفاح، ودفعة للجسد العاجز عن المحاولة، سياحة في الماضي وقراءة للحاضر، عرض لمنجزات الغير ونقد لفشل الذات، فهو مزج بين لغة السياسة ومفردات التنمية البشرية، بين المذاكرات الشخصية والسير الذاتية، بين أدب الرحلات والمقالات الصحيفة، مع كثير من الواقعية ونقد الذات.

الأستاذ محمد الحافظ عبد الله

إعلامي ورئيس المجلس التأسيسي لحملة اقرأ

قبل البداية

ليس خافيا اليوم أكثر من أي وقت مضى، أننا نخوض معارك في جبهات عديدة، فردية وجماعية، حيث تأخذنا تفاصيل الحياة اليومية بعيدا لدرجة لا نستطيع فيها التقاط الأنفاس، من شدة التأثر بالمحيط البشري، والتكنولوجي، وبالضغوط الوقتية المعاصرة وتأثيراتها على صفاء النفس والبال. أحيانا الإغراق في تلك التفاصيل في خضم الكم الهائل من المتغيرات والتحديات يسلبنا الهدوء ويأخذنا إلى المجهول، فتضيع قيمنا ومبادئنا التي نؤمن بها، أو تحول دون اكتشاف قدراتنا ومهاراتنا، فتتشتت طاقاتنا دون أية فائدة مثمرة للبناء.

نجد أنفسنا في كل يوم، عاجزين أكثر، عن تقديم ما هو أفضل لانتشال دولتنا من الحضيض إلى آفاق جديدة، تزدهر فيها مقومات الحياة، ويتسارع فيها منوال التنمية، ما زلنا نتذيل دول العالم في مختلف المجالات وبالأرقام، ما زلنا نقبع في العصور الغابرة، وإن كنا نحتك بالتكنولوجيا، وبالتغيرات المعاصرة، فالظلام الدامس من حولنا في كل مكان في زمن تعدد الأنوار، والفقر المدقع في كل زاوية في وقت تعدد الثروات المعرفية والتكنولوجية، ورغم زخر البلاد بالموارد البشرية، والطبيعية.

لم تكن خطواتنا نحو مسار النهوض من هذا القاع قد أقلعت بعد بالاتجاه نحو الطريق الصحيح، حيث لم تظهر أي بوادر أو بريق أو ملامح لأي إشراق يلوح في الأفق من أجل غد أفضل لنا، ولأبنائنا، وأحفادنا، في الوقت الذي تغيب فيه القيادة الرشيدة، ويغيب على ضوئها المشروع والرؤية، فقد خلفت أزمة الحكم التي قامت بها السلطات المتعاقبة، رواسب واسعة الانتشار في الدولة والمجتمع، ساهمت في نشر الفوضى وفي عدم اظهار أي رغبة جادة للقطع مع التمرد العسكري المتكرر الطامح في استلام السلطة بقوة السلاح، لعدم تهيئة أي مناخ قادر على إرساء قواعد سليمة قوية من أجل الديمقراطية والانتقال

السلمي للسلطة، ودولة القانون والمؤسسات المستقلة، والعدالة، والمساواة، وتكافؤ الفرص، فتجددت النزاعات الأهلية نتيجة توطين الظلم والفساد اللذان يعشعشان في دواليب الدولة الغائبة عن الواقع المحلي، والإقليمي، والعالمي، والمتخلفة عن ركب التنمية، فأضحى التخبط هو عنوان الجمهورية السائد وفي كل المجالات.

أؤمن أنه لكي ننهض بهذا المجتمع الغارق في بحور من المعضلات التي لا حصر لها، علينا أن لا نكتفي بالتفطن لمطبات الطريق فقط، فلا تكفي معرفة وجود أماكن الأشواك بل بالسعي إلى إيجاد حلول مناسبة لتجاوزها، ليس على طريقة الترقيع التي نقوم بها، بل على ضوء وضع رؤية جادة متكاملة لاقتلاع هذه الأشواك من جذورها، هذا بطبيعة الحال يحتاج منا لبلورة مشروع جديد خاص بنا، ويتلاءم مع مقدراتنا وتطلعاتنا، ولم لا التعلم من دراسة تجارب الآخرين واستخلاص العبر منها، أو وضع حلم جماعي جديد "الحلم التشادي، لم لا؟

من هنا تكمن أهمية هذا الكتاب "النهوض من القاع، قراءة في الأحداث المجتمعية" في الغوص في مسألة التنمية المجتمعية، ومعالجة فكرتها من زاوية مختلفة من الوعي والإدراك والتبصر في قراءة مستجداتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلمية، بأسلوب سلس وفي قالب المقالات الصحفية، بعيدا عن حظوظ النفس وسجونها، والحسابات الضيقة، وعمليات غسل الأدمغة التي تزين الأوضاع بصورة وردية مخالفة للواقع.

وقد آثرت على أن يكون العمل محاولة جادة ولبنة في النقد الإيجابي الموضوعي البناء، لإيماني العميق بأننا نحتاج إلى النظر في قضايا التنمية بزوايا مختلفة، وأكثر مهنية، ومصداقية، وشمولية، وواقعية، وانصاف، وبعيدا عن جلد الذات والعواطف والأحكام الجاهزة، وإن كانت الفكرة بحاجة للتطوير والتحسين من أجل الدفع نحو إيجاد نموذج جماعي تنموي متكامل للخروج بالبلاد إلى آفاق أفضل وأرحب، إلا أن وجودها هو

بمثابة الدافع والملفت للنظر لتعديل البوصلة وتصحيح المسار، أو جرس إنذار لتخفيف المعاناة على أقل تقدير.

يقدم الفصل الأول (الروح) قيما ومبادئا، ويعطي بصيصا من الأمل وعدم الركون إلى اليأس والتشاؤم، بينما يفكك الفصل الثاني (التشخيص) بعض أهم العقبات التي تعتري النهوض وكيفية تجاوزها، في حين يحاول الفصل الثالث والأخير (التعلم) تقديم مقاربة مختلفة في التغيير عن واقعنا للتعلم الإيجابي من الغير، فالتغيير يتطلب قيما ومهارات ونقد للواقع والتعلم من الآخر.

عايشت بعض تلك القضايا كمدرس وكإعلامي في إطار عملي في الصحافة في تشاد عندما كنت رئيسا للتحرير والأخبار بإذاعة البيان ومقدما لعدد من البرامج الاذاعية فيها، وبعضها خلال دراستي للماجستير في السلامة الصحية للأغذية في تونس الخضراء التي سمعنا عن خضرتها وجمالها قبل أن نقف شواهدا عليها وعلى أهلها الطيبين، قدمت بعض قضاياها ليس على سبيل المقارنة أو التقليد، وإنما على ضوء التعلم مما هو مفيد لدى الآخر، فقد لامست اختلافا في التعامل مع طبيعة الحياة الجديدة، اختلاف مناخ البحر الأبيض المتوسط الذي يصل الى درجات حرارة تحت الصفر عن مناخ منطقتنا جنوب الصحراء التي تتأرجح فيها درجات الحرارة الى مستوى آخر مختلف تماما. أيضا اختلاف البشر ومشاعرهم، وهمومهم وتطلعاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم عنا، رغم أواصر الأخوة العربية والإسلامية والقواسم الإنسانية المشتركة.

وقد عمدت الى نشر هذه الرحلة الماتعة من الأفكار والقيم، ووضعها في نسق موحد في هذا الكتاب، لمواصلة حديث المودة الذي بدأناه مع القراء وسط شيء من الأمل، أمل يمدنا بالقدرة على رؤية الصورة الناصعة للحياة، ومواصلة الكفاح في مواجهة نكباتها وتقلباتها، وعلى التفطن لتشخيص صعوبات طريق الإقلاع نحو المستقبل.

أعلل النفس بالآمال أرغبها ما ... أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

حبيب محمد أبرص

الثلاثاء ٠٤/ يونيو/ ٢٠٢٤م

.القهوة العالية، تونس العاصمة

الفصل الأول: الروح
(قيم ومبادئ للتغيير)

يتناول الفصل الأول:

قيم ومبادئ مثل: الأمل، الحلم، التضحية، الحرية، وغيرها..

بذور الأمل
(ينبغي أن يعيش الأمل)

كان يهدف إلى جذب فتاة، إضافة إلى رغبته في أن يكون مشهورا، حينما أطلق من داخل غرفته في جامعة هارفارد، أول نسخة من موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك Facebook"، كان الشاب الأمريكي مارك زوكيربيرج مبتكر الموقع قد عمل في إنتاج هذا التطبيق بمشاركة بعض زملاءه لمساعدة العاملين في مكتب والده الذي يعمل في مهنة الطب للتواصل فيما بينهم، لقي الموقع انتشارا كبيرا بين طلاب الجامعة، وتطور بعدها ووصل للعالمية بشكله ولونه الأزرق (سماوي غامق)، ثم قام بضمه لاحقاً مع تطبيقات أخرى إلى شبكة "ميتا META" التي يمتلكها.

أصبح اليوم فيسبوك أكثر مواقع التواصل الاجتماعي استخداماً في العالم حيث ينشط فيه ٣ مليار مشترك شهرياً حول العالم وفقا لنتائج الربع الثاني من عام ٢٠٢٣م (جريدة عكاظ السعودية ٢٧/ ٠٧/ ٢٠٢٣)، في الوقت الذي وصلت فيه ثروة مارك في فبراير ٢٠٢٤م إلى ١٧٠ مليار دولار ويحتل المرتبة الرابعة في قائمة أثرياء العالم وفقاً لمؤشر «المليارديرات في العالم في الوقت الحالي» الصادر عن «مجلة فوربس الأمريكية للأعمال التجارية والمالية»، إنه الأمل.

نعم؛ إنه الأمل بالإنجاز، والعطاء، والتقدم. فلو جلس متشائما مستسلما لعقبات تطبيق الفكرة لما وصل إلى هذه القمة من الثراء، والشهرة، وإفادة الإنسانية. ولذلك يراهن الكثيرون من علماء التنمية البشرية على أن التغيير للأفضل يحتاج أولا إلى وضوح الصورة الذهنية أي وضوح الرؤية وتحديدها قبل الشروع في التنفيذ لتجنب التخبط في المسار، إضافة إلى تغيير الأفكار السلبية الهدامة واستبدالها بأخرى ايجابية بناءة: استبدالها بالقلق الإيجابي والتفاؤل وبالأمل، والإصرار على تحقيق الحلم بمزيد من العمل والصبر

والكفاح.

الحياة أمل كما يقول إبراهيم الفقي -رحمه الله-، فحينما ينبلج الفجر من عتمة الظلام يحمل معه شعاع الأمل فينشره في كل مكان، وحينما تنبت بذور النباتات المطمورة وسط التربة باحثة عن الضوء تعلن عن ولادة جديدة بروح جديدة تتسلل إلى الحياة، وعندما تتعكر صفوة العيش نبحث عن الأمل، الناجحون قادرون على استقطاب ذلك الشعاع والاستفادة منه، بينما الفاشلون يندبون حظهم العاثر في الحياة.. الأمل ينبع من داخل النفس وليس من خارجها.

لدى الفتاة أمل بالزواج من شخص تحبه لأنها تريد أن تعيش حياة سعيدة مفعمة بالتفاهم، والحب، والمودة، وهكذا حال الفتى. لدى المرأة الحامل أمل بالوضع قريبا وبأقل آلام الحمل والمخاض، لأنها تتطلع إلى رؤية فرع جديد منها يحمل مشاعرا وآمالا متجددة للحياة.

طالب البكالوريا يكرر الامتحان ويعقد العزم كل عام، لأنه يأمل في أن يتخطى عقبة الفشل للوصول الى النجاح يوما، الخريج يتردد أمام وزارة الوظيفة العامة يطرق الأبواب هنا وهناك عله يتحصل على عمل قريبا. لدى اللاجئ حلم وأمل بالعودة لموطنه الأصلي ولو طال الزمن. لدى كل منا حكاية من الأمل لا تنتهي، وقصة لم تكتب بعد، أمل ببزوغ فجر جديد تسطع فيه أنوار الفرحة، والخير، والعطاء.

الدول الفاشلة لا تموت، لأن شعوبها تنبض بروح الأمل، مهما استطاع الحكام تعتيم الحياة فيها، ستنهض ولو طال الزمان ما دام الأمل والعزم فيها باقيان.

دعاء؛ عبادة، وأمل، وإلحاح، وترقب لحدوث النجاح، والخير، وبحثا عن المغفرة من الله عز وجل، وطلبا للعفو والصفح والتحصين من الجن والشياطين. "ادعوني استجب لكم" دعوة إلى التبتل، والرجاء، وانتظار الأفضل، ووعد بالاستجابة. "اهدنا الصراط المستقيم" طلب للهداية، وأمل بالتوفيق لسلك الطريق الصحيح، وبداية مشوار الفلاح.

الأمل شمعة، إذا انطفأت أشعل مكانها أخرى، فلا ترضي بأن تعيش في ظلام دامس، فهو خروج بالنفس المثقلة بالنكبات من واقعها المذري إلى آفاق أوسع وأرحب.

الحياة جميلة: الطيور تغني بعد هدوء العاصفة، وتبني أعشاشها من جديد، الفراشة تجول في الحقول بألوانها الزاهية، تستمتع بالجمال والروائح العطرة حتى مع ارتفاع الحرارة، النحل يصنع العسل من رحيق الأزهار ولا يبالي بأشواكها لأن هدفه أسمى.. الأنهار والبحار تتدفق حيوية وأملا، وتبحث عن مجرى آخر فلا تتوقف عن الجريان، النمل ينقل الحبوب والغلال ويخزنها يكد ولا يستسلم حتى مع صغر حجمه لأن هدفه أسمى وعمله أكبر، الورود والأشجار تتمايل مع الضوء وبعضها يتأقلم مع الظلام والحرارة، والشمس ترسل أشعتها في كل مكان وكل بقعة، وقد أبدع مصطفى السباعي حين قال: "إذا نظرت بعين التفاؤل إلى الوجود لرأيت الجمال شائعا في كل ذراته"، فلا مجال للسوداوية ما دام الجمال باقيا، سبحانه من خلق كل شيء فقدره تقديرا، محكما، رائعا جميلا.

مقارعة اليأس!

يقول علي الجارم "الشجاع هو من يخلق من اليأس أملا، لأن اليأس فيه طعم الموت، ولأن الشجاعة فيها معنى الحياة "، أما غاندي فيقول: "إذا فقدت مالك فقد ضاع منك شيء له قيمة، وإذا فقدت شرفك فقد ضاع منك شيء لا يقدر بقيمة، أما إذا فقدت الأمل فقد فقدت كل شيء".

اليأس محرقة للذات، والأمل شعلة تضيء للنفس وللآخرين، وطريق لإنارة الحياة بالعلم، والعمل، والاكتشاف، والتجربة. أديسون مكتشف المصباح الكهربي بعد التجارب الفاشلة لم يستسلم، قيل انه فشل مئات المرات، لكنه عندما سئل قال: أنا لم أفشل كل هذه المرات ولكني اكتشفت أن هناك مئات من الطرق لا تؤدي إلى اختراع المصباح الكهربي، كان الحلم أكبر من الواقع، لأنه كان يأمل في أن يشعل للبشرية مصباحا ينير الحياة، ويخلق فرصا للعاطلين، ويغير مسار العالم.

الأمل فسحة، واليأس ضيق، وضجر، وحبس للنفس البشرية في مستنقع السلبيات والحضيض ونظرة قاتمة للحياة، "فالمتشائم يرى الصعوبة في كل فرصة، بينما يرى المتفائل الفرصة في كل صعوبة".

وكثيرا ما تكون العقبات سدا منيعا أمام المهزومين نفسيا فـ" الصخور تقف أمام الضعفاء لتسد عليهم الطريق، في حين يرتكز عليها الأقوياء ليصلوا إلى القمة " (نصر الدين محروس)، العقبات ليست نهاية المشوار، لكنها تشكل منعطفا رئيسيا في مدى قدرة الفرد على الصمود أمامها، إنها اختبار حقيقي ينجح فيه أصحاب العزيمة والتحدي، فـ"مسار التاريخ يتقدم دائما إلى الأمام ولا يعود إلى الوراء، وصعوبات الطريق ما هي إلا اصطفاء لمدى القدرة على التقدم نحو المستقبل الزاهر وتحقيق أسباب النجاح، وأشد الصعوبات وأكبر التحديات تلين أمام العزيمة والصبر والحكمة" (د. منصف المرزوقي).

الأمل ليس كافيا!

الأمل صورة ذهنية، والعمل تطبيقه، كم من الأفكار الايجابية ماتت لأن أصحابها لم يقوموا بتطبيقها في الواقع لسبب من الأسباب، الأمل يحتاج إلى عمل يكمله حتى يصبح أكثر رونقا وجمالا، "استعن بالله ولا تعجز" (حديث شريف) "فإذا عزمت فتوكل على الله". (سورة آل عمران الآية ١٥٩)

امتلاك الحلم
(يكفي أن نحلم باستمرار)

كان كلما اقترب من النهر ليشرب، يرى صورة تشبهه تماما، كأنها تحاوره ثم تزعجه وتقلقه وهو يكاد يلحس الثرى من شدة العطش، فيرجع ظنا منه بأن كلبا آخر كان له بالمرصاد، يكرر المحاولة، يأتي ويرجع هكذا إلى أن نفذ صبره، فهجم على صورته في الماء للقضاء على ذلك العدو" الكلب الآخر" فإذا به يموت قبل أن يشرب.. هكذا تفعل النظرة غير الثاقبة بصاحبها، النظرة السوداوية للحياة دون تفحص موضوعي، المغزى من كل ذلك، هو أنه لا ينبغي لنا أن ندخل إلى الحياة من باب المشكلات، بل من باب الموضوعية، والتجرد، والتفاؤل، والأمل، فنصنع أحلاما تتجاوز العقبات لنصل الى حيث نريد.

نعم، وفي غمرة الأحزان والقلق النفسي، ومع إشراق كل صباح، بل وفي كل لحظة من حياتنا، يجب أن نفتح بابا للأمل "تفاءلوا بالخير تجدوه"، نتذكر دائما بأن تمسكنا وإيماننا به إنما هو تمسكنا بأنفسنا، ومحاولة للخروج بها من براثن الاكتئاب والضغط الذي ينتابنا كل حين ونحن نسير في هذه الحياة.

أن تؤمن بأنك ما زلت قادرا على النهوض بإمكاناتك وقدراتك، وتصبر وتثابر لتزداد قوة على مواجهة الصعاب، فهذه فرصة لتحقيق حلم جميل يمنحك نجاحا أكبر.. الأجمل أن تعيش على يقين وبلهفة وكأنك تحققه الآن.

تقول الكاتبة والأديبة اليمنية هناء ذيبان " التفاؤل لا يعني -مطلقا- أن الحياة فقدت صعوبتها، وأنها تضيق كثيرا بقدر ما اتسعت ومنحت الإحساس بالأمان، وأنها قد تغدر وتعود بنا إلى عالم مجهول لا يمكن التخلص منه إلا بمسامرة الأمل، والتمسك بمفاتيح التفاؤل وعدم تبديدها، ليس هناك شك بأن الحياة اليومية ليست مبهجة على الدوام،

وصعبة مكلفة للأعصاب، لكن مع كل ذلك! هل ينبغي أن نتجاهل الأمل وهو الوجه الآخر لصفحة الشقاء التي تتكاثر فيها أوراق التشاؤم؟ الحياة أحياناً لا تخلص إلا لمن بحث عنها، وأخلص لآماله في داخلها وآمن دائما بأنها لا تظل على وتيرة واحدة وأنها قابلة للتغيير. تستطيع أن تصل إذا آمنت باستمرارية الحياة وراهنت على القادم ".

الحلم هو ألا تهزم في الدرب حينما تقف كل العقبات أمامك لتثنيك عن طموحك.. ينبغي أن تثبت بأنك لا تزداد إلا قوة وصلابة ويقينا أمامها، ف"الضربة التي لا تكسر الظهر تقويه"، وحينما قرر نابليون بونابرت غزو مصر العربية قال: "إذا كانت جبال الألب الشاهقة تمنعني من التقدم فيجب أن تزول من الأرض" إنه الإصرار والإرادة التي ستجعل حلمك واقعا ماثلا أمام ناظريك مهما اعترتك العواصف وحجم التحديات.. أن تكون قوي الإرادة يعني أن تكون قوي النفس والعزيمة.

وإذا كـــانت النفـــوس كـــبارا ... تعـــبت في مرادهـــا الأجســـام

سيد الخلق وحبيب الحق هو المثل الأعلى في نموذج الحلم، والأمل، والتفاؤل، ومقارعة تحديات الحياة، وفيما معنى مخاطبته لعمه أبو طالب (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر على يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أبداً حتى يحكم الله بيني وبينه أو أهلك دونه) انه الحلم إذاً والإرادة الفولاذية التي لا تضعف أمام عواصف الحياة ونكباتها.. وهكذا ينبغي أن نكون في سبيل العلم، والأخلاق، والعمل، والحياة.

الحياة التي وهبها الله عز وجل لنا، يجب أن نعيشها أقوياء. أقوياء في العزيمة والصبر. نعم (عش حرا أو مت وأنت تقاوم).. هذه المعاني الأصيلة القيمة هي التي يجب أن نضعها في الاعتبار، هي روح الحلم.. الحلم لا يصبح حقيقة حينما يخلو من مثل تلك القيم النبيلة.

وحينما قامت ثورة الزنوج العظمى في أمريكا عام ١٩٦٣م التي اشترك فيها الآلاف من البيض أيضاً، والتي كانت أكبر مظاهرة في تاريخ أمريكا متجهة نحو نصب أبراهام لنكولن التذكاري، هناك! ألقى مارتن لوثر كينج خطبته الشهيرة (لدي حلم) والتي قال

فيها: "إنني أحلم اليوم بأن أطفالي الأربعة سيعيشون يوما في شعب لا يكون فيه الحكم على الناس بألوان جلودهم، ولكن بما تنطوي عليه أخلاقهم" لدى كل منا حلم يناضل من أجله، يغذيه من لحمه ودمه وعرقه، الأفراد والشعوب والدول تحلم بغد أفضل تستطع فيه المزيد من أنوار المعرفة والخير والنماء. كان مارتن يقول أيضا: "سأزرع شجرة التفاح ولو كنت أعلم أن نهاية العالم هي الغد" والنبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يقول "إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل" حلم جميل لا يموت لأنه ليس حلما أنانيا يتمحور حول الذات بل فيه حظ للآخرين كما يقول الدكتور سلمان بن فهد العودة الذي يضيف في كتابه (أنا وأخواتها) قائلا: (سألني فتى عن أهم أحلامي؟ فقلت: "أن أموت وأحلامي تنبض بالحياة، وتواجه التحدي، وتنفخ روح الأمل في ضمائر البائسين واليائسين والمحبطين.. ويتابع: لا تخف على حلمك متى ما كنت مخلصا وصبورا لأن العالم حينئذ سيتآمر كله لتحقيق حلمك"، يقول باولو كويليو " يجب أن يكون الحلم عشقا رائعا يخالط اللحم والدم، ويتخلل العظم، ويطل من العيون، ويسكن اللغة، ويندفع مع الزفير ليعود مع الشهيق"، يضيف العودة مرة أخرى: " سوف نتفوق حينما نمتلك أحلاما وردية بعدد شخوصنا، أو حينما يفلح أولئك الذين يمتلكون الأحلام الجميلة من الإمساك بناصية الحياة، سوف نتفوق حينما يصبح الخطاب الديني حافزا للأحلام وليس رقيبا عليها " (أنا وأخواتها).

أن تحلم يعني أن تجعل حاضرك ومستقبلك مفعما بالأمل والعطاء والإنجاز، الحلم الجميل لا يموت أبدآ. أن تموت أحلامنا يعني إعلان هزيمتنا ونحن أقوياء نملك القدرات المؤهلة للنجاة. انه يعلمنا إذا الثقة بالنفس والقدرة على تكرار المحاولة رغم السقوط مرات عديدة.أن تستيقظ في الصباح الباكر، وتدعو الله تعالى أن يمنحك الصحة والعافية والقوة، لمواجهة التحدي والكفاح والعمل لتحقيق حلمك فإنك تغدو نحو الفلاح، الناجحون يحولون أحلامهم إلى حقيقة، لأن نفوسهم مشبعة بروح الثقة والتفاؤل وسط الظلام الحالك.

الاستعداد للتضحية
(تضحية في سبيل القيم)

كثيرون اليوم يقعدون عن أداء حتى أبسط الأشياء والواجبات المفروضة عليهم، من الدراسة والعمل وحتى العبادة، ولأتفه الأسباب كذلك، مع أنهم يستطيعون فعلها بكل قوة ونشاط وإبداع وتميز؟

يعقدون عن أهدافهم وتطلعاتهم وأحلامهم، بل إن البعض توقف عن الحلم والأمل، وصار يرى كل شيء مظلما وأن الحياة لا تستحق العيش، لا أعرف الأسباب الرئيسية وراء ذلك بالضبط، ولكن شيء واحد أعرفه، هو ضعف الإرادة، قد تكون الظروف من أهم الأسباب ولكنها في الحقيقة ليست السبب الوحيد لذلك، لأنه قد تجد البعض يمتلك أهم مقومات الحياة الممكنة من الصحة والقوة والنشاط وحتى قدر من المال والعمل والحرية، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفعل شيء وأن يحلم ويحقق حلمه، بينما تجد آخرون محرومون من كل تلك المقومات إما بسبب الفقر، أو المرض، أو السجن، أو المنفى، ومع ذلك يبهروننا بنتائجهم؟ ببساطة شديدة لأنهم يمتلكون العزيمة والإرادة الجامحة في قهر النفس ومطامعها ومصارعة الحياة ونكباتها؟

كيف نفسر سلوك شخص مثل الزعيم نيلسون مانديلا الذي عاش ريعان شبابه داخل السجن مناضلا ضد الفصل العنصري والتمييز في جنوب افريقيا ثم انتصر؟ انتصر مانديلا على نفسه أولا قبل السجن وداخل السجن وخارجه وداخل القصر الرئاسي وخارجه. كان يمكن لمانديلا قبل ذلك أن يعود لمكتبه، مكتب المحاماة فيكسب قوت يومه ويعيش وافرا ليضمن لأبنائه مستقبلا مشرقاً في بلد يعيش فصلا عنصريا رهيبا ومظلما، كان يمكن له أن يوثر سلامة جسده وعدم ذهاب شبابه داخل السجن وعدم فقدان لقمة عيشه كما يقول المنطق؟ ولكنه فعل عكس ذلك، لعله أدرك وقتها أنه ربما لو

فعل لذلك لانتصرت عليه نفسه وستنتصر عليه بعدها وسيعيش في صراع مع ذاته وقيمه، فالرجل الذي قهر السجن والفصل العنصري في بلاده وخرج بها إلى بر الأمان لم تقهره شهوة السلطة كما لم تقهر قضبان السجان روحه وعزيمته، ببساطة شديدة انتصار روحه على جسده وعزيمته على ضعفه هو السبب، إيمانه العميق بقيم العدالة والسلام والرخاء لكل الناس هو السبب، قيم أن تنتصر في الضعف وأن تنتصر في القوة هي السبب.

د. منصف المرزوقي انتصر هو الآخر في السجن وخارجه وفي المنفى أيضا، وعندما انطلقت شرارة الربيع العربي من بلاده تونس في وجه الظلم الاجتماعي التي أشعلها سائق عربة الخضار محمد بوعزيزي من سيدي بوزيد أواخر ديسمبر عام ٢٠١٠م حمله شباب الثورة على أكتافهم، لأنه سبقهم في ثورته على الظلم والفساد والاستبداد، وقبل ذلك ثورته على النفس وسجنها وشهواتها، انتصر المرزوقي لقيمه ومبادئه دائماً، وانتصر في الرئاسة عندما لم ينتقم ممن نكلوا به وسجنوه وأجبروه على مغادرة بلاده، كما انتصر خارجها عندما حافظ على الانتقال السلمي للسلطة وعدم الاستئثار بها والرجوع إلى بيته كمواطن عادي بعد تأدية مهامه، وبات يلهمنا بمقولته: "عندما تكون في موضع ضعف لا تستسلم، وعندما تكون في موضع قوة لا تنتقم"!

يمكن للطبيب المرزوقي أن يوافق النظام ويوفر على نفسه السجن والعذاب الفردي والمنفى ويجني الأموال من مهنة الطب التي تدر ربحاً وفيرا في تونس؟ ولكنه فضل قيمه ومبادئه في الدفاع عن الضعفاء والقضايا الوطنية والإصلاح والتغيير الجماعي على حساب النفس وربح المال الوفير؟

كان يمكن لمانديلا أو للمرزوقي أن يتراجعا، أو يتراجع أحدهما، لكنهما لم يفعلا ذلك فقد عاشوا انتصارا أكبر فلم يعيشوا لذواتهم بل عاشوا للآخرين، انتصار الكبار العظماء اللذين يعيشون لأفكارهم وقيمهم ومجتمعاتهم وللإنسانية جمعاء، ينتصرون دائماً في مواقف الضعف ومواقف القوة وفي كل الظروف، فأن تعيش أكبر من نفسك منتصرا

في كل حياتك هو السر في هذا الصمود.

الصمود ضد الضعف والوهن والخوف والاستسلام، الصمود وجه آخر من وجوه الشجاعة والأمل والتحدي؟ ولكن كيف لمانديلا أن يحتفظ بطاقة مدتها تزيد عن نصف قرن؟ بينما يعجز أحدنا أن يحتفظ بطاقته الإيجابية شهرا واحدا أو أياما أو حتى بضع ساعات قليلة؟ نحتاج أن نفك شفرة لغز اسمه مانديلا، نحتاج إلى تحليل دماغه وقلبه وكبده ومعدته وأمعائه لنعرف كيف كان يفكر ويشعر ويعمل ويأكل وينتصر! لا يمكن لهذه الظاهرة الإنسانية الاستثنائية أن تكون عادية تماما مثلنا؟ لابد وأن هناك شيئا ما مختلفا فيها عن الآخرين فيسيولوجيا ومورفولوجيا وفيسكولوجيا؟ سؤال يؤرقني دائما عندما أفكر فيه؟ وأسئلة أخرى عن أولئك اللذين يتصرفون مثله خارج المنطق يعيشون لفكرة واحدة فقط أو قيم يؤمنون بها، يضحون بكل شيء من أجلها ومستعدون لإفناء حياتهم في سبيلها، يقطنون السجون بسبب معتقداتهم وآرائهم وأحلامهم، كيف لهم تحمل كل أنواع الذل والتنكيل والظلم والاستبداد، ويقابلون ذلك بقوة أخرى قوة الصمود والتحدي والأمل!

كيف يستطيعون تحمل المشقة لسنوات وسنوات في سبيل ما يؤمنون به ولو أنهم فعلوا ما أراده منهم السجان لخرجوا وارتاحوا من العذاب، ولكن لماذا يفضلون العذاب على الراحة؟ السبب لأنهم غير مقعدين. يدافعون عن أحلامهم وقيمهم وعن المقهورين بكل جسارة وصمود. عبارة رائعة لشيخ آخر صامد صمود الجبال الراسيات، الدكتور سلمان العودة –فك الله أسره– أتذكرها اليوم وهو داخل القضبان "أتدري ما أعظم أنواع الحرية؟ هو ألا تسمح لأحد أن يقتحم دواخلك دون إرادتك، قد يهمن على جسدك، ولكن تظل الروح طليقة ويظل الفكر عصيا على التركيع لغير الله تعالى، كم من شخص يتعذب بالأسر داخل قيود ذاته، وكم من حر يصنع من قيوده أنشودة رائعة للحياة..، أنت حر في داخلك، فقط تعلم كيف تحافظ على حريتك، والحرية كلمة، فلتكن كلمتك صادقة شجاعة".

هكذا يعيشون، بينما يعيش آخرون حياتهم بلا أي تحدى حقيقي وبلا أي روح، حياة روتينية مملة مقعدة بائسة تكرر لهم نفس الأفكار المظلمة، ينهارون ويسقطون من أول تحد حقيقي يواجههم، أو حتى بسبب كلمة عابرة تعكر لهم صفاء يوم كامل أو حياة برمتها، صحيح أن صخب الحياة وضجيجها خاصة مع تزايد المتطلبات العصرية وضغوطها على النفس والروح والجسد تعجل بالانهيار، ولكن ذلك بالنسبة للبعض الآخر فرصة للنهوض وليس للانكسار والحسرة والقعود.

القعود ليس إصابة جسدية، بل إن أصحاب الإعاقات الجسدية أكثر نجاحا من كثيرين يتحركون بلا جدوى، ستيفن هوكينج عالم الفيزياء البريطاني الفذ كان على كرسي متحرك وأحيانا لا يتحرك من جسده إلا رأسه بسبب الشلل شبه الكلي الذي أصابه وهو في عنفوان شبابه، ومع ذلك استطاع أن يفيد الإنسانية ويصبح رقماً صعباً في سجلات علماء العصر الحديث في علوم الفيزياء والفلك، يقوم بالدراسات والأبحاث ويؤلف الكتب فيكشف الكثير عن أسرار الثقوب السوداء وعالم الكون الذي نعيشه وبعض خباياه المدهشة ثم يكتب سيرته الرائعة الملهمة "موجز سيرتي الذاتية".

طه حسين من أهم الأدباء والكتاب الذين تمدرسوا في الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية، كان أعمى لا يبصر النور وإذا بعزيمته توصله حتى جامعة السوربون بفرنسا ليلتحق بالمزيد من العلم ويكتب سيرته "الأيام" التي تخلدها الأيام!

لم يجدوا مطلقاً أعذرا ليستسلموا بعدها عن تقديم أي إضافة مفيدة تثبت من قيمة وجودهم في الحياة، فهم ليسوا معاقين كما تظهر لنا أجسامهم بل كانون يعيشون حياة حقيقية، حياة العلم والفكر والثقافة، حياة تحدي وانتصار على الروح، حياة الإرادة والطموح، الحياة الصاخبة عند البعض بضجيجها المزعج، لكن هذا الضجيج هو إشارة الحياة فوحده الهدوء يحوم على الأموات، بل على المياه الراكدة وعلى فقراء الطموح المقعدين المعاقين فكرياً وروحياً.

عاش مانديلا سبع وعشرون سنة داخل قضبان السجن، حرا، لإيمانه بقيمه، وقدرته في تجسيدها على أرض الواقع، ولقدرته الخارقة أيضاً على صنع الانتصار الدائم على النفس والاحتفاظ بها لمدة طويلة ممكنة، والحقيقة المرة اليوم، أن آخرين يعيشون أعمارهم في سجون أنفسهم، خارج القضبان، معاقين فكرياً وروحياً أسرى الوهن واللوم والانكسار والخوف والقلق والضياع. الخيار لنا، لي ولك، فكل منا هو من يختار الشكل الذي سيعيش عليه وكيف سيكون في المستقبل، أنت فقط لا غيرك من ستختار أن تعيش منتصرا على نفسك، أو تعيش ضعيف الإرادة واهنا مقعدا؟

تقول الأمريكية ليزا نيكولاس Lisa Nichols واحدة من أبرز المحفزات على مستوى العالم: "لا يجب أن يكون خوفك الأعظم من أنك ستسقط، بل يجب أن يكون خوفك الأعظم من أن تعيش حياة كاملة دون أن تتمكن من الطيران مطلقا".

المراجعة
(إعادة التقييم الذاتي)

وأنت تبحث عن التغيير بعيدا، هناك في طوابير الوظيفة العامة، أو تحت ظلال الصابرين بلا حدود، تحزم أمتعتك وتذهب للمخاطرة بحياتك في مناجم ضواحي مدينة آتيا البطحاء وسط البلاد أو هناك في مناجم الصحراء في منطقة كوري بوغودي بالشمال من أجل التنقيب عن الذهب تاركاً خلفك شهاداتك ومؤهلاتك للبحث عن لقمة حياة كريمة بعدما صار كل شيء أمامك قاتل للأحلام ومحطم للنفوس؟

لا تذهب إلى آتيا ولا إلى كوري فالحراس هناك يقمعونك ويحطمونك أيضاً، لا يترددون لحظة في إردائك قتيلا، كلما حاولت البحث عن -اللؤلؤة الغالية-، يمنعونك الاقتراب منها وهم ينتشلون، ينتشلونها بأريحية وبسرعة قبل أن يتم استبدالهم بآخرين من مكان الكنز، تماما كما يفعل القادة بنا، يحرمون لنا أشياء كثيرة ويحللونها لأنفسهم، يتخطون المحرمات بلا رقيب، وحدهم عامة الناس ضحايا هذا الارتزاق، وحدنا ضحايا التهور والفساد والنهب المنظم للمال العام، ضحايا ضعف الإرادة السياسية، ضحايا التخبط والعشوائية، ووحدهم البسطاء يعيشون دائماً على هامش الحياة.

وحدهم أصحاب المبادئ محاربون، منبوذون، لكن الفاسدون يصولون ويجولون دون حسيب، بل مكرمون معززون، لأنهم فهموا اللعبة الخبيثة، إذا، فهم ليسوا منفيون ولا مضطهدون، هؤلاء هم الذين هضموا حقي وحقك، لا تذهب إلى ليبيا وتتركهم يعبثون، لا تذهب إلى بلد حوله الزعماء إلى نار تلتهم أحلام الباحثين عن التغيير إلى الأفضل مثلي ومثلك، واجهوا آمال الشباب بالثورة المضادة العائدة من فوق بوارج التحالف الدولي والإقليمي ومن النظام الوطني القديم، يحاولون إعادة الاضطهاد للمجموعات والأفراد، يعيدون حكم العسكر عوضا عن الحكم المدني الذي ثار من أجله الثوار،

تعرفون حكم العسكر لسنوات طويلة، عقلية استبدادية، تسلطية، احتكارية، تقوم على اضطهاد الآخرين وتبديد الثروات، وباختصار إنها عقلية للهدم وليست للبناء.

لا تقطع صحراء الشمال الخطرة - بركو، اينيدي، تبستي - لتصل إلى مكان آخر خطر في ليبيا الجارة، لا تبحث عن التغيير هناك، فعندما تصل لا تجد حاضنا لك، أنت منفيا ومنبوذا تماما كما كنت في بلدك، لا أحد يحتضنك، لا أحد، لا أحد يريدك أن تكون ناجحا، يريدك العسكر أن تعيش بلا كرامة تحت بزتهم فقط، تحت سلطتهم، فأينما يممت نفسك شطر القارة السمراء تصطدم بهم إلا نادرا، لا تكن عنيدا تقف مع مبادئك، إنهم يريدونك هنا لتمارس دور المطبل كي تحصل على فتات عيشك، كما يفعل كثير من السياسيين والمطبلين المدنيين.

هؤلاء يأكلون الفتات، كالكلاب الهائمة، لا يتركون ما تبقى من مائدة نظام العسكر، يمنعون صوتك المطالب بالخدمات الأساسية من الوصول إلى أروقة القصر الوردي (قصر رئاسة جمهورية تشاد)، يحيلون بينك وبينه، لأنهم يعتبرون أنفسهم ناطقون باسمك، في الوقت الذي ينطلقون فيه لجمع ما تبقى من الفتات، لا تثق بهؤلاء، فهم يبدلون مواقفهم كما يبدلون ملابسهم الداخلية، بالسرعة نفسها التي تقتضيها المصالح، هؤلاء يجب أن نقف أمامهم بالمرصاد، يجب أن نقول لهم كفى نفاقا وتضليلا، كفى متاجرة وتطبيلا، فقضايانا لا تحتمل التزوير، بل أحلامنا لا تحتمل التضييق، لا تستحق أن توأد حية في نفوسنا، لا تقتلوا آمالنا، بعد أن قتلتم حاجاتنا، ضرورياتنا، ودفعتم بنا إلى قارعة اليأس، دفعتم بالنفوس الشابة إلى المنفى داخليا وخارجيا، ساهمتم بنفس الإثم الذي ارتكبه السياسيون عديمي المبادئ إلى الزج بنا في قارعة الانتظار، انتظار لا آخر له، بل في قارعة الانهيار، الانهيار المتواصل، الذي يترك البعض يبحث عن حل له في ليبيا.

لا تبحث عن التغيير هناك، فانك إن وصلت إليها، داعبتك أحلام البحر، حذاري، البحر ساحر بطبيعته الجذابة، لونه الأزرق، أشكال الطيور الجميلة المحلقة فوق أجوائه،

مناظره الخلابة، الأسماك التي تعلو وتهبط، المراكب والقوارب والسفن المحملة بالبضائع وبالبشر، النجوم التي تسطع عليه ليلا، ضوء القمر، اللآلئ، وكلما في البحر يسحرك، جميعه يسحرك، البحر ساحر البشر، لا يدعك تمكث كثيرا حتى يغريك بالنزول إليه، تستسلم له من كل أعماقك،، أحذرك مرة أخرى، كنا نخاف على حياتنا من نهر شاري حينما نكون في رحلة استجمام على ضفافه، فما بالك بالبحر؟؟ لذلك لا تتمادى في مواقفك، تهمنا سلامتك، يهمنا تحقيق طموحاتك، حذار أن تضع نفسك سهلة أمام كلاب البحر، هناك في البحر الأبيض المتوسط حيث هم مرابطون، لا يرحمون، يتاجرون بك، يُهربونك عبر المياه المالحة، يغرقونك، يقتلون حلمك بالحياة وسط أمواج البحر، يُشبعون جسدك الجائع من ذاك الملح، ثم يتركونك فريسة للحيتان تقضي على ما تبقى منك، ليس عادل هذا الزمن؟

لا تثق بهؤلاء أيضا، فليس هم بحارون قادرون على مقارعة الطوفان، مثل سيدنا – نوح عليه السلام – حينما حمل المؤمنون معه وبقية الخلق إلى بر الأمان، هناك حيث استوت السفينة على شاطئ الجودي، أما الآن، فان كنت محظوظا فسيستوي قاربك على إحدى الجزر الايطالية لتبدأ رحلة مشقة جديدة، وفي الأعم الأغلب لا تصل إليها ولو ميتا.

البحارون على شاطئ المتوسط يكملون ما بدأه العسكر في البر، ومع ضيق البر والبحر لا تنسى حزام الأمان قل (يا رب أنت الحافظ).

بعدما قتلوا حاجاتك، على الأقل تركك العسكر لتهاجر متسللا عبر الحدود، لكن البحارون لا يكتفون بذلك، بل يقتلونك في لحظات فقط عندما تمتطي قواربهم المتهالكة التي أعدت خصيصا للإطاحة بأمثالك، وان كنت من القلة الناجية أو–الفرقة الناجية– محظوظا ومتجاوزا للخطر، فلا تلتفت إلى الوراء أبدا، إلى بلدك، إلى إفريقيا، إلى حكم العسكر لا تلتفت، امضِ إلى بلاد – الكفر– بلا رجعة، إلى حيث توجد الحرية والكرامة والعدالة وحقوق الإنسان، إلى حيث يوجد الحد المعقول من متطلبات الحياة، بلاد

"الكفار" فيها ما تبحث عنه عبر السنين، الإنصاف من المظلومين، الديمقراطية في اختيار من يحكمك ويخدمك، الحصول على التعليم الجيد والصحة الجيدة وفرص العمل وكلما يمكنه مساعدتك لتحقق حلمك.

ولكن لا تنسى بأنها أيضاً كانت جاثمة على صدرك طوال سنوات وسنوات، كانت جاثمة على صدر الوطن وصدر افريقيا، هي من أعادت تشكيل المنطقة لتجد نفسك في هذا الوحل، هي من صادرت حقك ووضعته أمام زعمائك لئلا تحاربها إن تمكنت من الأخذ بناصية حياتك يوما من الأيام، هي من حطمت نظامك لتعود إليها ذليلا ذات يوم عبر أحد قوارب البحر، فيا للمصادفة؟ لا تعد إليها مجددا فالموت في الوطن أشرف وأنبل، لا تمنحها شرف موتك، لا تجعلها مثواك الأخير، فهي لا تستحقك، أنت تستحق أفضل.

وسواء ذهبت إلى هناك لتبحث عن التغيير، أو قاومت في بلدك لتحيا من جديد، عد إلى أحضان نفسك أولا لا تلتفت إلى المحيط، لا تلتفت إلى كلاب البر وكلاب البحر، لا تشغل نفسك بهم بداية، عد إلى صوابك ورشدك، إلى ذاتك فقوَمها، إلى سلبياتك فحطمها، إلى إيجابياتك فعززها، فتغيير الذات ينبع من داخلها ثم تعززه المواهب والمهارات اللازمة وبعد ذلك يهون الكثير والكثير، لأنك يا ابن بلادي، يا ابن إفريقيا، تستحق أكثر.

ولادة الفكرة

"لا عيب في أن تسقط أرضا، بل العيب في أن تبقى على الأرض".

(محمد علي كلاي)

لم يكن محمد علي كلاي الذي رحل عن دنيانا في الرابع من يونيو لعام ٢٠١٦م عن عمر يناهز (٧٤) عاما ملاكما قويا بارعا فقط، بل كان حكيما أيضا، أسطورة الملاكمة العالمية سجل بطولات اهتز لها عالم الملاكمة ومشجعيها، حتى كان الغرور يلازمه لدرجة أنه كان يتباهي بقدراته قبل المباراة، ولم يكن هذا مستغربا، لأن ردة الفعل جاءت لإثبات أهليته في ظل العنصرية التي واجهها في بداية حياته كأمريكي أسود.

عنصرية البيض واضطهادهم للسود في أمريكا لم تكن عائقا في سبيل تحقيق محمد علي كلاي لحلمه، وانتقاله من رجل أسود، عبد، في نظرتهم، إلى رجل حر مقارعا للبيض واستعبادهم في نظرته، بل كانت حافزا للتغيير والانتفاضة، هذه هي فكرة التغيير أو البذرة الأولى التي تمخضت عنها انتصاراته العظيمة. قبيل مباراته مع جيري كاري عام ١٩٧٠م قال: "ليس هناك داع لأؤكد على أن ما أفعله هو عمل جاد، فأنا لا أقاتل رجلا واحدا؛ بل كثير من الرجال الذين يظهر من بينهم رجل واحد لا يهزم ولا يقهر، ومهمتي أن أحصل على الحرية لثلاثين مليون أسود"، تبلورت الفكرة في ذهنه وأصبحت ناضجة وواضحة، ولذلك كان يعرف ما يريد أن يفعله، وكأنه استلهم فكرة برنارد شو "التقدم مستحيل بدون تغيير، وأولئك الذين لا يستطيعون تغيير عقولهم لا يستطيعون تغيير أي شيء"، وولادة "الفكرة هي أهم ما يحتاجه الإنسان للنجاح" كما يقول نابليون هيل.

وقبل بداية المباراة في عام ١٩٦٤م حينما تمكن من إقصاء بطل الوزن الثقيل سوني لستون من عرش الملاكمة في دورة الأولمبياد بروما وعمره لم يتجاوز (٢٢) عاما، صرح

قائلاً: "إن سوني ليستون لا يمثل أي أهمية بالنسبة لي، فهو لا يستطيع التحدث مع الآخرين، ولا يستطيع اللعب، انه بحاجة إلى بعض الدروس في التحدث مع الآخرين، ودروس في الملاكمة، وطالما أن مباراته أمامي، فسوف يحتاج إلى دروس في السقوط أيضا"، وفي عام ١٩٦٥م قبل فوزه على فلوريد باترسون، بطل الوزن الثقيل، قال كلاي: "سوف أهزمه هزيمة نكراء، وسوف يحتاج إلى أداة لتسهيل ارتداء قبعته".

ومن غروره أيضا: "إذا تجرأت وهزمتني حتى في أحلامك، فمن الأفضل أن تستيقظ وتوجه لي الاعتذار"، "لن أفتقد الملاكمة، بل هي من تفتقدني"، "أنا لست الأفضل، أنا أفضل من الأفضل نفسه، فأنا لا أهزمهم لكني أعاود الكرة"، "أنا أجرأ وأفضل الملاكمين علما ومهارة داخل الحلبة اليوم".

الحكمة بعد الغرور!

انتقل أشهر ملاكم عرفه القرن العشرين، من الغرور والأقوال الساخرة إلى الحكمة، ومن الملاكمة إلى السياسة مرورا بالدين، كان محمد أسطورة في التغيير الايجابي إلى الأفضل، لم ينظر إلى ذاته بنظرة سلبية قط، بل أصبح -رحمه الله- أنموذجا حيا لعشاق القمة والتحدي، ومما يدل على ذلك أنه عندما تلقى الهزيمة في عام ١٩٧٣م قال: "لم أتصور الخسارة يوما ما، لكنها حدثت الآن. وهناك شيء واحد يمكن القيام به، وهو التعامل معها بالشكل الصحيح. هذا هو ما التزم به تجاه من يؤمنون بي، ولابد لكل منا أن يتذوق طعم الهزيمة في الحياة".

لم يكن محمد ملاكما متشائما ضعيف الإرادة، بل كان قويا متفائلا، قوي الرغبة في التغيير والاتجاه إلى المعالي، كان يصنع قبل تسديد اللكمات إلى منافسيه صورة الفوز في ذهنه بوضوح، بلا شك أو تردد، وكان يرى منافسه قد خر ساقطا ضعيفا مهما كانت قواه الجسمية، انه الخيال الايجابي الذي يرسم النظرة المتفائلة وتصبح حقيقية حينما يستطيع صاحبها ترجمتها في الميدان. عقبات الحلبة وصعوبة الطريق، لم تقف حجر عثرة لمحمد

يوما أو تقعده عن أمله، وحلمه بالصدارة، لأنه كان على دراية تامة بما يريده ويعشقه، وهذه رسالة إلينا كشباب بضرورة تحديد الفكرة والهدف من الحياة، وتحديد الوجهة والمسار، واتخاذ الوسائل المشروعة لتحقيق التغيير، أؤمن بأن الإنسان يتغير متى ما كانت إرادته في ذلك قوية، وخذ قوله هذا "لا يصبح الشخص بطلا في صالة ألعاب رياضية، لكنه يصبح بطلا بما يشعر به من رغبة، وحلم، ورؤية، يجب أن يمتلك الموهبة".

التخطيط السليم يجعلنا قادرين على إدارة التغيير بعد حدوثه بشكل أفضل، وهذا ما نلمسه لدى كلاي حينما حدد موعدا لاعتزال الملاكمة بناء على تحديده للمبلغ الذي يريده "لا أريد أن ألاكم حتى أرذل العمر، وسوف أكتفي بخمسة أو ست سنوات أخرى أكسب فيها مليوني دولار أو ثلاثة وأعتزل الملاكمة".

صراع المبادئ مع المصالح!

التغيير يحتاج إلى مبادئ، وقيم، للانطلاقة وتحصين الإنسان من الانزلاق إلى الهاوية، ومن الشد، والجذب، واستخدامه في مصلحة وأهداف الآخرين، وغالبا ما يسقط في اختبار القيم الكثيرون، فالأمر ليس محصورا في الطبقة السياسية التي غالبا لا تعطي أهمية للقيم والمبادئ، وليس محصورا في عامة الناس الذين قلما يتنبهون لذلك، و لكن تجده عند رجال الدين أيضا، خاصة الذين طغت على حياتهم المادة، يتظاهرون باسم الدين لكنهم يبيعونه بدراهم معدودة، فيقفون سدا منيعا إلى جانب المصالح باسمه، ويوهمون الآخرين بأنهم اتبعوا الحق، وهذا أخطر في نظري. هنا تستحضرني قصة ذكرها الدكتور محمد راتب النابلسي في إحدى محاضراته، فحواها: بينما كان إمام إحدى المساجد بإحدى أرياف دمشق قد ركب مركبة ودفع أجرتها، فإذا بسائق المركبة قد ارجع له "عشرين بنزا سورية" زائدة عن حقه، فساوره الشك في رجوع المبلغ الزائد، فهو يعرف أن الشركة كبيرة وهذا المبلغ لا يساوي لها شيئا، فلو أنه ذهب به لما حدث شيئا، كان في صراع مع نفسه، وحينما أراد النزول من المركبة مد يده وسلم المبلغ الزائد لصاحب المركبة، فإذا به يتفاجأ

من أن صاحب المركبة يقول له: "سمعت عن أخلاقك في القرية وكنت أريد أن أعتنق الإسلام عندك، لكن قبل ذلك أردت أن اختبرك"، سقط الإمام مغشيا عليه ولما أفاق سئل عن ذلك فقال: (كدت أبيع الإسلام بعشرين بنزا).

محمد علي كلاي الذي تشبع بروح الإسلام وقيمه النبيلة، ومبادئه الوطنية، كان واضحا في الوقوف معها بكل حزم، فعندما أرادت الولايات المتحدة أن تدخله في الجيش الأمريكي لمحاربة فيتنام عام ١٩٦٧م، واستخدمت كل الوسائل لإغرائه، رفض بملء فيه وقال: "عقيدتي الإسلامية لا تنسجم مع تعليمات الجنود في تلك الحرب، لن أسافر عشرة آلاف ميل للمساعدة في قتل وحرق أمة فقيرة، وذلك ببساطة لأنني إذا قمت به، فسوف أساعد على استمرار سيطرة سادة العبيد من البيض على أصحاب البشرة الداكنة في العالم، ليس لي مشكلة مع الفيتناميين فلم ينعتني أحدهم من قبل بالزنجي، ولم يتسببوا لبلادي بأي ضرر، وهذه ليست مهمتي التي وضعها الله على عاتقي".

كلاي، أعطى درسا في الالتزام بالمبدأ للوصول إلى بر الأمان، فلو أنه انقاد لهم وحارب ضد الفيتناميين بدون أي سبب شرعي لغزوهم؟ لسقط من عيون الناس ولو كان في عرش الملاكمة، ولما حظي بهذه المكانة العالمية المقدرة، وفي الوقت الذي يصعب فيه على الفرد العادي منا أن يغير عاداته السلبية وتقاليده إذا رأى فيها أخطاء، وفكره ومبدأه إذا رأي فيه انحراف، نجد أن كلاي قد تجاوز ذلك بأريحية حينما نظر إلى التغيير بنظرة صحيحة، ليس من الحضيض إلى القمة فقط، بل من قمة الشهرة والنجومية إلى القمة الحقيقة قمة الإسلام، والمجد، والعزة، والحكمة، وحب الوطن، وهو القائل قبل ذلك "من الصعب أن تتواضع عندما تكون عظيما مثلي ".

اكتساب العادة

"كل الناس يفكرون في تغيير العالم لكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه".

(توماس أديسون)

أحد الصالحين كان يدعو الله عز وجل في صلاته قائلا: "اللهم أعطني القوة لأغير العالم" مضت مدة من الزمن لكنه لم يستطع تغيير أي شيء، فحول الدعاء قائلا: "اللهم أعطني القوة لأغير بلدي" ومرت مدة من الزمن أيضا ولم يستطع تغيير بلده، فحول الدعاء إلى تغيير حارته ثم بيته، وأخيرا إلى نفسه فقال: "اللهم أعطني القوة لأغير نفسي" قالها لكن بعد أن ذهب شبابه وعمره وقل عطاؤه، وباختصار بعد فوات الأوان.

الشاهد في القصة أنه لو بدأ بهذا الدعاء الأخير وبدأ بالعمل لاستطاع تغيير الكثير في نفسه وبيئته، فكل العظماء الذين استطاعوا تغيير وجه العالم من خلال اختراعاتهم ومساهماتهم بدأوا بأنفسهم، وهذا شرط أساسي لمن أراد اللحاق بركبهم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) – (سورة الرعد الآية ١١) وهذا تأكيد للفرد والجماعة بضرورة تغيير الفكر الخاطئ، واستبداله بالفكر الصحيح، لا ننسى هنا قانون الفيزياء في الإزاحة والإحلال، أزح عادة سلبية: الكسل، الخمول، الفوضى، الشراهة في الأكل، التدخين، العادة السرية، مشاكسة الفتيات، إدمان التلفيزيون، إدمان الهاتف النقال، الزيادة في استهلاك القهوة والشاي أو المشروبات الغازية.. واستبدلها بأخرى ايجابية: الرياضة، النظام، الدقة، التوازن في الأكل، شرب الكثير من الماء، الصوم، تنظيم الوقت، القراءة، اكتساب مهارات جديدة.

اقلع الأشجار الضارة من حديقة قلبك ونظفها من: الحقد، والبخل، والبشع، والإسراف، والتبذير، والظلم، والغيبة، والنميمة، والإساءة، واغرس محلها أشجارا

مفيدة: صفاء القلب، التوازن في الإنفاق، الكرم، النخوة، الشجاعة، العدل، والإحسان.

طلب من أحد لاعبي كرة اليد أن يقوم برمي الكرة خارج السلة خطأ بهدف دعائي فلم يستطع لأنه تعود على الصواب وهو إدخال الكرة في المرمى (أنا وأخواتها)، الذين تعودوا على فعل الشيء الصحيح يعز عليهم مفارقته والعكس صحيح، هكذا يجب أن نراقب تصرفاتنا اليومية.

أنا على يقين بأن عدم الالتفات للذات ومحاسبتها وفهم ما تقوم به، وعدم معرفة مكامن الخلل والقوة لا يؤدي إلى نتائج ايجابية (من أدوات تغيير الذات معرفة القدرة على عمل أحافير داخل الأعماق، بدلا من تسليط الضوء على الآخرين) (أنا وأخواتها.. سلمان العودة).

لم يدرك ذلك الرجل الصالح معني التغيير الحقيقي كما هو سائد عندنا، بدأ بالمقلوب فكانت نتيجة خاطئة لبداية خاطئة، كما يقول آينشتاين "السذاجة هي أن تفعل نفس الشيء كل مرة ثم تتوقع نتائج مختلفة" فأن تمشي ببطء خير من أن تجري بسرعة فتسقط، يقول أبراهام لينكولن "أنا أمشي ببطء ولكن لم يحدث أبدا إنني مشيت خطوة للوراء"، وقال رجل لسفيان الثوري "ذهب الناس يا أبا عبد الله وبقينا على حمر دبر-أي دواب ضعيفة- فقال له سفيان: ما أحسنها لو كانت على الطريق".

التغيير سنة كونية!

الحياة بطبيعتها متحركة ومتجددة، فالشمس تأفل وتشرق، والقمر يغيب ويسطع، السماء تتلبد بالغيوم، الأرض يكسوها الخريف، وتتبدل مع الظروف، مع الفصول، ومع الأزمنة، الكون دوما في حالة حركة، والجسد في حالة تجديد، لم يعد هناك شيئا ثابتا، حتى الدين ثابت ومتجدد، الطفل يتدرج في الحركة والكلام والمشي والجري والأكل، وقبل ذلك يتدرج في النمو في بطن أمه من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى جنين كامل، التدرج سنة من سنن الحياة.

ليس العيب في أن نفشل أو أن نخطئ بل العيب أن نتمادى في أخطائنا ولا نمتلك شجاعة الاعتراف، آن الأوان لنتغير ونعتذر عن أخطائنا، وجهلنا، وحماقاتنا، على المدرس الذي أعطى معلومات مغلوطة لتلاميذه أن يعتذر، على السياسي والإداري والمسؤول الذي نهب المال العام أن يعتذر للشعب والوطن، على رجل الدين الذي يحاول بث التفرقة والفتنة بين الناس على أساس المصلحة والطائفة أن يعتذر، على الصحفي الذي ينشر معلومات خاطئة ومضللة أن يعتذر للمجتمع، على الموظف المتسيب عن العمل أن يعتذر للشعب والوطن، الاعتراف بالخطأ طريق إلى إصلاحه وتغييره، "المسلم الحق يكافح يوميا من أجل الاستمرار على الطريق الصحيح، وهو يعلم أنه يمضي في معركة بين الخير والشر، والصواب والخطأ، وكلما كانت يقظته نحو الأشياء السيئة شديدة كانت استقامته أعظم" (عبدالكريم بكار).

الحرية

١

"لا يبني العصفور عشا في القفص؛ حتى لا يورث فرخه العبودية".

(جبران خليل جبران)

كالطائر الذي يحلق عاليا، باسطاً جناحاه ترفرف في الفضاء؛ وكالفراشة الزاهية الهائمة فوق الحقول، كالنحلة التي تختار الطيب، كالريحانة التي تتفتح بحرية رغم التحديات، كالشمس في أفقها تنبض بأشعة الحرية أنا وأنت، ألا تركع سوى لله الخالق جل شأنه فأنت حر، وأن يظل فكرك طليقا يجول ولو جسدك مكبل.

مقدس عظيم ذاك الذي لا ينفصل من ذات الإنسان أينما حل ورحل، إنها إرادة السماء للأرض، وما أعظمها من إرادة؟ إنها الحرية التي تشمل في طياتها حياة بأكملها لا تتجزأ.. قد تتعدد مفاهيمها، ومجالاتها، لكن تبقى الحرية روح تسري، وبحر تزينه السواحل، ومدينة تتزين أبوابها بأسوار جميلة، حكاية معقدة إذا، وفصل متشابك من مسرحية الحياة حينا آخر.

نقيض العبودية!

نعم، الحرية هي نقيض العبودية، والرق، كما أن العدالة هي نقيض الظلم، والاستبداد، وتأتي بمعنى الشرف، والكرامة والفضل، والجمال، والنقاء.. هي قدرة الفرد على القول والفعل كيفما شاء، ووقتما شاء، بما لا يضر بالآخرين، (الشخص الحر: هو الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية فيعلو عن سفاسف الأمور، ويتجه إلى معاليها، يضبط نفسه فلا تنطلق أهواؤه ولا يكون عبدا لشهوة معينة، بل هو سيد نفسه، وإذا تمكن منها انضبطت أهواؤه وأحاسيسه فلا يذل ولا يهان، الحر لا يكون معتديا لأنه يسيطر على أهوائه، ويعطي لغيره

ما يعطيه لنفسه، فيحس بالمعاني الإنسانية التي يجب أن يلتزمها بالنسبة لغيره)، " تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة.. بتصرف ".

كثيرا ما أراقب تصرفاتي حتى لا تحيد عن الطريق في وسط اجتماعي وسياسي ملغوم، لئلا أصبح طعما سائغا في صنارات الصيد التي وضعت للشباب بدل الأسماك، وجدت أمامي كم هو صعب أن تتجاوز السقوط إن كنت بين اختبارين "الحرية والاستقلالية أو المصلحة السريعة؟" الأولى؛ تفتح لك آفاقا جديدة، بينما الأخيرة أي المصلحة السريعة؛ تجعلك فريسة كالسمكة في الماء تحاول بلع الطعم بمرارة. وحده التفكير فقط في تلك المصالح يقتل الحرية، وما أروع الإمام الشافعي رحمه الله تعالى إذ يقول:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر تواقة ترى المذلة كفرا

الحرية كالإنسان! تمرض وتموت فيرثى لها، كالنبتة الخضراء، كالوردة الفيحاء، إن لم تتعهدها وترعاها ذبلت واضمحلت قبل أن تعطرك بشذاها، بل هي فوق ذلك. يشير الدكتور محمد بابا عمي بالقول: "حرية الإنسان ليست مكونا أرضيا ترابيا (مثل لحمه وعظمه).. بل هي فوق التراب وأكثر من ذلك، مضيفا: المدرسة والجامعة والدولة والمجتمع، حين تقتل الحرية في الإنسان، هي بالضرورة تعتدي على جانبه العلوي، تغتال أعظم هبة، وتكفر بأكبر نعمة، وتظلم أقدس مظهر من مظاهر إنسانيته، فبها يتوجه نحو السماء، نحو الأبد، نحو الخلود".

ومرارا كنت أقول بأن البيت والمدرسة والجامعة والمجتمع لدينا ككل، يعملون على اضطهاد الحرية بل وقتلها إن أمكن في كثير من الأحيان، فلا تسأل عن: (حرية الابن، حرية المرأة، حرية التلميذ والطالب، وحرية المواطن..) بالطبع هذا ما يولد الأقزام الذين لا يملكون قرارهم، مجتمعنا يعود على الخنوع والطاعة العمياء دون أن يفسح المجال أمامنا لنتفوه بكلمة لا، هذه الطريقة تجعله يختزل جميع الأدوار في دور واحد للآمر فقط،

سواء كان أبا، أو شيخا، أو معلما، أو مسؤولا، أو رئيسا، ما يجعلنا كالدمية لا نتحرك إلا بإذنه، يريدنا أحدهم أن نكون أبواقا أو ببغاوات تردد ما يقوله فقط بصوت جميل، تماما كقول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

قتل الحرية، يقتل الإبداع، والمواهب، وكذلك عناصر الاختلاف، شعار: (إن لم تكن معي فأنت ضدي) يسلب حرية الآخر ولا يعترف بها، لأنه يعتبر ذاته حرا صائبا وغيره تابعا، وفروق بينهما كثيرة.

حرية التفكير!

أن تتمرد على الخطأ الشائع، وهذا الواقع المرير، وتتجول بفكرك حيث تشاء؛ فإنك طليق الفكر، هناك من لا يريد لك أن تكون حرا حتى في إطلاق العنان لتفكيرك، مع أن الخالق الكريم جعلك حرا مكرما، وحثك عليه لتتدبر آياته والكون من حولك، فدعاك بكامل حريتك أن تتفكر دون قيد أو شرط، ولله در الفاروق إذ يقول " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ".

عبارة رائعة للدكتور سلمان العودة أتذكرها اليوم وهو داخل السجن "أتدري ما أعظم أنواع الحرية؟ هو ألا تسمح لأحد أن يقتحم دواخلك دون إرادتك، قد يهيمن على جسدك، ولكن تظل الروح طليقة، ويظل الفكر عصيا على التركيع لغير الله تعالى، ويتابع: كم من شخص يتعذب بالأسر داخل قيود ذاته، وكم من حر يصنع من قيوده أنشودة رائعة للحياة.. أنت حر في داخلك، فقط تعلم كيف تحافظ على حريتك، والحرية كلمة، فلتكن كلمتك صادقة شجاعة".

سيمفونية الحرية هي أنك تستطيع أن تعزفها فكرا، وفعلا، وقولا، تحت نغم تختاره أنت وليس غيرك، تحت ذوق لا يمثل سوى ذوقك أنت، لماذا؟ لأنها مزيج من روحك

ولحمك ودمك، وهذا لا يمتلكه غيرك أنت، من الخطأ أن نقول هناك من يهب لنا الحرية شخصا كان أو نظاما، انها لا توهب، فهي أصل في الإنسان، وجوهر وجوده لا تنفصل عنه بأي حال من الأحوال، بإمكاننا أن نقول: هذا الشخص أو ذاك النظام، أفسح الطريق أمام الحريات للتعبير دون أي إفراط أو تفريط بعدما كانت مكبلة، وفرق بين الأصل والفرع. ومهما كانت قيود السجان متينة، وقلعة سجنه حصينة، لابد وأن تتحطم يوما إن طغى وواصل العبث بكرامة البشر، لأن سجنه عاري من القوة فقد أسفر الصبح لذي عينين..

نعم،، فقد أصبح الصبح

ولا السجن ولا السجان باقي

وإذا الفجر جناحان يرفان

عليك

وإذا الخزن الذي كحل هاتيك

المآقي

والذي شد وثاقا لوثاق

والذي بعثرنا في كل وادي

فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي

أصبح الصبح

وها نحن مع النور التقينا

التقى جيل البطولات

بجيل التضحيات

التقى كل شهيد

قهر الظلم ومات

بشهيد لم يزل يبذر في الأرض

بذور الذكريات.

(شاعر إفريقيا محمد الفيتوري).

حدود الحرية!

من هذه الزاوية المغايرة، يقدم فتح الله كولن في كتابه "الموازين أو أضواء على الطريق" ومضة مغايرة، إذ يقول" الذين ينظرون إلى الحرية وكأنها تعنى الانطلاق دون أي ضوابط؟ لا يدرون بأنهم يخلطون بين الحرية الحيوانية والحرية الإنسانية، وبينما شعار الحرية الذي يرفعه الذين يتهالكون لتحقيق الشهوات الجسدية ليس إلا شعارا حيوانيا، نرى أن الحرية تسعى لإزالة العوائق أمام الروح لكي تسمو وتحلق في الأعالي.. مثل هذه الحرية شعار إنساني وعلامة على الماهية الإنسانية.. إنها عدم قبول الروح سوى المشاعر العلوية والأفكار السامية، ولا تعني الإسار لأي مبدأ سوى مبدأ الخير والفضيلة".

يقولون: الحرية لها حدود، وأقول: ولها مساحة أيضا، وحريتي تنطلق عندما تعلن الصافرة انتهاء حرية الآخرين.

٢

"المجتمع المحروم من حرية الرأي ليس مجتمعا إنسانيا".

(سلمان العودة)

حرية التعبير!

الشعوب متعطشة للتعبير عن حريتها سيما المضطهدة منها، والتضييق عليها يولد انفجارا ربما يشبه في قوته وشراسته (انفجار بيك بن BIG BENE الهائل) إذ لا شيء بمقدوره أن يقف أمامه.

لقد عانت البشرية من ويلات الظلم، والقهر، من الاستبداد السياسي والديني الكنسي المتمثل في الحكم بالبطش، وتقديم القرابين، والجشع الذي يمارسه مواليهم من رجال الأعمال المتجذرين في كل مفصل وفي كل شبر من الأرض والذين يسمونهم بـ "الإقطاعيين"، مارسوا تنكيلا فظيعا جعلت أعتى الثورات تلتهب نيرانا لأفظع الدكتاتوريات التي عرفها العالم في أوروبا وأمريكا، والتي أذاقت الناس أصناف الويل، ودامت لعقود من الزمان خلال القرن الماضي وما قبله.

وحينما استطاعت الثورات قلب الموازين، لخص الثوار عبارة مشهورة "اشنقوا آخر حاكم بأمعاء آخر قسيس"، وهو ما يظهر درجة الانتقام من أناس عانوا من البطش والاستبداد وكان هذا تعبيرهم لما حان الوقت الذي يتنفسون فيه من رائحة الديكتاتوريات وظلمها وويلاتها، وغني عن التذكير هنا إلى أن ثمن حرية التعبير كان وسيبقى باهظا، ما يفرض على الكثير من الأنظمة تعديل بوصلتها والاستفادة من دروس وعبر التاريخ وأحداث ونتائج الواقع.

إن الثورات الوطنية التي قامت خارج البلاد أو داخلها وان اختلفت، إلا أن غاياتها

تكاد تكون متشابهة لحد كبير، حيث المطالبة بالحرية، والعيش الكريم، وردع الظلم، ومقاومة الفساد؛ وكذا مقارعة المستعمرين الطغاة الذين أقدموا على ارتكاب جرائم فظيعة وكبيرة، كانت "ثورة فرولينا FROLINA" أكبر وأشهر الثورات التشادية التي غيرت الكثير في مجريات الأحداث المحلية الحديثة رغم أنها لم تستطع تحقيق أهدافها، حتى قال الحاج قاروندي جرمة "إن الذي لم يدرس أحداث ١٢ فبراير ١٩٧٩م ويستوعبها جيدا، لا يمكنه أن يفقه شيئا في الأحداث اللاحقة لها، وبعبارة أخرى، لا يمكنه فهم التاريخ السياسي الحديث لتشاد " (فرولينا، أحداث الثاني عشر من فبراير الخلفية والآثار، محمد الهادي عبد الرحيم).

لا يمكن ونحن نكتب عن حرية التعبير أن نتجاهل العبارة الشهيرة التي قالها الرئيس إدريس ديبي اتنو إبان تسلمه للسلطة "ما جئتكم بذهب ولا فضة بل أتيتكم بالحرية" هي تعني بالضرورة إفساح المجال أمام الحريات الفردية والجماعية للتعبير عن آراءهم وتطلعاتهم بالزاوية التي يريدونها وبالطريقة السلمية المشروعة، خلافا للخلط الذي يقع فيه البعض بأنه جاء بالحرية أي وهبها، وهو غير صحيح بالنظر إلى أن حرية التعبير هي جزء من الحريات العامة للفرد والجماعة، وهي أصل من كينونة الإنسان. لقد وضعت تلك المقولة أمام اختبار حقيقي، حيث تعددت وجهات النظر تجاه السياسة التي ينتهجها الرئيس ديبي بعد أن أخرج البلاد من النفق المظلم الذي أدخلها فيه الرئيس –حسين هبري– إلى نفق آخر مظلم ومواز، ورغم تلك الجهود التي بذلها الحزب الحاكم، إلا انه بات يقوم بعرقلة الناشطين السياسيين والمدنيين الذين يناوئونه في الفكر وطرح الرؤى المختلفة، وهو أمر لم يعد مقبولا بأي حال من الأحوال، طبعا لا ندعو إلى الفوضى كما لا ندعو إلى التضييق على حريات الآخرين سواء كانوا ناشطين أو سياسيين أو غيرهم طالما التزموا بتعبيرهم سلميا وفقا للقانون وبدون اعتداء.

من الواضح أيضا، أننا نشهد تقدما ملحوظا في مجال حرية التعبير لدى الفرد في بلدنا الذي يتجه الآن إلى التعبير الجماعي نتيجة عدة عوامل منها: كسر حاجز الخوف الذي

خيم علينا لفترات طويلة، إضافة إلى زيادة الوعي والتطلع إلى مستقبل أفضل، زد على ذلك الأوضاع الضنكة التي يعيشها المواطن حاليا والتي تتسارع عقاربها إلى السقوط نتيجة الضغوط الاجتماعية والجشع الاقتصادي الذي يمارس في الأسواق التشادية، الأمر الذي أدى الى استفحال غلاء المعيشة! وقد أسهمت ثورات الربيع العربي بلا شك إلى جانب مواقع الاتصال في ازدياد وعي المواطنين بحقوقهم وواجباتهم تجاه الوطن في الآونة الأخيرة، بل ومحاولة التعبير عن تلك الحقوق والواجبات بالقول والفعل معا، وهي أول خطوة هامة في طريق مقارعة توطين الفساد والظلم الاجتماعي وغياب الديمقراطية ودولة القانون والمؤسسات.

إن وسائل الحرية (العقل، والإرادة، والقدرة، كما يوضحها الدكتور علي الصلابي) باتت اليوم إلى جانب عوامل متعددة أخرى تضيق الخناق على المسؤولين المتهاونين في قضايا الإصلاح والتنمية، وبات المواطن يستعجل النتائج بعدما كان لا يأمل حصولها بتاتا، وبين هذا وذاك أصبح الخط الأحمر هو المساس بحرية الأفراد والجماعات، إن وسائل قمع الحريات والتخويف قد تجاوزها الزمن، وبقيت حرية التعبير سيدة الموقف، حيث لا يمكن لآلة القمع أن تصمد في وجهها مهما كانت رصينة، وبات الحوار والإسراع في دفع عجلة التنمية بشكل شامل وبصورة شفافة هو المخرج الرئيسي والطريق إلى امتصاص وتهدئة غضب الجماهير المتعطشة للحرية والكرامة، هذا إذا وعاه رجال السياسة قبل أن (يخنق الماء القنطور) كما يقال بالعامية التشادية أو كما هو بالعامية التونسية "لا تسيب الماء على البطيخ"!.

حرية المرأة!

إن حرية التعبير لا تقتصر على الجانب السياسي فقط، بل تتعدى ذلك إلى الحياة بشكل عام، فالمجتمع يمارس ظلما في حق المرأة سيما في القرى والبوادي التي يمارس فيها الرجال اضطهادا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.. حيث لا حق لها ولا كرامة لها في التصرف

في حياتها العامة، وذلك بفعل عدة عوامل: منها غياب المدنية والثقافة والتربية من واقع الحياة اليومية نسبة للجهل بالحقوق والواجبات.

لسنا من دعاة تجرير المرأة والمساومة عليها، حيث يقول مصطفى صادق الرافعي: "إن الغرب أخطأ عندما أراد تحرير المرأة، فتحريرها خطأ مطبعي، لأن الكلمة التي يعنونها هي تجرير المرأة وليس تحريرها"، لسنا أيضا من دعاة التضييق والاضطهاد في حقها في ذات الوقت، بل ندعو إلى الحقوق والواجبات المشروعة التي أوضحها الشارع الحكيم، والحقوق المدنية التي ضمنها لها الدستور والقوانين الوضعية.

المجتمع الذكوري -إن جاز التعبير-ما زال ينظر إلى المرأة بمنظار الشهوة والخدمة غالبا، وهو منظار غير متزن، ويترتب على ذلك الكثير من مشكلات التربية التي يعانيها مجتمعنا بصورة كبيرة ولفترة طويلة، وما لم نتحرر من هذه الرؤية الساقطة لن نستطيع أن نسهم في جعل بنات اليوم رائدات المستقبل يشاركن في معترك الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل أوسع وأفضل.. أعجبتني كلمة نقلها الدكتور طارق السويدان "كيف تنهض أمة تقفز برجل واحدة فقط، وهم الرجال"؟.

٣

"تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الحرية".

(علاء الفاسي)

حرية الطالب!

الطالب ليس صنما في الحقل التعليمي لا يملك حقوقا ولا حرية، بل هو أولا إنسان له مشاعر، وميول، ومبادئ، ومرجعيات وتوجهات فكرية وسياسية، تعمل تلك الصفات في مجملها على صنع شخصيته ونموها وثقلها في كافة مجالات الحياة.

لقد تحول دور التربية اليوم من دور تقليدي يجعل التلميذ أو الطالب متلقي للمعلومة فقط، إلى دور تفاعلي يجعله محور العملية التربوية وقبلتها التي تتوجه إليها، ولم تكتفي التربية الفاعلة بذلك، بل تفننت في استمالته واستقطابه من خلال التعدد في الوسائل التعليمية الحديثة ومحاولة البحث لمعرفة ميوله ورغباته وتطلعاته من أجل إحداث تغيير في سلوكه نحو الأفضل داخل المجتمع. تلقي الطالب للمعلومات فقط ينساها بعد الإمتحان ولا يتذكر الكثير منها وهي في نفس الوقت نظرة تقليدية تسهم في كبح حرية التفكير والتعبير وقتل الإبداع، لذا لم يعد بالإمكان تجاوز الأهداف الوجدانية والسلوكية للطالب والاعتماد على الأهداف المعرفية فقط، حيث يحصر ذلك العملية التربوية كلها في إطار ضيق يتحكم فيه المحاضر بشكل كامل دون أن يكون فيه للطالب حظ وافر.

تنظيم حرية الطالب

في الكثير من مؤسساتنا التعليمية قد تكون النظم واللوائح سببا في تقيد حرية الطالب بدلا من تعزيزها وتنظيمها، هي تناقض تسميتها نظما في بعض الأحيان، من خلال السياسة التعليمية التي تنتهجها أغلب جامعاتنا المنطوية ومؤسساتنا الثانوية المنغلقة على

ذاتها، والرافضة لأي اقتراح أو رأي مخالف لتوجهاتها، ومنها: أنها تحصر بصورة غير مباشرة دور الطالب في تلقي الأوامر والنواهي فقط، بدءا بدخوله ساحة المؤسسة ثم إلى داخل قاعة الدراسة وانتهاء برجوعه إلى للبيت، وكأنه دمية لا يمكنه إبداء أي رأي مخالف سواء في الدرس أو النشاط حينما لا يصب في مصلحة الإدارة.. وقد يصل ذلك في بعض الأحيان حتى للمعلم أو للمحاضر الجامعي ذاته، أتحدث هنا بصفتي معلما تربوياً بخبرة عشر سنوات، من خلال احتكاكي بالتلاميذ والزملاء والإداريين وفي مؤسسات تعليمية ثانوية وأخرى جامعية مختلفة، مؤسساتنا بهذه الكيفية تعيق الحرية، والإبداع، وعناصر الاختلاف الطبيعية، فتخرج الكثير من -الأقزام- الذين يكررون ذات الأوامر والنواهي في حياتهم العملية والمهنية.

لم يعد عدم تحديث النظم التعليمية أمرا مقبولا بذات الطريقة المقيدة للحرية التي بموتها يموت الإبداع والتجديد، بل ينبغي وضع متنفس وعدم المبالغة، لئلا يصبح الطالب مجموعة معلومات مجردة فقط لا تنفعه كثيرا في حياته العامة كما هو ملاحظ، وكنت أقول: التعليم ما لم يحدث أثرا في السلوك ويعمل على تعديلها لا فائدة منه، و"العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك"، ويقول يونس إمرة: "العلم أن تعرف نفسك، فان لم تعرفها فالعفاء على ما قرأت".

عقلية الإدارة المتحجرة ينبغي أن تتغير، طبيعة النظم واللوائح ينبغي أن تتغير، ينبغي أن تساق بطريقة عقلانية ومهنية ووجدانية، وأقترح أن يساهم الطالب أيضا في صياغة بعضها حتى تكون أكثر واقعية، نريد طلابا أحرارا في الفكر، يصبحون قادة أكفاء لهم آرائهم في شتى المجالات التي يشتغلون فيها فيما بعد، وليسوا إمعة يطبقون طريقة الأوامر والنواهي -عديمة الفائدة- التي تخرج الأقزام، أتذكر هنا مرة أخرى الكلمة القيمة التي قالها الدكتور محمد بابا عمي "حرية الإنسان ليست مكونا أرضيا ترابيا (مثل لحمه وعظمه).. بل هي فوق التراب وأكثر من ذلك، مضيفا: المدرسة والجامعة والدولة والمجتمع، حين تقتل الحرية في الإنسان؟ هي بالضرورة تعتدي على جانبه العلوي، تغتال

أعظم هبة، وتكفر أكبر نعمة، وتظلم أقدس مظهر من مظاهر إنسانيته، فبها يتوجه نحو السماء، نحو الأبد، نحو الخلود ".

الطرق القديمة تقيد الحرية!

ان استخدام طريقة المناقشة والحوار، وطريقة الأسئلة والأجوبة من الطرق الفعالة جداً في المرحلة الجامعية بالذات، ينبغي أن يكثر من استخدامها المحاضرون كلما اقتضاها الموضوع، علينا التشجيع عليها إذا أردنا غرس و تنمية روح الحوار في الناشئة وتشجيع الرأي والرأي الآخر، – مع تسليمنا بأن كل درس أو موضوع يناسب طريقة ما من الطرق التربوية المعروفة – هذه الطرق تحفز الدماغ حول موضوع بعينه، وهو ما يعطي للطالب ثقة كبيرة في نفسه، وفي زيادة معرفته وطريقة تفكيره، أما استخدام طريقتي المحاضرة، و الإلقاء، –التقليديتين– بكثرة فلا رجاء كبير منهما، ولا عزاء لهما في وجود الكتب ومحرك البحث "الشيخ غوغل" وتطبيقات الذكاء الاصطناعي حيث يتدفق الكم الهائل من المعلومات على الشبكة العنكبوتية، ولذلك ينبغي أن تواكب مؤسساتنا التعليمية الثانوية منها والجامعية الواقع ومعايشته.

حياة الإنسان وما يتعلمه تنعكس على تصرفاته وسلوكه، ولذلك ينبغي أن يكون هناك توازن وحكمة في التعاطي مع قضايا واقع الطلاب وتحدياتهم المتسارعة، ما يتطلب وعيا فكريا منطقيا من كل الجهات التي تعنى بالعملية التربوية والتعليمية وهو درس نلاحظ عدم استيعابنا له بعد.. فالإصرار على الأفكار التقليدية السابقة التي تعتبر المحاضر أو المعلم رجل شرطي يعطي الأوامر والنواهي، وجعل الثانوية أو الجامعة مركز شرطة لتطبيق تلك الأوامر والتوجيهات لم تعد فاعلة اليوم في ظل الثروة المعلوماتية والفكرية والتكنولوجية التي يعايشها الطلاب، لذلك ينبغي التفكير بطرق أكثر حكمة تجعل الطلاب رفقاء المعرفة وليسوا أوعية تحشى بأكبر قدر من المعلومات دون النظر إلى جوانبهم الوجدانية والسلوكية والمهارات التي يمتلكونها وتطلعاتهم وهمومهم وآلامهم.

حرية الاعتقاد!

لا يمكن أن نتجاهل ونحن نمر سريعا على بعض أنواع وأنماط الحرية، حرية الاعتقاد، حيث تعتبر أول حق أساسي من حقوق الإنسان "حرية التدين"، وهي أعلى أنواع الحريات مرتبة وأعظمها مكانة، وقد كان الإسلام واضحا فيها في شريعته السمحاء، ويكفي بأن سورة الإخلاص وحدها تلخص مبدأ حرية الاعتقاد والعبودية لله عز وجل، وتحرر الإنسان من براثن الشرك وعبودية الأوثان إلى عبودية رب العباد، وقد أعلن الإسلام هذا المبدأ عاليا شامخا قاطعا حيث قال في حرية الاعتقاد "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (سورة الكهف الآية ٢٩) وقد كان واضحا في تعاطي الناس مع هذا المبدأ حيث قال "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" (البقرة الآية ٢٥٦) ، "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس الآية ٩٩)، "وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل الآية ١٢٥)، فمبدأ الإكراه في الدين من أي جهة كانت مرفوض ويتنافى مع هذه الرسالة السامية التي هدفها سعادة الإنسان في الدارين من خلال العبادة الصحيحة لله عز وجل. الحرية حق طبيعي لكل فرد، فيا (أيتها الحرية كم جرائم ارتكبت باسمك)؟

التجدد

(اذهبوا فأنتم الطلقاء)

رموه في الجب (البئر) ليتخلصوا منه، وجاءوا أبيهم فقالوا "أكله الذئب"، بعد تبيان الحقيقة؛ عادوا وقالوا "يا أبانا استغفر لنا" (اعتراف بالخطأ ودعوة إلى التسامح)، من -بتشديد النون- الله عليه وبعد أن كان قادراً على الرد عليهم، قال:" لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم" (عفى وصفح).

أغروا صبيانهم بإيذاء جسده الشريف، فرموه بالحجارة في الطائف، يستأذنه ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين فيقول له "لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وينصر هذا الدين" (عفى وحلم)، وعندما مكنه الله من الانتصار على المشركين الذين آذوه وأخرجوه من بلاده - مكة المكرمة- قال قولته الشهيرة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (عفى وصفح)، قمة التسامح أن تعفو وأنت في موضع قوة وليس في موضع ضعف، انتصار على الذات وليس لها.

كانا يسيران في الطريق، ولسبب ما ضرب الأكبر الأصغر منه، فكتب الصغير على الرمال (لقد ضربني أخي)، وبينما يواصلان المسير نزلا إلى البحر، فإذا بالصغير قد تعرض للغرق فأخرجه الكبير، بعدما استفاق؛ كتب على الصخر (لقد أنقذني أخي).. سأله؟ لماذا كتبت على الرمال بأني ضربتك وعلى الصخر بأني أنقذتك؟ رد عليه بقوله: لقد كتبت على الرمال إنك ضربتني حتى تجيء الرياح فتمحوها فأنساها، وكتبت على الصخر أنك أنقذتني حتى لا تمحى ولا أنساها أبدا،

فما أجملها؟ الأولى تسامح، والثانية وفاء. ما أروع الكلمات التي نقولها للآخرين في أوقات الأفراح لنخرج أنفسنا من براثن الاكتئاب وقصورنا تجاههم؟ ما ألطفها من

كلمات نرددها وقتئذ ونحن في قمة الصفاء فنخلع أخطائنا بعدها كخلع الملابس. ثم نعود بعد فترة وكأننا لم نقلها يوما لأحد؟

ما أعظم الكلمات التي نقولها حينما نخاطب ربنا صاحب الجلالة في الليل الدامس ونحن ساجدون! لحظات شبيهة ببزوغ الفجر وإشراقته من رحم الظلام الحالك ووحشته.. إنها محاولة التعود على التسامح وما أجمله؟

قد يضرب أحد الآباء ابنه لأتفه الأسباب، وقد يضربك المعلم أو المدرس في الحلقة وأنت صغير بلا مبرر أحيانا، كما يستخدم البعض أساليب العقاب الجماعي المشينة، وقد يظلمك شخص بلا حق، أو يسبك ويتعرض لعرضك، قد تتعرض لمزحة ثقيلة أمام الآخرين أو للقب لا تريده، نحن نتعثر في هذه الحياة وهل معنى ذلك أن نعامل بالمثل فنعاقب وان كان من حقنا في بعض الأحيان؟ هل يجب ألا نغفر ونحن من يدعو الله أن يغفر لنا؟

بعضنا يكبر الموضوع وليس لديه استعداد للعفو والنسيان، وربما تكبر عن قبول أعذار الآخرين والعفو عنهم، فيعذب نفسه بذلك ويملأ صدره بأحقاد تشغله، فيعكر صفو قلبه، ويشعر بطاقة سلبية تعيق طريق سعادته، والسعادة لا تتسع لقلب صغير وروح ضيقة ليس فيها مساحة، ينبغي أن نتغابى عن الأخطاء التي لا ترى بالعين المجردة من منطلق "التمس لأخيك سبعين عذرا فان لم تجد فقل لعل له عذرا لا اعرفه" فما أروع أن تكون لك قوة الانتقام لكنك تعفو وتصفح، (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)، و (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين).

التسامح ونقاء القلب والروح من الشوائب نصف الطريق إلى السعادة، وطريق إلى الله عز وجل الغفور الرحيم، في الحديث القدسي: (يا ابن ادم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن ادم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن ادم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا

تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة).

من البطولة أن يتغلب الإنسان على هوى النفس، ويشعر بالتعاطف والرحمة مع الآخرين، فمن منا لا يخطئ ولا يصيب؟ ينبغي ألا نتكبر عن التسامح، ونتسامح مع أنفسنا، ومع الله أولا، في تقصيرنا في واجباتنا تجاهه، وان نتوب اليه، فعندما تكون ضمائرنا صافية نشعر بالراحة ونعمل أكثر وننجز أكثر.

إبراهيم الفقي كانت له مقولة رائعة يختم بها كتبه دائما (عش كل لحظة وكأنها آخر لحظة في حياتك.. عش بالإيمان، عش بالأمل، عش بالحب، عش بالكفاح، عش بالتطبع بأخلاق الرسول – صلى الله عليه وسلم– والصحابة الكرام، وقدر قيمة الحياة).

الفصل الثاني: التشخيص
(تفكيك المشكلات وتقديم الاقتراحات)

يناقش الفصل الثاني:

عدد من القضايا السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية...

سنوات الضياع

عندما نلقي نظرة خاطفة وبتجرد عن ماضينا، بداية من تاريخ إعلان ولادة الجمهورية التشادية الحديثة عام ١٩٥٨م، وما بعده الاستقلال الجزئي في ١١/ ٠٨/ ١٩٦٠م وحتى واقعنا المنظور، لا نرى الأشياء إلا قاتمة مع الأسف؟ سنوات من الضياع فعلاً، ضياع بلد لا يمتلك أي قادة مخلصين، ولا أي توجه أو بوصلة تتجه بنا نحو مسار التنمية والازدهار، بلد متخبط، تخبطت قياداته وضاع مواطنيه، كما تخبطت نخبه وتشظت وتاهت في معركة البحث عن لقمة العيش، ثم وجدنا أنفسنا أمام السراب.

نعم وجدنا أنفسنا أمام السراب بلا دولة بالمعنى الحديث، بل الأسوأ من ذلك هو أن مرحلة العبث بدواليب هذه الدولة كانت باهظة التكلفة، تفاقمت إراقة الدماء التشادية التي لم تجف حتى بعد الخروج الشكلي للمستعمر، كانت تسال بين أبناء الوطن الواحد أنفسهم وبتمويل خارجي، تغير السفاح والضحية واحدة. انعدمت الأرضية التوافقية بعد فرض الحزب الحاكم نفسه على الواقع وإقصاء الأطراف الأخرى التي قام بها أول رئيس للجمهورية انقارتا تمبلباي الذي بدأ ذلك التهور في اختراق واضح ومتعجرف لمبادئ الجمهورية الحديثة التي تتطلب أكثر الوحدة والتقارب والعمل من أجل بناء الدولة، ثم تشكلت على ضوء ذلك الانقلابات العسكرية وولدت ثورة فرولينا وبقية الثورات المسلحة وبدأت تجوب الخريطة طولا وعرضا، ثم واصل العبث بالدولة كل الأنظمة اللاحقة والرؤساء اللاحقين قوكوني وداي وحسين هبري وإدريس ديبي، فكانت النزاعات القبلية والفساد والإستبداد والقتل والظلم عناوين الجمهورية البارزة، كان الرصاص أقوى من القلم وهو المحدد لكل خطوة من الخطوات في الجمهورية الضائعة.

الحروب السياسية العسكرية الطاحنة من أجل الحكم بقوة السلاح مزقت الخارطة،

وفتكت بالمجتمع المجاعات والأوبئة، واصل الفساد نخره لجسم الدولة وتدميرها من الداخل كدودة تغزو شجرة تأكلها حتى تسقطها أرضا، كانت الخارطة مثقلة فعلاً بكل أنواع التخلف والجروح وبكل أساليب الاحتيال والكذب والظلم والضياع.. كان المخاض عسيرا، وكانت الولادة قاسية، أزهقت الأرواح، وفتحت جروحا من الفوضى والدمار بأبوابها الممتدة، وشتت النعرات القبلية أبناء الوطن الواحد، فخلفت آفات يصعب إلى اليوم احتوائها بالصورة المطلوبة.

منذ تلك الولادة القيصرية، تعاقبت على الأقل خمسة أنظمة، جثمت فوق رأس الشعب، تفننت في نهب الثروات وتفاقم الديون الخارجية، كانت تعمل على تمييع أفكار البسطاء من خلال شعارات براقة لا تعمل على تحقيقها، في مقابل جر الأقوياء المسلحين واستمالتهم للمشاركة في تقسيم الكعكة.

حروب العسكر المتواصلة، النزاعات القبلية المتزايدة نتيجة تمزيق النسيج الاجتماعي، الفوضى العارمة، والاستعمار المخيم فوق رؤوسنا، كل هذه الأطراف تتجاذبنا منذ ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا، سمحت بالانزلاق بنا نحو المجهول، نحو الضياع، نحو الوفيات المرعبة للأمهات والأطفال، نحو الموت من الملاريا التي تقتل وحدها الآلاف من المواطنين سنوياً، اهتزت الصورة الخارجية وساهمت في تهجير الشباب عبر الصحراء، وعبر البحر، ولقى العديد منهم مصرعهم في مناجم الذهب بحثا عن حياة أفضل، تفاقم الجهل والمرض، وازدادت نسبة الفقر، ونسبة المعاناة، ونسبة الموت، فجعلت اليوم قاتما تماما كما الأمس وتقريبا بنفس العوامل، وما زلنا إلى اليوم خارج سياق التاريخ والجغرافيا ومع الأسف لا تزال بوادر المستقبل لم تظهر بعد؟

راودتني حزمة من الاستفسارات! بماذا كان يفكر المواطن طيلة هذه الفترة، هل نسي أنه وجب عليه النضال؟ وأي نضال يحتاج، أم نضاله من نوع مختلف، نضال عن كسرة الخبز المفقودة، وعن الدواء والتعليم، عن الحرية والاستقلال المزعومين، والعدل

والكرامة الغائبين؟ عن المؤسسية والديمقراطية والحكم الرشيد؟ أم بحثا عن إتاحة الفرصة له ليعتلي دور الناهب، المجرم، القبلي، الفوضوي بلا حدود؟ مرة أخرى، كيف كان يفكر؟ بتشاد أم بنفسه؟ أم بهما جميعا؟

هل تساءلنا يوما لماذا نجد أنفسنا في ذيل دول العالم؟ في الشفافية والحكم الرشيد، في الأمن الغذائي، في التعليم في الصحة في الصناعة في السياحة وغيرها من المجالات، أم أصدرتم من مواقع مصالحكم بيانات تنفوا تلك المعطيات والأرقام؟ هل عندكم معطيات حقيقية واقعية غيرها؟ ثم هل توقفتم لحظة لتقرأوا الوضع وتلك المعطيات بتجرد؟ أم تهورتم كالعادة في كلى الحالتين؟

ثم هل نعمل بمقاييس مهنية دولية؟ وقبل ذلك، ما هو عملنا، ماذا ننتج أصلا؟ أليس أجيالا من العاطلين والكسالى والضائعين؟ أليس كل ما نعمله هو تمزيق الخارطة وتشتيت الجهود وإضاعة القدرات والثروات؟ ألم تتفنن الدولة في وضع برامج تسويقية فارغة المحتوى لجذب العطايا والهبات والديون لتزيد من ثراء الصفوة الناهبة؟

ماذا نقدم لأنفسنا ووطنا وقارتنا حقا؟ هل نصنع إبرة لنخيط بها ملابسنا؟ الكبريت الذي نوقد به نيراننا ألم نستورده من الكاميرون؟ كيف لأكثر من سبعة عشرة مليون نسمة تقريبا ألا يستطيعوا فعل ذلك؟ كيف لا يجد أغلبهم سكنا لائقا ومعيشة كريمة وتعليم حديث ورعاية صحية ممتازة وخدمات متميزة من ماء وكهرباء وغاز ومواصلات حديثة وبنية تحتية وتكنلوجيا متطورة؟ ماذا يفعلون إذا كانوا لا يستطيعون فعل ذلك؟ وما جدوى ذلك العمل؟ كيف يمكن لدولة لا يقارب عدد سكانها كلهم سكان مدينة عصرية واحدة مجاورة مثل أبوجا أو قريبة كالقاهرة أو بعيدة كبيجين أن يعجز أهلها عن توفير هذه الأساسيات المفروغ منها في جل دول العالم، ماذا يحصل لنا حقا لو وصلنا لنفس عددهم مع تزايد آلة الإنتاج البشرية الضخمة التي نمتلكها؟

السؤال الجامع المختصر لكل هذه الاستفسارات "هل نحن جديرون بالتنمية"؟

هل نستحق الأفضل إذا كنا خلال أربع وستين عاما عاجزين عن صناعة إبرة أو علبة كبريت؟ قولوا لي شيئا واحدا عملناه لنفتخر به أمام دول العالم؟ بماذا تميزنا، هل بالتعليم، أم بالصحة أم بالصناعة والسياحة والفن والرياضة، أم بالحريات والمواطنة؟ بماذا نفتخر حقا؟

أربع وستون عاما من الاستقلال هي في الحقيقة سنوات من الخراب والدمار مرت وكانت عنوانا للخيبة، وعنوانا للفشل والضياع، ودروسا من الذاكرة إذا استطعنا استيعابها بتجرد وبعيداً عن الانتماءات الضيقة، لا تغتروا بالهوامش، الحقيقة أننا في بحر متلاطم من التخلف، ألا تكفي هذه السنون لنهضة هذا المجتمع ورقي هذا الإنسان، ألا تسمح كل هذه المدة بتلبية احتياجات أساسية لهذا المواطن الذي يعيش على الكفاف؟ دول حولنا نهضت من القاع إلى مداعبة أحلامها وآفاقها المستقبلية في فترة لا تتجاوز عشرون عاما فقط، أليس أربع وستون عاما تكون كافية بالنسبة لنا للإقلاع نحو المستقبل، وفرصة لتضميد الجراح ولم شتات الخريطة البائسة؟

لكنها لم تكن كذلك، حتى عقولنا وقلوبنا باتت لا تتسع لكل هذا مع الأسف، ضاعت أحلامنا في مهب الرياح كما ضاعت أحلام الأجداد ببناء دولة الحرية والكرامة، دولة خالية من الخيانة والظلم الاجتماعي، يسودها العدل والعيش الكريم والنماء.

اليوم لا يرجو المواطن شيئا من كل ذلك، لم تعد حتى الأحلام سهلة، العقول والقلوب متعبة من المعاناة ومن الألم، الفساد العارم يواصل ضرب الأحلام بأدراج الرياح، الخريطة التشادية اليوم ممزقة بالجفاف والتصحر، بالمجاعة وغياب الأمن الغذائي، بالقهر والجهل، وتشتتها الانتماءات والولاءات القبلية والسياسية، ما زلنا نكرر التاريخ، نكرر تقريبا نفس عوامل تمزيق الخارطة الضائعة. لم تعد خريطة الجمهورية جامعة إلا على الورق، لم يعد شعار (وحدة- عمل- تقدم) يلقى بالا من أحد، التفرقة هي السائدة كما كانت البداية، الكسل هو الذي حل مكان العمل، أما التخلف فكان هو

الميزة السائدة بدلا من التقدم! ليست نظرة سلبية قاتمة، بل هي الحقيقة المرة التي لا أحد يريد سماعها، هي مكاشفة للنفس وتلمس لمناطق الجراح والألم، هو الواقع المر، والماضي الكئيب، والمستقبل المجهول.

أين يكمن الحل برأيكم؟ الحل برأي هو في القدرات التي نمتلكها، في بناء الإنسان أولا، بناء المواطنة الحقة؟ في التعليم الجيد، والوعي المتواصل وإتاحة الحريات، إيجاد الحد المعقول من الحكم الرشيد والعدل والكرامة، وفي التصدي للفساد، في توفير أبسط أساسيات العيش الكريم، في تنقيب واستقلال الثروات التي تحتضنها الخريطة أحسن استقلال، من خلال الإدارة الفاعلة والتخطيط السليم والتنفيذ الحقيقي والرقابة المتواصلة.. وهذا لا يتأتى إلا من رؤية واضحة وقيادة مخلصة ثم يتجند الشعب لتطبيقها!

لا يمكننا أن نحتل مكانا ذو قيمة في خرائط دول العالم وخريطتنا تتمزق داخليا من وقت لآخر، أوقفوا نزيف الخريطة لنكون أهلا للتنمية، وبعدها يتوقف نزيف جروحنا في المستقبل.

صراع الأجيال

الصراع على الحكم

شهدت البلاد العديد من الثورات المسلحة التي حاولت قلب نظام الحكم في العاصمة انجمينا بقوة السلاح، منذ بداية الاستقلال ١٩٦٠ وحتى آخرها في عام ٢٠٢١م، بعضها نجح في المكوث في كرسي الحكم لسنوات، وبعضها فشل وتشظى واندثر ورجع أدراجه يجر أذيال الخيبة والحسرة ثم عاش عدد من أعضاءه في المنفى مدى الحياة، بينما ألقى بعضها الآخر السلاح وعاد إلى الوطن لتقسيم الكعكة بعد أن أبرم اتفاقيات صلح مع السلطات القائمة.

وأيا كانت اختلافاتهم والدوافع التي حملوا لأجلها السلاح، إلا أن الحصيلة كانت كارثية على الجميع، على الدولة والمواطنين، وحتى على من حكموا منهم، فقد وضعوا البلاد في حالة يرثى لها، لا مؤسسات ولا قيادة رشيدة، ولا عدالة ولا مساواة ولا تنمية، ضياع حقيقي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

ومع نجاح موجة الربيع العربي في عام ٢٠١٠م والخريف الافريقي، التي قادهما الشباب في عدد من الدول العربية والافريقية واستطاعتهم قلب أنظمة الحكم فيها بقوة الشارع تحت تأثير مواقع التواصل الاجتماعي العابرة للقارات تارة وتحت التدخل الخارجي تارة أخرى، برزت لدينا أجيال سياسية جديدة متأثرة بما جري من تغيير سياسي إقليمي وجوهري في عدد من دول المنطقة، الأمر الذي شهدنا من خلاله ولادة واحد من أكثر الأحزاب السياسية الشبابية جدلا في الوسط السياسي والمجتمعي، حزب المحولون Les Transformateurs بقيادة الدكتور سكسيه ماسرا وعدد من كوادره الشباب الذين تلقوا علوم ومهارات عالية المستوى في بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية، وقد عملوا على تسويق سياسة جديدة وتهيئة المجتمع لمحاولة تغيير اللعبة وتولي الحكم عبر

صناديق الاقتراع، ودون الحاجة إلى التمرد العسكري أو الانقلاب أو استخدام السلاح، بل كان سلاحهم التعبير الميداني من خلال المظاهرات التي يقودونها لرفض الحكم القائم ومحاربة الظلم والفساد، والدعوة إلى التنمية والازدهار والرخاء، وبطبيعة الحال لابد من ردة فعل مضادة لهذا السلوك الجديد، فلم تقف الدولة العميقة واتباعها مكتوفة الأيدي في وجه هذه الموجة من الأفكار القادمة بقوة التأثير على الشباب عبر المواقع الافتراضية على الانترنيت، فأقدمت على قمعهم تارة والتنكيل بهم تارة أخرى، وبدأت عمليات الشد والجذب بين أجيال سياسية جديدة مقتنعة بالتغيير عبر صناديق الاقتراع مع أجيال اعتادت على التغيير بقوة السلاح، من هنا تصبح عملية مقاومة التغيير التي سنفككها لاحقا جلية للغاية.

المحولون في الواجهة

لا يخفى على أحد النزال السياسي الصعب والمتواصل الذي خاضه الدكتور سكسيه ماسرا مع جحافل الدولة العميقة، والظروف التي قادت حزب المحولون إلى فندق ميركير Mercure (مقر رئيس الوزراء) وما يمثله من أهمية قصوى في تمثيل البلاد، ورسم سياساتها التنموية المنشودة.

كان طموح الرجل أعلى من منصب رئيس الحكومة، الى كرسي رئيس الجمهورية بقصر توماي (قصر رئاسة جمهورية تشاد) وما يمثله من نفوذ لا سقف له في إدارة البلاد، وهو أمر شبه مستحيل وبحاجة الى معجزة سماوية في ظل دولة الجنرالات المكتسية بالزي الشعبي والمدعومة بالمنتفعين والمتطفلين على بقايا المناصب والفرص، فاكتفى "خريج جامعة السوربون بباريس ١ Sorbonne Université Paris" بمنصب الوزير الأول، وهو أقصى منصب يمكن أن يصله سياسي مدني في وقت وجيز.

لم يكن أساس الصراع السياسي القائم بين الطرفين مبني حول مناقشة البرامج وما يمكن تقديمه للدولة والمواطن؛ بقدر ما كان صراعا على احتكار المناصب والمكاسب

الضيقة، حيث لا تتسامح عادة الدولة العميقة مع من يأتي من خارج منظومتها، ولا يمكن تطويعه، أو تشك في إطاعته لها وخدمة مصالحها، ولذلك دائما ما تكون الأسماء التي تتولى مسؤولية ما في الدولة مختارة بعناية أو من الدائرة المقربة منها أو خلق تبع جدد قادرون على إطاعتها وخدمتها. ماسرا فرض نفسه من خارج هذا السرب في سياق متحد لمن يمسكون بزمام الأمور في وضح النهار، وهو ما دفع ويدفع بطبيعة الحال إلى مزيد من الصدام وانسداد الأفق لاحقا. كما لا يخفى على أحد أيضا، أنه ورغم عفو وتجاوز رئيس الفترة الانتقالية الجنرال محمد ادريس ديبي لمجريات أحداث ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٢ واستقلالها سياسيا لمصلحته والتي سبقت الولادة القيصرية للاتفاقية التي وقعتها الحكومة التشادية في جمهورية الكنغو الديمقراطية مع قادة حزب المحولون والتي عرفت بـ(اتفاقية كنشاسا) حيث توسط فيها الرئيس الكونغولي فليكس أنطوان تشيسكيدي، وبموجبها عاد ماسرا إلى البلاد في نهاية عام ٢٠٢٣ مرفوع الرأس معززا ومكرما تتهافت عليه وسائل الاعلام من كل حدب وصوب، بعد أن فر عقب الحادثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومكث فيها عاما كاملا لحشد الدعم لقضيته، الا أن تبعات تلك الحادثة الدموية من فقد للأرواح وغلق للملفات القضائية ومنها غلق مذكرة الاعتقال الدولية التي أصدرتها الحكومة التشادية في حق سكسيه ماسرا ومعاونيه ما تزال تذكر في كل محفل وكل مكان رغم ترميم الجراح وطي هذه الصفحة وأحداثها.

وواضح جدا أن الرجل الذي يعتقد الكثيرون أنه يحظى بدعم من الخارج كما هو حال الأنظمة التشادية، ومنذ ظهوره في الساحة الوطنية خلال سنوات قليلة فقط استطاع أن يسوق لنفسه ولحزبه ويضعه في قلب المعركة السياسية كرجل الميدان الأول بلا منازع في مواجهة الدولة العقيمة، فقد حرك الساحة بشكل لم يسبق له مثيل على الإطلاق في الفترة الأخيرة من حكم الرئيس الأب ادريس ديبي اتنو الذي خاض مواجهات عديدة للبقاء في السلطة زهاء ثلاثين عاماً، وبات ماسرا الوجه السياسي الجديد والشخصية الأكثر حضورا وجدلا في المجتمع التشادي عامة والوسط السياسي والثقافي خاصة،

والأكثر قدرة على خلط ملامح وأرواق السياسة الراكدة من جديد، وكل الذين قللوا من القيمة السياسية لهذا الرجل وشعبيته ووصفهم له بأنه "سياسي الفيسبوك لا شعبية له" قد أخطأوا. نتفق مع الرجل في نهجه السياسي أو نختلف فهذا شأن آخر، ولكنه حقق مكاسب سياسية كبيرة في ظرف وجيز كلفت بعض السياسيين فناء أعمارهم فيها، وعجز عن تحقيقها الكثيرين منهم، بينما تاه بعضهم في جلباب الحزب الحاكم بلا أي أثر.

مقاومة التغيير

١

الانحناء للعاصفة

بعد استقالته من منصبه كمتخصص اقتصادي في احدى مؤسسات البنك الافريقي للتنمية، أنشأ الدكتور سكسيه ماسرا حزب المحولون بهدف التغيير الجذري في البلاد، وكان يدرك جيدا حجم التحدي في بلد لا يخضع لأي معايير وتعصف به العشوائية في كل مجالات الحياة، كان التحدي كبيرا وكان الشاب المتوقد حماسا وشعلة من الأمل يحشد أنصاره مرة تلو الأخرى مستغلا غياب العدالة الاجتماعية والاقتصادية والتوزيع العادل للثروات والفقر والجوع، وتقديم نفسه كبديل ومخرج من هذا المأزق في مواجهة الساحة ذات القطب الواحد التي تضم فقط الحركة الوطنية للإنقاذ واتباعها أو ما يسمونهم بـ"أحزاب التحالف".

طموح الشاب المفرط بكرسي الرئاسة، جعله يصطدم بالرئيس ديبي الأب الذي قطع عليه الطريق من الذهاب إلى الانتخابات الرئاسية دورة ٢٠٢١، حيث تم التعديل في سن الترشح وشروط الدخول في المسابقات الرئاسية من خلال دستور الجمهورية الرابعة، فتم رفض ملف ماسرا للترشح من قبل الهيئة المختصة بحجة عدم توافقه مع الشروط الجديدة في الوقت الذي امتنعت فيه السلطات عن منح حزبه اذن بممارسة أنشطته السياسية.

من هنا ازدادت عمليات الكر والفر بين نظام حاكم متسلط ومعارض عنيد متحدي، وما تبع ذلك من مظاهرات متتالية جعلت الساحة التشادية كلها في حالة تجاذب وترقب لما يحدث بين معارض ومؤيد لهذه الحالة الاستثنائية من الغليان السياسي الذي ترافقه أصوات الغازات المسيلة للدموع من وقت لآخر!

تلقى الرجل صفعات كثيرة جعلته مع مرور الوقت أقوى، ولكنها أضعفته في بدايتها حيث لجأ إلى السفارة الأمريكية بالبلاد للحماية من بطش النظام على أمل الاستفاقة والتقاط الأنفاس والرجوع مجددا إلى حلبة الصراع غير المتكافئ.

الأخطاء الماضية التي ارتكبها، والتي تمثل بعضها في كتابه الذي كتبه بالشراكة مع النائب البرلماني الأسبق بيرال مبابيكو "تشاد: ثناء الأنوار المظلمة، من تتويج البلداء الى سلالة اللصوص المختلين عقليا" ظلت حملا ثقيلا على عاتقه، تلاحقه أينما سار، وقد فقد من خلالها شرائح عديدة من مختلف مناطق الجمهورية كانت ربما تظل بجانبه على أمل التغير وتحسين الأوضاع المتفاقمة بعد اليأس من الوجوه القديمة الموجودة.

لعبت السلطة القائمة على وتيرة هذه الأخطاء وتضخيمها، وقامت على ضوئها بتحييد العديد من المواطنين وغسل ادمغتهم بدلاً من تركهم يناقشون بكل تجرد وأريحية وانصاف مشروع الخبير الاقتصادي نجحت الدولة العميقة التي لا تسمح بالتغيير، في التسويق وإظهار الرجل بأنه قبلي ومناطقي بامتياز وأن مشروعه "مشروع خراب" يسعى إلى تقسيم البلاد وتفتيتها على أساس قبلي ومناطقي وديني، وهي ورقة يمكن أن تجعله ببساطة مرفوضا ومعزولا لا يصلح للحكم من قبل نظر شرائح عديدة، لأنه عمل على تصنيفها وفقا لدرجات متفاوتة، وهو ما يخالف الأعراف والأخلاق والقوانين الوطنية والدستور الذي يشدد على ضرورة توحيد الأمة التشادية حيث شعار "وحدة - عمل - تقدم".

من ناحية أخرى، كان الرجل يلعب سياسيا على ورقة رفض ترشح ادريس ديبي اتنو لولاية رئاسية سادسة وتوريث الحكم، وانعدام العدالة الاجتماعية وغياب الشفافية والنزاهة في الإدارة العامة والفساد الذي طال كل شيء تقريبا، والأرقام التي تشير الى انحدار مؤشرات التنمية في البلاد لمستويات متدنية وتذييلها دول العالم، وضرورة مراجعة أطر ومؤسسات الجمهورية الرابعة الجديدة في عام ٢٠٢٠، الأمر الذي لم يجد

من خلاله الرئيس الراحل بدا من الالتقاء بزعيم حزب المحولون في محاولة من الأول لتهدئة الأوضاع وتغيير الصورة السائدة في الوقت الذي تتربص فيه الحركات المتمردة لقلب نظام الحكم في انجمينا. وواضح من مخرجات لقاء الرجلين أنهما قد تواصلا إلى تفاهم حول بعض البنود ومنها الدعوة إلى إطلاق حوار شامل لا يقصي أحدا للفترة القادمة، وهو ما رحب به الكثيرين لطي صفحة التجاذبات السياسية، والعمل على إصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحل الكثير من الملفات الشائكة.

٢

الموقف من المجلس العسكري الانتقالي

ابان فترة الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٢١، ما لبثت أن تسارعت الأحداث السياسية بشكل لا مثيل له، حيث أنه في عشية اليوم الذي أعلن فيه فوز مرشح التحالف بقيادة الحركة الوطنية للإنقاذ ادريس ديبي اتنو بولاية رئاسية سادسة وكانت أصوات الرصاص والأعيرة النارية تدوي في تلك الليلة احتفالا بالمناسبة وسط حشود من أنصار التحالف في ميدان ساحة الأمة بالعاصمة انجمينا، كان الفائز قد مات قبلها، وكانت هناك طبخة عسكرية في طور النضوج تضع اللمسات الأخيرة لتولي زمام الحكم في البلاد.

في صبيحة يوم ٢٠/ ٠٤/ ٢٠٢١ أعلن المجلس العسكري الانتقالي تنصيب نفسه حاكما للبلاد بميثاق انتقالي لمدة عام ونصف قابلة للتجديد مرة واحدة، يضم في عضويته ١٥ جنرالا يترأسهم الجنرال الشاب محمد إدريس ديبي نجل الرئيس الراحل. قام المجلس بإلغاء الدستور وحل الجمعية الوطنية وحل الحكومة، وقد برر المجلس هذه الخطوة باعتذار رئيس الجمعية الوطنية الدكتور هارون كبادي من شغل منصب رئيس الجمهورية الشاغر وفقا للدستور لأسباب مرضية بحسب الرواية الرسمية، ظهر كبادي في مقدمة أوائل المهنئين للمجلس العسكري الانتقالي على شاشة التلفزيون الوطني وقت إعلان البيان، وتقول الرواية أيضا أن الرئيس ادريس ديبي اتنو قد سقط في ميدان المعركة

وسط البلاد بعد سلسلة من الحروب التي خاضتها الحكومة مع المتمردين العسكريين بقيادة محمد المهدي زعيم "حركة فاكت FACT" الذي حاول التحرك نحو العاصمة لقلب نظام الحكم بقوة السلاح في أبريل ٢٠٢١م. يكتنف هذه الروايات لهذه الأحداث الدراماتيكية، الكثير من الغموض والكثير من الأسئلة التي لا تزال عالقة في أذهان التشاديين بلا أجوبة مقنعة حيث لم تكتمل كل حلقاتها بعد.

دعا حزب المحولون وغيره من الأحزاب المعارضة وجمعيات المجتمع المدني على رأسهم "منسقية حان الوقت Coalition Wakit Tama" إلى تسليم السلطة للمدنيين في أسرع وقت ممكن للنائب الأول لرئيس الجمعية الوطنية آنذاك السيد موسى خدام. لكن المجلس الذي أحكم قبضته على البلاد لم يكتنف للأمر وقام بعقد العديد من اللقاءات مع مختلف القوى الحية السياسية والمدنية والتقليدية والدينية، لتشكيل وإرساء مؤسسات مؤقتة مثل الحكومة الانتقالية والمجلس الوطني الانتقالي لتسيير البلاد إلى حين تنظيم انتخابات رئاسية وبرلمانية ومحلية والعودة بموجبها في أسرع وقت ممكن إلى النظام الدستوري.

رفض سكسيه ماسرا رغم التقاءه برئيس المجلس مرات عديدة المشاركة في هذا المسار الذي اعتبره تكريسا لحكم العسكر ونوعا من توريث الحكم، مشددا على ضرورة تسليم السلطة للمدنيين، الأمر الذي أدى إلى انسداد الأفق وتفاقم الوضع السياسي، حيث حشد حزب المحولون أنصاره من وقت لآخر ورفض المشاركة فيما يسمى ب"الحوار الوطني المستقل والسيادي Dialogue National Inclusif et Souverain" الذي انعقد خلال أغسطس وحتى أكتوبر ٢٠٢١ بعد التوصل إلى اتفاق مبدأي مع معظم الحركات العسكرية المتمردة التي وقعت على اتفاقية صلح في قطر عرفت ب"اتفاقية الدوحة" في وقت سابق، والتي لم توقع فيها حركة فاكت أكبر الحركات العسكرية المتمردة التي تريد نصيب الأسد من الكعكة حيث عادت الى ثكناتها معارضة المسار الانتقالي الجديد برمته.

أحداث ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٢

كانت أحداث العشرون من أكتوبر لعام ٢٠٢٢ لحظة فارقة في المسار الانتقالي، وصفحة أخرى سوداء في تاريخ البلاد عامة والفترة الانتقالية خاصة، حيث لا تزال باقية في الذاكرة الجماعية للمجتمع التشادي بما خلفته من عواقب وآثار ونتائج للمرحلة التي تليها. جاءت تلك الأحداث بعد ان استطاع فيها المجلس العسكري الانتقالي احداث ذلك الحوار الشكلي الذي هندس المرحلة الانتقالية واخرجها في ثوب جديد عرف ب"الفترة الانتقالية" يقودها رئيس انتقالي بصلاحيات واسعة، وهو ما اعتبره حزب المحولون وبعض الجمعيات المدنية تكريسا للحكم المطلق للفرد بعد إزاحة بقية أعضاء المجلس من المشهد، وتوطينا لنفس النظام الذي حكم أكثر من ثلاثين عاما واتسم بزرع الفوضى العارمة في إدارة البلاد وما لحق ذلك من الظلم والمحسوبية والفساد.

حشد كل من الدكتور سكسيه ماسرا والدكتور يحي ديلو -رحمه الله- رئيس "الحزب الاشتراكي بلا حدود Partie Sociale sans Frontière" الذي أقتيل قبل الانتخابات الرئاسية في مقر حزبه في فبراير ٢٠٢٤م أنصارهما في مواجهة هذه المرحلة الثانية الجديدة من المسار الانتقالي، وخرجا للتنديد بالرغم من أن السلطات الأمنية منعت المسيرة. وفقدت على ضوء تلك الأحداث العديد من الأرواح حيث سالت الدماء التشادية التي لم يتوقف نزيفها بعد سنوات من الاستقلال، وسقط البعض جرحى، واقتيد البعض الآخر الى السجون. لقد استخدم كل شيء: الغاز المسيل للدموع، والأعيرة النارية، والساطور.. كان المشهد قاتما ودمويا، وكان الدخان مرتفعا من كل مكان، ما جعل ماسرا وبعض معاونيه يفرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث قضوا عاما كاملا خارج البلاد واستطاعوا استمالة قوى دولية كبرى لدعم مشاركتهم في الحكم، وهو ما كان فعلاً بعد اتفاقية كنشاسا التي بموجبها جاء بمكاسب سياسية استراتيجية أقوى من قبل.

الجلوس على كرسي رئيس الحكومة

توقع الكثير من المتابعين للوضع للعام، سيناريو أن يصبح الدكتور سكسيه ماسرا زعيم حزب المحولون رئيسا للحكومة، خاصة بعد عودته الى البلاد بعد تلك الاتفاقية التي ما زالت بعض مضامينها في طور الأسرار، وبالمثل تحير البعض ولم يفهم لماذا اختار الرجل الذي واجه الدولة العميقة خلال سنوات عديدة والذي رفض المشاركة في المسار الانتقالي برمته في أن يقبل بمنصب رئيس الوزراء في الحلقة الأخيرة من مسلسل هذه الفترة؟ مع أن طموحه كان وضاحا ومعروفا للجميع منذ البداية: المكوث في قصر توماي؟

والذي قرأ نصوص الاتفاقية المنشورة في الاعلام، يدرك انه ليس من بينها بند ينص على أن يتولى الرجل منصب رئيس الحكومة المقبلة، حيث كانت جل البنود تركز على السلام والاستقرار وممارسة الأنشطة السياسية دون ضغوط من كل الأطراف. لكن البعض تحدث من أنه كانت هناك نسخة سرية من الاتفاق تتضمن أن يصبح رئيسا للحكومة الأمر الذي نفاه وزير المصالحة الوطنية السيد عبدالرحمن غلام الله، وهو ما يرجحه بعض المتابعين بأن الرجل فرض نفسه على الدولة العميقة من الخارج، بينما يرى البعض الآخر بأن رئيس الفترة الانتقالية الجنرال محمد ادريس ديبي قد عين الرجل بمحض ارادته ودون تدخل خارجي.

أيا كانت الأسباب خلف هذا التعيين، سواء من فرض قوى خارجية أو هو قرار داخلي محض، فقد أصبح في الأول من يناير ٢٠٢٤ الدكتور سكسيه ماسرا رئيسا للوزراء رئيسا للحكومة الانتقالية في جزئيتها الأخيرة، والتي من أبرز مهامها تنظيم انتخابات رئاسية وبرلمانية ومحلية في شهر مايو ٢٠٢٤م بعد اكتمال كتابة الدستور ووضع مؤسسات جديدة من أجل إسدال الستار على المسار الانتقالي الذي استمر ثلاثة سنوات وشهد سلسلة دامية من التراجيديا السياسية قبل العودة إلى النظام الدستوري.

٣

الاعتذار على الملأ

لا أظن أنه يختلف اثنان في أن هناك العديد من المميزات في شخصية رئيس حزب المحولون الدكتور سكسيه ماسرا: من حيث الكفاءة، والكاريزما، والشخصية القيادية، والقدرة على الخطاب المنمق وتقديم أدواره بشكل جيد. ولعل من أهمها أيضا قدرته على التعبير عن مشاعره على الملأ بكل عفوية ودون تلكؤ أو مواربة، فمن لحظة ركوعه في أرض المطار بعد رجوعه إلى البلاد وشم نسيمها الفواح وتقبيل ترابها إثر اتفاقية كنشاسا، إلى الركوع والاعتذار –باسمه وباسم كل المسؤولين الذين سبقوه– أمام عدسات وسائل الاعلام وهي تغطي الحدث مباشرة من على مقاعد الجمعية الوطنية قبل تقديم برنامج حكومته لنيل ثقة أعضاء المجلس الوطني الانتقالي.

وان كان البعض يعتبر ذلك نوعا من النفاق السياسي أو الدعاية السياسية، إلا أن هذا الاعتذار الجريء وبهذه الكيفية لا يأتي حقا إلا من رجل متناسق مع نفسه وتصرفاته ومدركا لأخطائه وقصوره (Il est cohérent avec ses actes). هذا تصرف غريب بالنسبة لنا فعلا، لأن بعض قادتنا يقتلون المواطنين دون شفقة أو رحمة ودون أن يجف لهم جفن ويعبثون بخيرات البلاد دون أن نسمع منهم طلبا للعفو أو الصفح عما اقترفوه من جرائم وتقصير لأن هذه هي القاعدة العامة لدينا، وما قام به ماسرا هي حالة شاذة والشواذ لا يقاس عليه؟ بل إن صفة الاعتذار نفسها نادرة في مجتمعنا حتى لدى عامة الناس بفعل الأنانية والتكبر على اللا شيء، فضلاً عن أن تأتي من السياسيين ومن يتبوؤون المناصب العامة؟

الأدبيات التي يربي عليها المجتمع ترفض التعبير عن المشاعر علنا وكأنها نوعا من العيب أو العار أو العهر؟ كما ترفض تقديم الاعتذار أيضا حتى لو كنت مخطئا أو ظالما أو مجرما؟ وكأن الاعتذار يعني الخوف أو المذلة أو الإهانة؟ لكن الرجل كان سباقا في التعبير

عن مشاعره ومتجاوزا للحظات الغرور والعظمة الجوفاء التي يمليها المجتمع.

اعتذاره عن اخطاءه الماضية، وعن أحداث العشرين من أكتوبر لعام ٢٠٢٢م التي خلفت نتائج دموية وآثارا أخلاقية عليه وعلى حزبه وعلى حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية السابقة بقيادة السيد صالح كبزابو ورئيس الفترة الانتقالية الجنرال محمد ادريس ديبي، هو اعتذار رجل دولة أدرك مآل القسوة والتقصير في خدمة الوطن والشعب، وما تخلفه من الغبن والكراهية. وبغض النظر عن القراءة السياسية لهذا التصرف، فإن هذا التواضع بلا شك قد رفع من مكانته في أعين الناس كرجل جسد فعلاً ما كان يؤمن به من أفكار ممن يعتبرهم قدوته من أمثال الزعيم الراحل نيلسون مانديلا الذي يصفه الرئيس التونسي الأسبق الدكتور منصف المرزوقي في مقال على الجزيرة نت بـ"الأب الروحي" الذي له القدرة والشجاعة على تقديم الاعتذار والتسامح ومعالجة الأخطاء والسلام.

البرنامج الطموح

تابع الكثيرون البرنامج السياسي الطموح الذي لم يسبق أن أتي به رئيس حكومة أو رئيس جمهورية في البلاد، مثلما أتى به الخبير الاقتصادي "خريج جامعة السوربون بباريس ١ Sorbonne Université Paris " الدكتور سكسيه ماسرا أمام الجمعية الوطنية.

يتناول البرنامج مختلف جوانب التنمية بطريقة علمية عصرية مستطردا بعض القضايا بطرق تجاوزت فهم بعض "المستشارين الوطنيين" والذين لم يسمعوا يوما عنها شيئا، مشخصا للمشكلات وواضعا لبعضها الحلول، حتى أن أحد المستشارين تداخل واعترف بأنه لم يرى في حياته مثل هذا البرنامج الطموح في تشاد، فيما قال بعضهم ان هذا برنامج يصلح لرئيس جمهورية وليس في وسع رئيس حكومة تنفيذه من شدة طموحه وتحدياته. ومن شدة خروج أغلب المستشارين الوطنيين عن الموضوع أو الإدلاء بكلام فضفاض لا فائدة من ورائه، اشتكى أحد كبار المستشارين المعروفين المستشار علي كلوتو على الهواء مباشرة من أن رئيس الوزراء يتكبر عليهم ولا يدون الملاحظات التي يقدمونها

له بعين الاعتبار، لأن الرجل سياسي محنك ذو شخصية ودراية بما يقوم به، لذلك لم ينزل لمستوى هرطقة بعض ما يسمونهم ب"المستشارين الوطنيين" الخارجة عن الموضوع والتي لم يرى فيها الكثير من الإضافة التي تستحق التدوين والرد عليها.

هذه الكفاءة التي يمتلكها وضعته منذ اليوم الأول مجبرا على مواجهة الدولة العميقة التي لا تقبل البرامج الطموحة التي تفوح منها رياح التغيير نحو الأفضل. فجاءت الإجابة سريعة على أفواه العديد من "المستشارين الوطنيين" الذين عجزوا عن مناقشة البرنامج وفضلوا الغوص في خصوصية الرجل وتعليم ابنته وحياته الخاصة، وهذه بداية عرقلة عمل الحكومة ورسكلتها، حيث عادة لم تكن لهم الجرأة من قبل حتى في مناقشة البرامج الهزلية التي تقدمها الحكومات السابقة سوى التصفيق لها واعتمادها دون قراءتها في الغالب.

والحق يقال إن الأغلبية المتابعة للحدث خارج أسوار الجمعية الوطنية، أشادت ببرنامج ماسرا باعتباره برنامج دولة فقد أدركت مدى أهميته ورأت فيه بصيصا من الأمل مثلما أدركت تماما حجم تحدياته ومنها إعاقة الرجل من تنفيذ وعوده وحلحلة الوضع المتأزم حيث كان اليأس يدب في نفوس الناس من تكرار الشعارات الخاوية من المضامين، والوجوه التي لا تقدم شيئا وتعرقل سير البلد من التقدم نحو المستقبل الزاهر.

بوادر إسقاط الحكومة

لم يمر سوى ثلاثة أيام فقط من تعيين المعارض السياسي المثير للجدل الدكتور سكسيه ماسرا رئيسا للوزراء حتى تم الإعلان عن تشكلية حكومته الوزارية والتي تضم ٤١ من وزراء دولة ووزراء وكاتب دولة، والتي ربما تعني بأن التشكيلة حاضرة أصلا قبل تولي الرجل المهمة ثم سلمت له القائمة ليضيف فيها عدد الأعضاء المتاحين له فقط.

وقبل مجيء الرجل للحكم بعدة أيام فقط، كانت الميزانية العامة للدولة لعام ٢٠٢٤م قد نوقشت في المجلس الوطني الانتقالي، مما يعني سياسيا: حشر حكومته في الزاوية

وتحميلها وزر الأوضاع المتراكمة وإضعافه سياسيا ان لم يتمكن من تنفيذ وعوده وبرنامجه الطموح، وهو أمر شبه مؤكد بالنظر الى أن الميزانية التي سيتكئ عليها قد اعتمدت قبله وأن المساحة التي يتحرك من خلالها باتت ضيقة جدا بحيث لا تسمح له بتنفيذ أي من وعوده وهو ما يخدم بطبيعة الحال الدولة العميقة التي تريد اظهار الرجل في موقف أضعف بكثير من قدراته الحقيقية.

ربما تكون هذه العراقيل مدروسة، وقد يلاحظ ذلك من خلال ما صرح به المستشار الوطني تاكيلال الى احدى الصحف (Réseau des Citoyens) بأنهم سيسقطون حكومة ماسرا قبل أن تعود للبرلمان في أبريل ٢٠٢٤م من أجل تقييم حصيلة مائة يوم من منح الثقة للحكومة الانتقالية.

لم يفق الرجل من هذا التعبير شديد الوضوح حتى فوجئ أيضا بتصعيد النقابات العمالية لمطالبها ودخولها في اضراب جاف نتيجة ازدياد غلاء المعيشة ورفع أسعار المحروقات وإعلان حالة الطوارئ الغذائية وتململ المواطنين. ثم ما لبثت أن تطورت الأمور بأحداث ٢٨-٢٩/ فبراير/ ٢٠٢٤م حيث اغتيال السيد يحيى ديلو رئيس الحزب الاشتراكي بلا حدود المعارض السياسي الشرس الذي تربطه صلة دم بالأسرة الحاكمة وبعض أعضاء حزبه، فيما اقتيد بعضهم الآخر نحو السجون وتدمير مقر حزبه وتسويته بالأرض ثم دعوة الحكومة لحل الحزب نهائيا، بينما كان ماسرا في الخارج يجوب البلدان لحشد الدعم المالي والفني رفقة عدد من أعضاء حكومته. أحداث دموية أخرى وأخلاقية وصفحة سوداء أخرى في كتاب الفترة الانتقالية الثانية.

لم يكن كل ذلك وليد الصدفة وان كان بعضه ليس مخططا له كما يظهر، الا ان محاولة تحميل الرجل وزر الأوضاع المتراكمة تبدو واضحة جدا منذ البداية ويؤكدها تصريح المستشار تاكيلال من أن الدولة العميقة تسعى للإطاحة بحكومة ماسرا في قادم الأيام مع أن الرجل لم يثبت في الكرسي بعد.

كل هذه الأحداث الرافضة لوجود سكسيه في واجهة الحكم كرئيس للوزراء وكفاحه الذي قاده للوصول إلى هذه المكانة تؤكد بلا شك صراع أجيال وإن كانت قريبة في السن إلا أنها نشأت في محيط مختلف فبعضها نشأ تحت استخدام القوة والسلاح وبعضها الآخر تحت القهر واستخدام القلم، وتؤكد أن الدولة العميقة التي تستند في شعبيتها الى الخارج والتي تشعر بأن الرجل فرض عليها أيضا من الخارج وبالتالي لا يمكن التسامح معه خاصة وأنه لا يخضع لإملاءاتها ويغرد خارج سياق الأوضاع التي تتسم بالفساد والظلم الاجتماعي والمحسوبية والفقر والجوع والمرض والفوضى العارمة.

من يكسب الصراع؟

يمكننا القول: وبأنه في أوج كل هذه التقلبات السياسية والاجتماعية الراهنة والصراع السياسي المحتدم بين سكسيه ماسرا والدولة العميقة وسط تفاقم حالة من اليأس والإحباط بين المواطنين، كسب ماسرا جولة مكنته من الجلوس على كرسي رئيس الحكومة، بينما ربحت الدولة العميقة المعركة في أن جعلته مرافقا لانتخابات شكلية معروفة النتائج مسبقا. كسب كل منهما رهانه، وخسر الوطن!

خسر الوطن سياسيا قل نظيره في الوقت الحالي، ذو شخصية قيادية وكفاءة عالية وكاريزما وذو شعبية حقيقية، ولديه القدرة الكافية لإحداث تغيير في الكثير من جوانب التنمية وإعطاء المواطن أمل بالضوء في آخر النفق في مجتمع متلاطم من الظلمات، أمل ببناء تشاد التي نحلم بها وقد تغيرت في نفوسنا وشوارعنا ومدارسنا وحقولنا ومستشفياتنا وفي كل ميادينا، ولكننا نسينا أمرا واحدا بطبيعة الحال، هو أن حتى هذا الحلم ليس من حقنا، فهو فقط للدولة العميقة وأذيالها والتي لن تترك السياسة ومآلاتها لربان آخر قادر على الإبحار عكس تيارها.

ونتيجة لهذه المقاومة المستمرة والشد والجذب بين أجيال من مدارس وعقليات مختلفة، خسر الوطن مجددا فرصة التنمية الحقيقية، وخاب رهان وضع الأسس السليمة

والصلبة للانتقال السلمي للسلطة من أجيال السلاح إلى أجيال العلم والمعرفة العصرية التي يقودها الإنترنيت والذكاء الاصطناعي في قادم الأعوام القليلة المقبلة، وباتت مسائل التنمية والتقدم مرة أخرى هامشية في ظل طغيان المصلحة الذاتية ونرجسية الأجيال المفرطة، والتي ساهمت جميعها في زيادة توطين التخلف والتفرقة والعنصرية وغياب الديمقراطية ودولة القانون والمؤسسات وتكافؤ الفرص.

بيئة سياسية

أعاد الصراع من أجل الحكم عقارب الساعة إلى الوراء، إلى المربع الأول: "الحكم بقوة السلاح"، لذلك لم يفلح سكسيه ماسرا رئيس حزب المحولون كممثل لجيل جديد حالم بالتغيير عبر صناديق اقتراع نزيهة ومؤسسات مستقلة حيادية، ولكن مع ذلك فقد ناضل الرجل ضد قضايا الفساد والظلم الاجتماعي في تشاد، ولم يفلح أيضًا بالاحتفاظ حتى بمنصب رئيس الوزراء، فقد استقال منه بعد الانتخابات الرئاسية التي خسرها لأسباب عديدة مع أنه كان مرشحا قويا في مواجهة الدولة العميقة ضمن تسعة مرشحين آخرين، يتقدمهم مرشح تشاد الموحدة الجنرال الشاب محمد إدريس ديبي الذي فاز بالانتخابات الرئاسية في الجولة الأولى بمعدل ٦١٪ من أصوات الناخبين.

ناضل ماسرا أيضًا في سبيل ارساء مؤسسات ديمقراطية مستقلة مثلما ناضل زميله في السنغال عثمان سونكو رئيس حزب "الوطنيون من أجل العمل والأخلاق والأخوة" ضد قضايا الفساد ومطالبة القوى الخارجية بمعاملة بلاده بالشراكة والندية فضلا عن الدفاع عن قضايا المهمشين. لم يكن الفرق كبيرا بين الرجلين في النضال حيث ثار كليهما ضد أزمة الحكم والإدارة في بلديهما، ولكنه يكمن في اختلاف بيئتيهما، أي في طبيعة الحكم ومناخه في الدولتين والشعبين.

وفي الوقت الذي وصل فيه حزب سونكو نهاية شهر مارس ٢٠٢٤م إلى رئاسة الجمهورية في السنغال بفوز بسيرو فاي أحد أعضاء الحزب الذي عين سونكو رئيسا

للوزراء في الثاني من أبريل ٢٠٢٤، وصل حزب ماسرا إلى رئاسة الحكومة في تشاد وعين ماسرا في الأول من يناير ٢٠٢٤م رئيسا للوزراء، وهو أقصى منصب يمكن أن يصله سياسي مدني في تشاد في إطار حكم عسكري له تاريخ في قمع المعارضة ولا يسمح بتسليم السلطة للمدنيين ولا يقوم بتنظيم انتخابات حرة نزيهة وشفافة، حيث لم نرى يوماً ديمقراطية حقيقية لغياب دولة القانون والمؤسسات، ولعدم قيام العسكر بإرساء مراكز ديمقراطية مستقلة قادرة على تنظيم وإدارة انتخابات حرة ونزيهة وشفافة يمكن أن يفوز بها أي سياسي مدني. على عكس السنغال التي يمكن أن يصل لكرسي رئيس الجمهورية فيها أي معارض سياسي، فالسنغال دولة مدنية ديمقراطية منذ الاستقلال ولم تشهد انقلابات ولا حكم عسكري، ولديها مؤسسات مستقلة قادرة على تنظيم الانتخابات بكل حرية وشفافية ونزاهة دون تدخل من أحد.

ثم إن وعي الشعبين نفسه مختلف، ففي السنغال أرقى مما هو لدينا، فعندما أراد الرئيس مكي سال تعديل الدستور للذهاب لولاية رئاسية ثالثة وأعتقل المعارض السياسي عثمان سونكو في عام ٢٠٢١ بتهمة الإغتصاب وتحريض الشباب بسبب عزم الأخير الترشح للانتخابات القادمة ومنافسته، حظي سونكو بدعم كبير من الشباب وعدد من القوى الحية وخرج المواطنين لدعم دولتهم ومؤسساتهم المستقلة إلى أن أفرج عنه، ولم يجد سال بدا من التراجع عن قراره بخوض ولاية ثالثة فدعم مرشحا آخر خسر الانتخابات.

بينما عندما كان يناضل ماسرا ورفاقه ضد الولاية الرئاسية السادسة لرئيس الجمهورية ديبي الأب وضد توريث الحكم، واجهوا العنف العسكري مرات عديدة، ولم يخرج الشعب لمساندتهم ولا القوى الحية، حيث تركوه مع أنصاره وحيدا في مواجهة الدولة العميقة التي جعلته مضطرا لمغادرة البلاد واللجوء إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم الرجوع بعد اتفاقية كنشاسا.

سكسيه ماسرا نموذج لقيادي سياسي من جيل جديد مختلف، نختلف مع نهجه

السياسي أو نتفق هذا شيء آخر، ولكنه لا يختلف كثيرا عن عثمان سونكو من حيث القيمة السياسية، ولا يمكن الحكم على مسيرته بإنصاف وبشكل جدي إلا عندما تكون هناك بيئة سياسية مثل بيئة سونكو تحكمها مؤسسات مستقلة قادرة على تنظيم الانتخابات بكل حرية وشفافية ونزاهة، وهذا لن يأتي في ظل كل الظروف التي ذكرتها آنفا. وطالما لن يتحقق ذلك فلن يصل لرئاسة الجمهورية ولو قبع في السجن لسنوات وسنوات، هذا إن لم تقم الدولة العميقة بتصفيته كما فعلت مع المعارض السياسي رئيس الحزب الاشتراكي بلا حدود يحي ديلو. بينما يمكن لسونكو في السنغال أن يقبع في السجن فترة من الزمن ثم يخرج ويتجه حزبه بعدها إلى رئاسة الجمهورية، فالفرق في مسار الدولتين وظروفهما ووعي شعبيهما حيث كانت أسس الديمقراطية ودولة القانون متاحة لسونكو بينما لم تكن موجودة أصلاً في حالة ماسرا.

سباق محسوم

في الخامس والسادس من مايو ٢٠٢٤م، جرى سباق رئاسي محسوم النتائج نحو القصر الوردي، بين عشرة مرشحين، وقد شهدت العملية الانتخابية حملات شرسة مثيرة للجدل، خاصة بين مرشح تحالف تشاد الموحدة محمد إدريس ديبي إتنو رئيس الفترة الإنتقالية ومرشح ائتلاف العدالة والمساواة سكسيه ماسرا رئيس الوزراء، وبدرجة أقل مرشح حزب التجمع الوطني للديمقراطيين التشاديين باهيمي باتاكي ألبير.

وقد ترقب الشارع التشادي خطوة إعلان نتائج الانتخابات الرئاسية التي فاز بها مرشح التحالف محمد إدريس ديبي بنسبة ٦١٪ من الأصوات بشيء من الحذر والتوجس، خوفا من حدوث اضطرابات بسببها، فقد أثارت الكثير من التساؤلات حول مدى مصداقيتها، وسط اختلالات رافقت العملية في جو مشحون بالخطابات السياسية الشرسة والاتهامات المعادية للتيار الآخر والتي قامت بها مختلف الأطراف المتنافسة، هذا القلق المصائب للعملية الانتخابية يأتي من احتمال حدوث انفلات أمني

مرافق يتخوف البعض من حدوثه على ضوء مجريات الجولة الأولى التي شهدت حرق لبعض صناديق الاقتراع والتلاعب بنتائج بعضها الآخر كما تظهره فيديوهات على مواقع التواصل الاجتماعي، أيضًا شاب العملية بعض السلوكيات الدامية من تسديد طعنات بالسلاح الأبيض لأحد رجال الأمن أدت إلى وفاته على الفور قام بها أحد الناخبين في إحدى مكاتب الاقتراع بشرق البلاد، ثم رافق ذلك أيضًا جدل حول امكانية تصوير النتائج الأولية من عدمها خوفا من التزوير كما يقوم به البعض، بينما اعترض على ذلك البعض الآخر خوفاً من ارباك السير السلس للعملية، بينما أعطى البعض الآخر مصداقية تامة للهيئة المكلفة بالانتخابات.

على العموم، ساد الجو العام حالة من التشكيك والحذر في مدى قدرة الهيئة الوطنية لإدارة الانتخابات (Agence Nationale de Gestion des Élections (ANGE على إصدار نتائج ذات مصداقية بعيدًا عن المصالح الخاصة، وهي التي عين أعضاؤها من قبل رئيس الفترة الانتقالية الجنرال محمد إدريس ديبي بمرسوم. كما أثارت المحكمة الدستورية أيضًا منذ البداية الشكوك في مصداقيتها من خلال استبعاد مرشحين من الشمال بحجج غير منطقية بحسب المتضررين من فرزها للملفات المقدمة، وهي التي تم تعيين أعضاؤها أيضًا من قبل رئيس الفترة الانتقالية. ينتمي قادة المؤسستين المعنيتين إلى الحزب الحاكم الذي ينتمي إليه المرشح الفائز، ويشدد المراقبون على أن لهذا الحزب الذي حكم البلاد لأكثر من ثلاثين عاما تاريخ في إعطاء نتائج لا تتمتع بمصداقية في غالب الأحوال، وهو ما جعل من المعارضة السياسية بقيادة صالح كبزابو رئيس الحزب الوطني من أجل التقدم والتجديد رفقة عدد من الأحزاب المعارضة رفض نتائج اللجنة المكلفة بإدارة الانتخابات في عام ٢٠١٦ وقيامهم بإعلان نتائج خاصة بهم تشير إلى فوزه بالانتخابات خلافا لنتائج اللجنة المكلفة بالانتخابات التي أعلنت فوز مترشح تحالف الحزب الحاكم إدريس ديبي إتنو بولاية رئاسية خامسة.

كل هذه المؤشرات أثارت العديد من التساؤلات حول مدى مصداقية النتائج، الأمر

الذي أدى إلى تقديم عدد من المترشحين أبرزهم مرشح إتلاف العدالة والمساواة سكسيه ماسرا الذي حل في الترتيب الثاني إلى تقديم مطالب تظلمات لكل من الهيئة الوطنية للانتخابات والمجلس الدستوري.

تطوي هذه الانتخابات صفحة الفترة الانتقالية بعد مرور ثلاثة سنوات على وفاة رئيس الجمهورية إدريس ديبي إتنو في ظروف حربية ما زالت بعض تفاصيلها غائبة، وقد تولى بعدها المجلس العسكري الانتقالي قيادة البلاد بعد أن ألغى العمل بالدستور وحل الحكومة والجمعية الوطنية، وأحدث ما يسمى بالميثاق الانتقالي الأول الذي حكم من خلاله مدة عام ونصف قبل أن يتم تعديله إلى الميثاق الانتقالي الثاني بعد إطلاق ما سمى "بالحوار الوطني الشامل والسيادي DNIS Dialogue Nationale Inclusive et Souveraine"، والذي مكن رئيس المجلس العسكري الانتقالي الجنرال محمد إدريس ديبي من إدارة البلاد منفردا كرئيس للفترة الانتقالية الثانية بميثاق انتقالي ثاني معدل للأول، وقد عملت الفترة الأخيرة على إنجاز دستور جديد وإرساء مؤسسات منها المحكمة الدستورية ومحكمة الحسابات والقانون الانتخابي والهيئة العامة لإدارة الانتخابات.

انتشال بدوي

بعد هدوء الإثارة والضجة التي أحدثها كتاب "من بدوي إلى رئيس" للكاتب محمد إدريس ديبي رئيس الفترة الانتقالية، وسط عاصفة من الحملات الانتخابية الشرسة والمشحونة بالاتهامات والألغاز، وبعد فوزه رسمياً بالانتخابات الرئاسية، حان الوقت لقراءة الكتاب بهدوء ومن زاوية أخرى مختلفة، وتقديم تساؤلات مشروعة.

سأتطرق هنا إلى زاوية الأطفال البدويين، من بين أهم المحطات الأخرى التي وردت في الكتاب والتي هي الأخرى جديرة بالوقوف والتأمل، والتنقيب في مسيرة شخص والده رئيس ويعيش هو حياة بدوية قاسية انتقل بعدها فيما بعد إلى رخاء ونفوذ السلطة ومعرفة كواليسها قبل أن يقودها بنفسه بعد وفاة والده ديبي الأب، كما تظهر في ثنايا الكتاب العديد من الممارسات التي تحدث داخل أروقة القصر الرئاسي يؤثر بعضها في سياق مجريات الأحداث الوطنية الآنية والمستقبلية.

تحت عنوان "بدوي" الذي جاء في الفصل الأول (من بدوي إلى جندي)، يحاول الرجل اعطاء صورة أشمل عن حياته البدوية بعبارات مختلطة من المشاعر والمرارة لطفل بدوي تطوقه البداوة من كل الجوانب؟ تظهر هذه العواطف وسط طيات الحروف كتأكيد على معاناته من قسوة البادية وعزلها للبدو من سياق الواقع المحلي والعالمي.

تتشابه حياة البدويين مثلما تتشابه همومهم وتطلعاتهم، فيبدأ الكاتب البدوي روتينه من لحظة استيقاظه مبكراً لإطعام ورعاية الإبل في صحراء جرداء بضواحي منطقة شمال كانم وسط البلاد حتى آخر النهار، ثم يمتد لجوانب حياته الأخرى العادية البسيطة التي كانت تقتصر فقط في التعامل مع هذه الإبل والأقارب بحكم وضعية البوادي وبعدها المكاني عن المناطق ذات الكثافة السكانية، كان العالم بالنسبة له محدوداً جداً فيقول: "لقد عشت حياة بدوية لمدة سبعة سنين من عمري المبكر أرعى الإبل في ضواحي شمال كانم،

إنها الحقيقة المرة التي أذكرها، كنت طفلاً مثل الآخرين لم تكن لدي آفاق، ولم أدرس ولم أعرف شيئاً اسمه المدرسة، وليست لدي معرفة بالحياة المعاصرة، لذلك لم أحلم بأن أكون لاعباً لكرة القدم أو طيارا، لم أعرف شيئاً اسمه تشاد، كلما أعرفه هي باديتي وجزء من القصص والعادات والتقاليد التي يقصها علي أخوالي والتي تكاد تكون معروفة لدى كل طفل بدوي، فحياتي كانت تقتصر على بيئتي، وعلى أمي، وجدتي، وأقاربي.. ولكنني كنت أشعر في داخلي بأني طفل بدوي مختلف"؟

يلامس هذه القسوة ومعاناة أهل البدو الذين يعيشون على الكفاف كل من عاش أو زار البادية، حيث يصارعون من أجل البقاء على قيد الحياة، وهي حقيقة واقعية في ظل هضم حقوقهم المشروعة في إتاحة فرص التعليم، والعمل، وتوفير الرعاية الصحية، وتقديم الخدمات الأساسية لهم، نتيجة الغياب التام لخدمات الدولة.

هنا لا يقدم الكتاب مشهدا واقعياً فحسب، بل درس بليغ وعبرة للكاتب نفسه أولا، بحكم كونه بدوي عاش هذه التجربة وذاق مرارتها، ثم بكونه رئيساً للجمهورية من واجبه حل معضلات التنمية التي تقف حجر عثرة أمام تحقيق متطلبات العيش الكريم والرخاء للمواطنين، فهل يستطيع محمد إدريس ديبي خلال الخمس سنوات المقبلة تخفيف معاناة البدو واخراجهم من قوقعتهم وبعدهم عن العالم، وانتشالهم من قسوة حياتهم كبشر من حقهم أينما وجدوا أن تتحسن سبل عيشهم كي لا يضطر البدوي مجدداً للمخاطرة بحياته والزج بها في غياهب مناجم الذهب أو في أعماق أمواج البحر بحثاً عن حياة أفضل؟ أم تظل كلماته فقط حملات انتخابية ينتهي بها المطاف في صفحات كتبها مختلطة بالمشاعر والمرارة والزهو، خاصة في الوقت الذي يمسك فيه بزمام الأمور بعد ما كان جزء لا يتجزأ منهم في وقت من الأوقات؟

بداية متعثرة

ولدت حكومة السفير ألاماي ألينا رئيس الوزراء الجديد من رحم نتائج أول انتخابات رئاسية في مطلع الجمهورية الخامسة، والتي جرت في الخامس والسادس من مايو ٢٠٢٤م وفاز بها مرشح تحالف تشاد الموحدة محمد إدريس ديبي في الدور الأول بعد نتائج مثيرة للجدل.

لم تر حكومة ألاماي النور إلا في السابع والعشرين من مايو ٢٠٢٤م، بعد مخاض عسير شهدت خلاله اختلافات داخل التحالف الفائز المشكل لها بحسب وسائل الإعلام، دارت بعض هذه التجاذبات حول مسألة تعيين ألاماي نفسه وتقليده منصب رئيس الوزراء، بالرغم من أن الرجل قد استلم عمله رسمياً في انتظار تشكيل حكومته، ثم إن تركيبة الحكومة التي خرجت لم تكن جديرة بكل هذا الانتظار الذي أخذته في تكوينها، لأنها لم تشهد تغييرات كبيرة في الحقائب الوزارية، ولا في أغلب الوجوه من الوزراء الذين رافقوا تقريباً كل الحكومات المتعاقبة خلال الفترة الانتقالية، في الوقت الذي يترقب فيه الشارع التشادي إحداث تغييرات جوهرية فيها مع بداية الجمهورية الجديدة، وبات من الواضح جدا أن الرجل كغيره من رؤساء الوزراء السابقين لم يكن قادراً على تشكيل حكومته بنفسه وسط كل هذه الاختلافات في مسألة تقاسم الكعكة.

يأتي ألينا إلى فندق ميركير (مقر رئاسة الوزراء) من أعماق مطبخ القرار التشادي، متسلحا بخدمة سنوات في مجال البروتوكول بقصر توماي إبان فترة الرئيس الراحل ديبي الأب الأخيرة، وحتى وإن لم يشارك بشكل مباشر في صنع القرار إلا أنه يعرف جيداً نواميس الحكم في دولة ضائعة تتسم أعمالها بالتخبط والعشوائية!

لم يتصور الكثيرون وربما الرجل نفسه أنه سيجلس ذات يوم على كرسي رئيس الوزراء، فقد جاءت به الصدفة دون وجود طموح وتحمس أو تخطيط واضح لها من قبل

كما تظهره تصريحاته الأولى التي تعطي انطباع أنه لا يمتلك برنامجا ولم يكن مستعدا لحدث كهذا؟ كما تغيب عن ملامح وجهه علامات القيادة وقوة الشخصية والنباهة. لذلك لم تلفت تلك التصريحات الخالية من الروح انتباه المتلقي لأنها كانت غير قادرة على توضيح المسار وبث شعلة من الأمل في وقت سيطر فيه اليأس على المجتمع، فلم تكن الخطوط العريضة والأولويات التي ستنفذها حكومته في قادم الأيام واضحة المعالم، بالرغم من أن مهامه هي تنفيذ برامج رئيس الجمهورية محمد إدريس ديبي التي وعد بها الشعب التشادي بتحقيق التنمية والازدهار والرخاء.

فضلاً عن هذه البداية المتعثرة، تواجه هذه الحكومة عاصفة من التحديات، في مقدمتها الاجتماعية والإدارية والمالية حيث أن الميزانية العامة للدولة التي ستتكأ عليها قد تم اعتمادها قبل مجئ الحكومة السابقة بقيادة الدكتور سكسيه ماسرا والتي وضعت الأخير منذ اليوم الأول في موقف حرج.

لكن ألاماي المحبوب من قبل الدولة العميقة وان ظهرت بوادر اختلافات في مسألة تعيينه إلا أنه عكس ماسرا المغضوب عليه، فالأول يحظى بدعم من مراكز صنع القرار وأصحاب النفوذ، لذلك من الواضح أن فترة مكوثه على كرسي رئيس الحكومة ستتسم بشيء من الهدوء وستتاح له تسهيلات أكثر من سلفه، لكن صورة ألينا ظهرت مهتزة منذ اليوم الأول الذي قدم فيه نفسه للمواطن أمام وسائل الإعلام، فظهر كرجل يواصل المكوث في الظل بجوار الأضواء.

هل يستطيع رئيس الحكومة السفير ألاماي ألينا وهو المعروف بكفاءته البروتوكولية إحداث أي تغيير حقيقي في منوال التنمية وسط أوضاع اجتماعية واقتصادية وادارية مأساوية ومتردية، ترافقها حالة من يأس المواطنين من الأنظمة المتعاقبة وسياساتها التي أدخلت البلاد في نفق مظلم لم تستطع الخروج منه بعد؟ أم يمر الرجل عابراً كأسلافه دون إحداث أي تغيير يذكر؟

الأيام المقبلة كفيلة بالإجابة على هذه التساؤلات في بلد اعتاد على الفشل والخيبات المتتالية.

اللعنة

تعددت الكوادر التي تبوأت منصب حقيبة الوزير الأول في الجمهورية، مكث بعضها سنوات في الكرسي بكل أريحية دون أن يحدث أي تغيير تنموي، بينما جلس البعض الآخر في كرسي متحرك ساخن لم يمكث فيه سوى أشهر معدودة فقط، بدأ البعض بالإجراءات الإصلاحية ثم أقيل، بينما كتبت أسماء الأغلبية منهم في سجل التعداد التاريخي لرؤساء الحكومات المتعاقبة دون ترك أي أثر يذكر لهم.

ومهما اختلفت انتماءاتهم السياسية ودرجة كفاءاتهم وتعددت آراؤهم وبرامجهم ونظرتهم للأمور، إلا أن حصيلة أعمالهم تكاد تكون جميعها متشابهة في النتائج، فلم تخلف آثارًا تنموية ملموسة على الواقع، بل أدت إلى تفاقم الوضع وزادت حالة الإحباط من السياسة والسياسيين ونواياهم.

كان آخر رئيس وزراء سابق هو الدكتور سكسيه ماسرا، الرجل الذي يملك شخصية قيادية جدلية وذو كفاءة عالية، وربما يكون هو الرجل الوحيد الذي علق عليه المواطنون آمالهم بصدق، في إحداث التغيير وانتقالهم من هذا الواقع المأزوم الذي يعيشونه طيلة ٦٤ سنة إلى واقع أفضل. لكن فترة الخبير الاقتصادي لم تستغرق سوى خمسة أشهر فقط على كرسي الحكم، وكانت مليئة بالعراقيل وتدخلات الدولة العميقة منذ اليوم الأول لتوليه المهمة، فلم تسمح له حتى بالبدء في تنفيذ بعض برامجه الطموحة الواقعية التي لم يرى أحد مثلها من قبل في تاريخ الجمهورية بتعبير أحد المستشارين الوطنيين أثناء جلسة منح الثقة لحكومته من على مقاعد الجمعية الوطنية، ثم إن الرجل نفسه قد تشتت خلال الشهرين الأخيرين بسبب تركيزه على حشد أنصاره من أجل تحقيق طموحه بالفوز في سباق رئاسة الجمهورية مع يقينه التام بأنه يخوض معركة سياسية خاسرة منذ البداية نسبة للعديد من الأسباب التي يعرفها أبسط مواطن عادي.

أما رئيس الوزراء الراحل جميرنقار دادناجي فقد كان ذو شخصية عنيدة أدت إلى تصادمه أيضاً مع الدولة العميقة التي عملت على الإطاحة به عبر إجباره على الاستقالة، مع تقديم عريضة ضده في البرلمان لسحب الثقة منه ومن حكومته، بالرغم من أن الرجل قد أحدث جملة من التعديلات في دواليب الإدارة التشادية بحسب المراقبين، وهو أمر لم يسمح له بالبقاء طويلاً في كرسي رئيس الوزراء سوى فترة زمنية محدودة.

بينما اتسمت مراحل بعض رؤساء الوزراء الآخرين بالبرودة والهدوء ولم تكن لدى أغلبهم شخصية قيادية ولا برامج تنموية واضحة المعالم، مثل ايمانويل نادنقار، وكالزيبي باهيمي ديبيه، وباهيمي باتاكي ألبير، وصالح كبزابو، فقد كانوا يؤدون أعمالهم بشكل اعتيادي مثل موظفين عاديين بسطاء، دون أن يأمل المواطن منهم شيئاً في إحداث التغيير المأمول وحلحلة أوضاعه المأساوية.

هذه نماذج من بعض رؤساء الوزراء الذين قادوا حكومات في الجمهوريتين الثالثة والرابعة، وإن اختلفت ظروف توليهم لمهامهم ومدتها وتوقيتها والأزمات التي واجهونها، إلا أن المواطن لا يتذكر لهم بصمات في حياته اليومية سوى استفحال الأوضاع العامة وتفكير الشباب في الهجرة، والمخاطرة بحياتهم والزج بها في غياهب مناجم الذهب، أو في أعماق أمواج البحر بحثاً عن حياة أفضل.

وإذا كانت لعنة القصبة (القصبة اسم قصر رئاسة الحكومة التونسية) على غرار ما أسماه الكاتب التونسي الطيب اليوسفي في كتابه "لعنة القصبة تفاقم الخطايا ومراكمة الفشل" قد طاردت رؤساء الوزراء في تونس بعد الثورة، فانتهت مهامهم دون إحداث أي أثر تنموي في البلاد بل خلفت نتائجهم تفشي التسيب وتفاقم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وترذيل الحياة السياسية وظهور البؤس والخصاصة، فإن لعنة فندق ميركير Mercure (مقر رئاسة الحكومة التشادية) هي الأخرى قد حلت برؤساء الحكومات المتعاقبة وبالدولة الضائعة المتخبطة، وبالمواطنين، فقد تفاقمت الأوضاع المعيشية

والاقتصادية والاجتماعية، واغرقت الإدارة التشادية بالتعيينات الغير مسؤولة عن طريق المحاباة وعن طريق الاستجابة لطلبات أصحاب المال والنفوذ والحكم، وعملت على تفتيت النسيج الاجتماعي وتأخير منوال التنمية المنشودة.

فهل تطارد اللعنة أيضاً السفير اللامي ألينا أول رئيس وزراء للجمهورية الخامسة والذي يحزم أمتعته نحو فندق ميركير متوجا بخبرة عمل سنوات في قصر توماي (اسم قصر رئاسة الجمهورية التشادية) كما فعلت هذه اللعنة مع أسلافه أم يفلت منها؟ في الوقت الذي لا تهم فيه كفاءة الشخص الموكلة إليه مهام رئيس الوزراء، بسبب أن مسألة التنمية في حد ذاتها هامشية في نظر الدولة العميقة وتتخذ كشعارات براقة تأتي وتذهب كما يراد لها، وبسبب ضيق المساحة التي يتحرك من خلالها الوزير الأول، ويتكالب عليه أصحاب المال والنفوذ والسلطان من كل حدب وصوب فيعملون على عرقلته واضطراب عمله، ثم إن مجمل القرارات التنموية المهمة لن يستطيع اتخاذها بحرية وبدراسة ومنهجية، ولذلك غالباً ما تكون الحصيلة الحكومية في نهاية مهامها صفرية وغير قابلة للقياس.

وسط كل هذه الأجواء هل يفلت اللامي من اللعنة ويكون استثناء في تحقيق الحد الأدنى من متطلبات العيش الكريم للمواطنين، أم يضيف هو الآخر اسمه ويدونه في سجل رؤساء الوزراء السابقين دون أن يذكر له أي أثر؟

الهوية

لا تكاد تبرح قضايا الإثنيات العرقية في تشاد مكانها من وقت لآخر سواء في مواقع التواصل الاجتماعي أو في وسائل الإعلام أو في الشارع والحياة اليومية، لتعود بأشكال وأسباب مختلفة قد تكون بريئة ساذجة، أو قد تكون مصطنعة وحقيقية دافعة لإقصاء الآخر وتهميشه وإلغائه.

كما أنها لا تزال تبقى على نار مشتعلة في شكل حروب أهلية مسلحة بدوافع مختلفة يتداخل فيها الإرث الثقافي التقليدي بالسياسي والعسكري والمالي، كما تتداخل فيها الأسباب الداخلية بالخارجية لتشكل قضايا أكثر تعقيدا في دولة متخلفة متعددة الإثنيات العرقية تعيش فوق سطح بركان قابل للانفجار في أي وقت من الأوقات باتجاه الهاوية الجماعية كما حصل في دول أخرى مع الأسف!

تشكل العرقيات!

لسنا هنا بصدد دراسة تاريخية، ولكن الواقع يقول أننا دولة متعددة العرقيات، حيث تتشكل فيها هذه العرقيات بناء على مصالحها الآنية أو المستقبلية، فينصهر بعضها ببعض، أو يتآلف بعضها في شكل تكتلات إثنية جديدة، بهدف الحماية أو الانتقام أو الانتفاع حسب الدوافع والمصالح والظروف، بينما يبقى بعضها الآخر على مسافة من الجميع للحفاظ على مصالحه الخاصة، في حين يتقاتل جزء منها على الفتات بدوافع ومطامح داخلية أو خارجية أيضا، وقد تنسج خيوطا ودية تقليدية بينها في ظل طغيان الدور التقليدي الذي يحكمنا والمتمثل في العادات والتقاليد كالمشيخة والسلطنة وغيرها من ألوان الطيف التقليدي التي تتحكم اليوم في زمام الملايين من الشعب التشادي في ظل استمرارية تراجع الدولة وضعفها عن القيام بواجبها المدني بالشكل المطلوب من تطبيق صارم للقوانين وعلوها على كل الاعتبارات الضيقة التي تأخذنا يوميا إلى منعطف جديد.

من يحق له تحديد الهوية؟

بناء على ذلك التشكل، تمثل قضية الإثنيات العرقية التي تفوق مائة إثنية متنوعة جزءا من الهوية الوطنية المصغرة والضيقة، وهي بذلك تمثل قضية هوية وجودية بالنسبة للبعض في المقام الأول لشعوره بالنقص في مكانته وإلغاء لهويته وإقصائه، بقدر ما تمثل قضية نفوذ وسيطرة للبعض الآخر، ولكن مع كل هذه المعمعة كيف يمكننا تحديد الهوية الوطنية الجامعة؟ وبعبارة أخرى أدق، من يحق له تحديد هوية كل هذا الكم الهائل من الأعراق ويجعلها تتلاقح تحت مظلة واحدة تؤمن بالتعدد على أنه ثراء تراثي وحضاري ومعرفي وتواصلي وليس على أية اعتبارات أخرى ضيقة؟

الجواب أعتقد ببساطة تحدده الدولة المدنية، فمهما كانت اختلافاتنا العرقية القادمة من خارج القارة الإفريقية أو من داخلها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، أو حتى القادمة من داخل الأراضي التشادية نفسها، فإن النظم الدستورية للجمهورية وقوانينها وتوجهاتها السياسية، وسياقها التاريخي الحضاري وموقعها الجغرافي المتداخل كلها مجتمعة هي من يحق لها تحديد ما يسمى بـ"الهوية الوطنية" من خلال تمثيل أطياف المجتمع المختلفة العرقية والمناطقية والدينية والسياسية في نظام موحد متقارب تحت مناخ مدني غير تقليدي تحكمه الجلسات التقليدية التي طالما أنها تتحكم في الملايين فإن نظام الدولة المدني الهش مهدد بمزيد من الممارسات القبلية التي تسربت إلى داخل أروقة الدولة وصارت ورقة رابحة في يد الذين يحاولون الكيد لهذا الشعب لإدخاله في أتون صراعات قد تكون وبالا علينا –لا قدر الله– لأن الفرد لا يجد حقه دون اللجوء إلى هذه الجلسات العرفية، ولأن المستوى الشعبي العام يدفع باتجاه هذه التقاليد يقينا منه بضعف الدولة وهشاشتها، في ظل عدم تجاوز مستوى تفكير أغلبنا للتربية المنزلية التي تجسد في أغلبها القبلية حتى النخاع بدءا من قيم القبيلة الفاضلة إلى أخطائها وخصوماتها وثاراتها، ومن هنا فإنني لست متفاجئا إن رأيت من يتعصب للحمية القبلية وهو متعلم أو سياسي، ولا تتصوروا أننا قادرون على إحداث توازن خلال فترة وجيزة، لأن الأمر يبدو أكثر تعقيدا مما ذكرت.

من الأرض الجامعة إلى اللغة؟

قدرنا هو العيش في أرض واحدة متعددة الأعراق تتخذ من قلب افريقيا موطنا لها، حيث تمد جسور التواصل بين الدول العربية الإفريقية والدول الإفريقية الأخرى فضلا عن علاقاتها خارج القارة السمراء، وهو يعتبر في نظري تمثيلا للأعراق المختلفة وخطوة لإحداث تقارب بين هذه المكونات من خلال تبني الدستور الذي يحدد هويتنا الوطنية للغتين العربية والفرنسية كلغتين رسميتين للدولة مع مراعاته للغات العرقية المتعددة والتي أسماها ب"اللغات الوطنية"؟، تتقدمها في التواصل اللغة العربية الأكثر استخداما في المجتمع، حيث تنص المادة التاسعة من الدستور المعدل لعام ٢٠٠٥م بأن (اللغة الفرنسية واللغة العربية هما اللغتان الرسميتان للدولة، ويضمن الدستور تطوير "اللغات الوطنية" في إطار القانون)، وأعتقد أن خيار الدولة التشادية هذا، لا يعني إلغاء للآخر وتهميشه بقدر ما هو مقاربة للوحدة الوطنية فرضته طبيعة البلد وتاريخها وموقعها الجغرافي وظروف سياسية معينة، فمن الطبيعي ألا تستطيع أي دولة أن تستخدم كل لغات أعراقها كلغات عملية في الدستور خاصة عندما تكون الدولة مثل تشاد تسكنها أعراق كثيرة ومتنوعة، مع ضرورة احترام وتمثيل كل الأعراق واختلافاتها حسب ما تقتضيه الظروف، والسعي للمقاربة بينها.

من غير الإنصاف أن نقول أن الشعب التشادي المتنوع كله عربي، مع أن غالبية ساحقة من الشعب من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب يستخدم العربية حيث هي لغة المجتمع الطاغية الأكثر استخداماً في التواصل بين كل مكونات الشعب التشادي، ومن الإجحاف أيضا أن نقول أن العربية لغة لفئة واحدة فقط من الشعب، فالعربية اليوم لا تمثل تلك الفئة العربية وحدها، بل تمثل واقع وطني معاش لشرائح واسعة من الشعب مع احتفاظ كل منهم بخصوصيته واختلافاته، ومن هنا نستطيع القول بأن تشاد "دولة عربية" ليس في إطار القومية العربية الموجودة الضيقة للكلمة وإنما لأنها لغة رسمية في الدولة واللغة الوحيدة الجامعة للتواصل والمخاطبات بين الشعب، وهذا لا

يلغي الكيانات الأخرى أو يضخم كيان برمته على حساب الكيانات الأخرى، تماما مثلما نقول أن تشاد دولة "إفريقية فرانكفونية "فهو أيضا لا يلغي الكيان العربي ويضخم مثلا من الكيان الجنوبي وإنما هو تعريف بحسب طبيعة جغرافية ولغوية معينة، مثلما نقول الكاميرون دولة "فرانكو – إنجلوفونية" فهذا لا يعني إقصاء العرقيات الكاميرونية وإنما هو أيضا تصنيف حسب طبيعة لغوية معينة، وهكذا الحال في مختلف الدول الفرانكفونية والإنجلوفونية أو حتى الدول العربية نفسها والتي فيها كيانات أخرى متنوعة غير عربية، وكما قلت فإنها تبقى تصنيفات في سياق معين لا تعني قط انتقاصا من أحد أو تضخيما لأحد على حساب أحد آخر، فمعيار الأفضلية واضح لدينا "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى" إلا لمن ينظر للأمر في إطار ضيق فهذا شأنه وحده، ولكن يبقى الواقع واقعا ولو اختلفت زواياه المتعددة.

ومن هنا فإن دخول تشاد في المحيط الفرانكفوني سواء كان إجباريا أو طوعيا وإن رأي فيه الكثيرون أنه إلغاء للهوية التشادية المشتركة فهو لا يعبر حسب نظري إلا عن بحث الدولة عن سبل بقائها ومصالحها المستقبلية أو الآنية، مع فرضية تسليمنا بأنها لم تتحصل على الكثير من الفوائد نظير بقائها في هذا المحيط، كما أنها متى ما رأت أن لها فائدة كبيرة في الانضمام إلى محيط جامعة الدول العربية ستنضم إليه حتما مهما طال الوقت، وإن حصل ذلك، فلا يعني أيضا إلغاء للطرف الآخر الجنوبي أو طرف آخر في الوسط أو الشمال أو الشرق وتهديد مستقبله، مع فرضية تسليمنا بعدم استفادتها كثيرا منه أيضا، فالدولة لا ترى من هذه الزاوية، برؤية ضيقة قاصرة كما يراها البعض، بل تحكمها المصالح العامة والفرص والمتغيرات وأحيانا طبيعة الظروف، فترى من فوق كل تلك الاعتبارات الإثنية والمناطقية والدينية والسياسية كما فعلت مؤخرا مع إسرائيل وهو موضع رفض بالنسبة للأغلبية التشادية.

دولة مدنية قوية لاضمحلال الإثنيات العرقية!

شخصيا أتمنى أن أرى اليوم الذي يصبح فيه المواطن مدينا فقط للدولة دون أي اعتبارات أخرى ضيقة، وهو ما يجعلني أقول أن الحل في تقديري هو إقامة دولة مدنية قوية تذوب فيها الإثنيات القومية بكبيرها وصغيرها وتضمحل لصالح شيء واحد هو الوطن، كما هو الحال في دول أخرى كثيرة، فلا يجد أي مواطن نفسه مضطرا للرجوع إلى الإثنية إلا في إطار رمزي تاريخي فقط، بسبب أن الدولة تضمن للجميع حقوقهم وحرياتهم وواجباتهم من خلال تحقيق العدالة وعلو سلطة القانون على كل الاعتبارات واستقلاليتها التامة، ولكن عن أي دولة مدنية قوية نتحدث في ظل ضعف الدولة التشادية وتقاعسها عن إيجاد حلول ملموسة واقعية وعميقة وعادلة لما يجري في كل شبر من أراضيها؟

خلاصة القول، ستبقى قضية الإثنيات القبلية والمناطقية عالقة في أذهان الأجيال وتترجم يوميا في بعض أفعالهم، متعلمهم وجاهلهم وإن ادعينا أننا نحاربها، بسبب أنها تحتاج إلى حلول جذرية عميقة وعادلة وقوية، وأعتقد أنه من الجهل والتسطيح والسذاجة أن نقول إنها قضايا وهمية عبثية، بل هي قضايا متجذرة ومتجددة وخطيرة تمثل بأي شكل من الأشكال جوهر الصراع الناعم والمسلح القائم منذ الأمس واليوم وغدا بأدوات مختلفة.

النخبة

في يونيو عام ٢٠١٨م، حضرت ندوة للرئيس التونسي الأسبق الدكتور منصف المرزوقي في تونس بعنوان: "علاقة المثقف بالسلطة"، وقد شدد الرجل على أن العلاقة بينهما يجب أن تبنى على النصح، وتقديم الاقتراحات للسلطة من أجل تغيير الأوضاع نحو الأفضل، فوق كل الاعتبارات الشخصية، كواجب وطني في المقام الأول، لا أن ينحني المثقف لفتات السلطة!

ومن واجب المسؤولية الوطنية الملقاة على عاتقه أيضاً، ألا يسقط المثقف كل العلوم والمعارف والمهارات التي تلقاها في بحر هذه المصلحة الذاتية التي تخضع للكثير من المساومات وبيع الذمم، وهي مسألة غاية في الخطورة في دول العالم الثالث، حيث تعمل العديد من النخب على ضوئها على طمس الحقائق وغسل أدمغة المواطنين، وإظهار الوضع بصورة وردية مثالية بعيدة كل البعد عن الواقع المعاش. ثم يؤكد المرزوقي على أنه من واجب النخب كذلك التصدي للفساد والانحراف الذي تقوم به السلطة لأن عواقبها ستكون وخيمة على الجميع بلا استثناء، وهنا ستصبح المهمة شاقة قد تؤدي ببعضهم إلى السجون، بينما يتم اغتيال البعض الآخر، نتيجة للاضطهاد الذي تمارسه الأنظمة الديكتاتورية التي دأبت على قمع المعارضين السياسيين والمدنيين وأصحاب الرأي الحر، مثلما دأبت على تكريم المتسلقين والمتملقين والمنتفعين الذين يدعمونها بشكل أعمى من أجل مصالحهم الخاصة.

ثم يشير المرزوقي إلى أنه من واجب السلطة أن تستمع للنخب، وتجعلها شريكة في القرار، وتمحص استشارتها في العديد من القضايا، وتتفطن لمطبات الطريق التي تقف حجر عثرة في سبيل النهوض بالمجتمع.

وإذا كانت من بين أدوار النخب المنوطة بها هي الرقابة على سلوكيات السلطة ومنعها

من الاستبداد وتقديم الاقتراحات لها، فإنها من جهة أخرى تعتبر رقيبة أيضًا على المجتمع ومنعه من الانحراف، من خلال نقد السلوكيات الهدامة وتعزيز الممارسات الإيجابية، بفعل التوعية المستمرة، وهي بذلك تعد بمثابة حارس البوابة عينه في كل اتجاه حتى لا تسرق الممتلكات ولا يسقط المبنى ولا يتفتت!

لذلك تكون النخب في العديد من المجتمعات في طليعة التغيير في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعلمية، فهي قاطرة المسار الذي يوجه البلاد ويزيد من الوعي الجماهيري بأهم القضايا الوطنية والعالمية لتحقيق مزيد من أسباب الرفاهية والرخاء.

ذلك أن هذا الوعي الذي تقدمه نابع من ضميرها ومحبتها للوطن، ويمكن تطبيقه عبر العديد من الوسائل مثل إنشاء الأحزاب السياسية والجمعيات المدنية والمراكز العلمية والمؤسسات الإعلامية والأنشطة الهادفة، والتي يجب أن تعمل في جو من الحرية، والاستقلالية المادية، وبمستوى عال من المهنية والجودة.

لم تكن نخبنا على قدر عال من المستوى من حيث المسؤولية المجتمعية، وهي التي تتشظى وتتصدع يوما إثر يوم جراء اللهاث وراء فتات السلطة وتقاسم الكعكة، من أجل سد رمق العيش وتحقيق متطلباتها من المناصب والنفوذ ودفع تكلفة التعليم والدواء لأبنائها والقدرة على السفر والسياحة لاكتشاف أماكن جديدة، في الوقت الذي يئن المواطن ويفتقد فيه لأبسط مقومات الحياة في مختلف المجالات؟ كما تظل بعض هذه النخب بعيدة كل البعد عن المساهمة الفعلية في مراكز صنع القرار ومنوال التقدم المنشود الذي لم يبرح مكانه بعد، والذي تتذيل فيه البلاد دول العالم في مختلف مؤشرات التنمية، ما يجعلنا خارج سياق الحاضر المحلي والإقليمي والعالمي، وسط ضبابية في الرؤية والاتجاه نحو المجهول.

تصبح مهمة النخب شاقة كلما تسلحت بالقيم والمعرفة والوطنية وتجاوزت حظوظ

النفس وأطماعها، وكلما كانت مدركة أكثر للوقائع ومواكبة المستجدات العلمية والمعرفية والفكرية في مختلف المجالات الحيوية، ومحاولة فهمها ودراستها وغربلتها وتقديم العلوم والمعارف وتبسيطها للمجتمع، من أجل رفع نسبة الوعي الجمعي والاتجاه بالبلاد إلى دفة أخرى أكثر واقعية وإشراقا.

يبقى أن نشير إلى أنه من واجب نخبنا التائهة في معركة البحث عن الفتات أن تأخذ مسافة للتقييم الذاتي، وتعيد النظر في الكثير من الأمور بتفحص وروية وإنصاف، على أمل أن تحد من سلوكياتها التي تسهم في تفاقم وضع المجتمع وزيادة تخلفه عن ركب التنمية والتقدم.

الوعي

١

رغم التغيرات الإيجابية التي ظهرت جليا في مجتمعنا في السنوات الأخيرة، الا أننا ما زلنا نعيش أزمة تخلف حادة في مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بدرجة لا نظير لها حتى في أغلب دول الجوار على سبيل المثال، هذا فضلاً عما يجري الآن من تقدم في مختلف دول العالم في شتى المجالات، ومحاولة فهم الجوانب النفسية والسلوكية للأفراد والجماعات وتوجهاتها، أو ما يعرف بـ"سيكولوجية الجماهير"، فضلاً عن الوعي بحقوق هذا الانسان وواجباته وتطلعاته، وضرورة الاستثمار فيه، باعتباره جوهر الحضارة والنماء والتقدم، وليس انتهاء بالوعي بالأحداث الإقليمية والعالمية وكيفية تشكلها، وكيف ستشكل هذه المتغيرات المتسارعة مستقبل هذا الانسان، ثم تسخير كل ذلك وتوجيهه لتحقيق المصالح الوطنية من البناء والرخاء والازدهار بوتيرة تفوق أحيانا الخيال عند بعض الدول.

نحن مازلنا بعيدين عن كل هذا، فمجتمعنا ما زال عصي على الفهم سواء على مستوى السلطة أو على مستوى المجتمع المدني، لأنه معقد في نظري، والتعقيد هو حالة طبيعية لأي مجتمع من المجتمعات بسبب تداخل مكوناته الاجتماعية ومنظومته الفكرية وتطلعاته المتجددة، الا أن مجتمعنا ينفرد باصطفاف قبلي أكثر تعقيدا في بنيته العرقية وثقافته المختلطة من الدين والفكر التراثي التقليدي المتمثل في العادات والتقاليد المتباينة من قبيلة لأخرى، وأحيانا حتى داخل القبيلة الواحدة نفسها، ثم لاحقا التأثير بالبنية الاقتصادية والسياسية بما فيها الأحداث الوطنية التاريخية والمعاصرة على طول خريطة البلاد وعرضها، وليس انتهاء بالتأثر بما يجري في دول الجوار والعالم من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية، خاصة موجة الوعي التي اجتاحت عدد لا بأس به من

الشعوب العربية والافريقية، والابتكارات الرهيبة في العلوم التجريبية ومنها التكنلوجيا العصرية التي غزتنا في بيوتنا وباتت تخرجنا من عزلتنا التي نعيشها الى فضاء أوسع، يتشكل فيه الانسان من كل أطراف الأرض بشكل جديد في الحاضر والمستقبل.

جميع تلك العوامل، أحدثت بلا شك، ثقافة متشابكة ومعقدة وسائدة لدينا، متناسقة عندما يكون الأمر لا يخالف توجهها ومصالحها، ومتنافرة ومعادية للجديد غالبا عندما يخالف قناعاتها وتوجهاتها ومصالحها، بحجة أنه ليس من عاداتنا وتقاليدنا، بدون النظر الى اننا بحاجة ماسة الى تجديد بعض أفكارنا وعاداتنا وقناعاتنا في محيط وعالم سريع متجدد ومتغير، ولا أدل على ذلك من مدى حساسيتنا المفرطة من ثقافة المطالبة بالحقوق بالطرق السلمية المشروعة واعتبارها قناعات غربية أو مصائب بحتة ويجب أن ننأى بأنفسنا عنها ونستغفر الله ونتوب اليه ونرجع الى بيوتنا؟ أو حتى تحسسنا من فعل شخص نعتبره قدوة مثلا قام بلبس قبعة شبابية معينة يتجول بها في الطريق فربما سيخرجه هذا الفعل البسيط من دائرة الصالحين المصلحين! في نظر الكثيرين، الى دوائر الانحراف والفساد والمفسدين!، لأن ما فعله يعد عيبا وفجورا وتمردا بسبب أنه غريب على المجتمع، وبسبب جرأة هذا الشخص على التغريد خارج السرب؟

نحن مجتمع غريب الأطوار حقا، عصي على الفهم مرة أخرى، يهتم بسفاسف الأمور، فعلى مستوى الأفراد ما زال الأمر سخيفا، حيث يهتم الكثيرون بقبائل الآخرين وطوائفهم وهل هو تجاني أو من أنصار السنة أو من الاخوان المسلمين أو جماعة الدعوة والتبليغ، طبعا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا كان غير إسلامي الفكر فهل هو علماني أو ليبرالي او اشتراكي.. تصنيفات لا حصر لها، ماذا يلبس وماذا يأكل، وكيف يثور على العادات التي تربى عليها، فلان منحرف..، نفترض وابلا من الأحكام المسبقة، وغيرها من السخافات التي تضيع الطاقات وتشتت التركيز وتجعل البعض رهينة متابعة الآخرين وزلاتهم، عوض الاستعداد لفعل شيء يسهم في تقدم الأفراد والمجتمع.

أما على مستوى السلطة فالأمر مقزز بالفعل، حيث يهتم كثير من المسؤولين بالقشور ويتركون الأهم، يهتمون بالشكليات وبتثبيت مناصبهم على حساب المواطن والوطن، ويستميتون من أجل ذلك، استماتة قوية، خلط لكل الأولويات ورميها في سلة المهملات، أشياء لا تليق بتمثيل المواطنين ومكانة الدولة، يعبثون بالثروات والقدرات ويهدرون الأموال، يعطلون الإنتاج ويعبثون بمستقبل الأجيال الحاضرة والقادمة في تصرفات فظيعة ومكلفة حقا.

وبما أن مسألة الوعي ليست مسألة حسابية يمكن قياسها بدقة كبيرة تماما كالرياضات والفيزياء، فانه من الصعوبة بمكان قياس درجة تطور الوعي أو التخلف بدقة كبيرة أيضا، نعم هناك مؤشرات وعوامل متوفرة تسهم في سهولة التقييم، وفي علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الاحصاء أعتقد أن فيها معطيات وربما قواعد، توفر قراءات أولية أو نسبية لحالة الوعي، لأن درجة الوعي تختلف بين الأفراد وحتى من الفرد نفسه في فترة زمنية ما عن فترة أخرى، وتختلف حسب العوامل المؤثرة، واذا ألقينا نظرة خاطفة في بعض أسباب تخلفنا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي سنجد أن هناك قواسم مشتركة، بالنسبة لي أرى أن إشكالية التخلف ليست مرتبطة بممارسة السلطة السياسية والقادة وحدهم وإن كانوا يتحملون الجزء الأكبر من قلة فاعليتهم، بل مرتبطة أيضا بضعف وسائل الوعي المجتمعية، كالبيت والمسجد والكنيسة والمدرسة والاعلام وحتى الأحزاب السياسية والجمعيات المدنية على أقل تقدير، اذا دعونا ندخل قليلا الى أروقة هذه الوسائل المجتمعية لنرى جزءا مما تفعله حقا في زيادة الوعي أو في ضعفه؟

البيت والشارع

اذا نظرنا الى جزء هام من دور الأسرة التي تعتبر الحاضنة الفكرية الأولى والأهم في تشكيل الأجيال واكسابهم القناعات التي تمثل القيم والمبادئ والأفكار والتطلعات، فإننا سنجد أن هناك الكثير من الأسر لا تركز على الجانب النوعي للتربية مثل اتاحة الفرص

للأبناء للتعبير الحر عن آرائهم، وتنويرهم فيما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم وكيفية التعامل معها، وكيف يأخذونها بالطرق المشروعة بلا عنف، فضلا عن صقل مواهبهم واعدادهم للحياة اعدادا شاملا، بقدر ما تهتم بالجانب الكمي أي الاحتياجات الإنسانية الطبيعية من الأكل والشرب والدواء وحتى التعليم والزواج واللباس، كثير من الأسر تكبل الحريات باسم الدين أو باسم الإصلاح أو باسم القبيلة، بحجة أننا في القبيلة لا نفعل ذلك، ويتبين ذلك في الاجتماعات العائلية والتقليدية وفي موائد الأكل والشرب والمناسبات الأخرى، وهي بذلك تحد من طريقة تشكل الوعي الحر الهادف في مواجهة التغييرات الجديدة التي يجدها الطفل في الشارع أو حتى في التلفزيون داخل البيت أو من وسائل التكنولوجيا الحديثة والتي تخالف ما تربى عليه من قناعات، وتضعه في تجاذب شبه دائم بين ما تربى عليه وبين ما يراه من غزو جديد مخالف، لا يعرف أيهما صوابا فيتبعه؟

مسألة تعليم الأبوين ووعيهم تسبق مسألة توجيه الأطفال، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ثم يأتي التوجيه السليم الهادف لهم وغرس قيم الحرية، العدالة، السلام والتعايش السلمي، وقبول الآخر واحترامه مهما اختلفنا معه، فضلا عن تعليمهم التعاون والتكاتف والوحدة مع الاختلاف برفق، تعتبر ضرورة من ضروريات الحياة العصرية التي بات الاختلاف عنوانها الأبرز، كما أن غرس هذه الأخلاقيات الفاضلة يشكل مناعة قوية ورافدا مهما للأجيال في مواجهة العادات السلبية الواردة، وفي نسخ وتغيير وفرز القناعات التقليدية الإيجابية عن القناعات التقليدية السلبية المتحجرة التي كانت وبالا على المجتمع، لأنها كانت تشجع على القبلية ونبذ الآخر واضطهاده ومعاداته وقتله..

اعتقد جازما أنه ليس بالضرورة أن يصلح لهذا الزمان كل شيء فعله الآباء، مع أن البعض لا يزالون يصرون على (انا وجدنا آبائنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) (الزخرف الآية ٢٢)، فبطبيعة الحال هناك أمور إيجابية ورثناها ويجب أن نحافظ عليها ونعززها، وهناك أمور سلبية ورثناها كذلك ويجب غربلتها ورميها، واعتماد الصالح من تلك العادات فقط، أقول الصالح منها فقط ولا أقول كل شيء؟ فلا يوجد شيء ثابت،

الا الدين فهو ثابت في أصوله، ومتجدد في شريعته وواسع في رحمته وملائمته للحياة، وما عدى ذلك من الدساتير والقوانين والمناهج وبعض العادات الغابرة التي لا تصلح دائما وأبدا ولكل الأجيال، فهي بحاجة لمراجعة دائمة، حيث لكل زمان ولكل جيل خصوصيته ومشكلاته وتطوراته، واتفق جزئيا مع مقولة سقراط "لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم".

إشكالية الوعي الكبرى في الأسرة هي أنها تقوم على أخذ العادات والتقاليد كلها دفعة واحدة، أي بدون فرز الصالح من الطالح منها، فالطفل يتربى على كل شيء في الأسرة من عادات القبيلة وقيمها الفاضلة الى أخطائها وثأرها وخصوماتها وعداواتها، وهذه الى جانب تصيد بعض السياسيين والمنتفعين وقصور العدالة، وربما حتى تربص بعض الدول للتدخل في الشؤون الداخلية يساهم في زيادة الشرخ بين القبائل وأفراد المجتمع الواحد، كما رأينا في الآونة الأخيرة وفي كل وقت من تاريخنا، تعميق للجراح ومعاداة للآخر بدلا من تخفيف التوتر وإيقاف إراقة الدماء، والرجوع الى الرشد والصواب.

كل ذلك يضيق العيش في بوتقة واحدة ودولة واحدة، ويحد من التفكير الجماعي في الحقوق والواجبات الوطنية الأساسية والمصير المشترك لصالح التناحر والتباغض وتشتيت أفراد المجتمع، أي هو انتصار لصالح نعرات الماضي على حساب الحاضر والمستقبل، ومن هنا فان مسألة البناء تبدو أكثر صعوبة في ظل التوترات المستمرة وإنهاك القدرات والطاقات دون جدوى، وتصبح إشكالية الوعي قائمة بدرجة أكثر تعقيدا مما سبق.

٢

المسجد والكنيسة

لا أعرف كثيرا عن التربية المسيحية الكنسية، ولكننا كمسلمين تربينا تربية دينية يمكن أن نطلق عليها مجازا بـ"التربية المحافظة"، لأنها تقوم على اتقاء "الفتن" وهو أمر محمود، وعلى التواضع واحترام الكبير ولكن أحيانا يغيب العطف على الصغير والمرأة بسبب تداخل العادات مع الدين في السلوك اليومي المعاش، والجزئية الأخيرة ليست محمودة نسبة لما يعانيه الأطفال والنساء من تشريد واضطهادات وتعنيف من البعض، كما أن منها ما يقوم على هدر بعض الحقوق المدنية الفردية والجماعية، ووجب احترام ذلك عندما يتعلق الأمر بالوعي السياسي، فيقولون لنا "فوضوا أموركم لله"!

أما عندما يتعلق الأمر بالجانب الاجتماعي ومنه المصالح الضيقة أو المشكلات القبلية العنصرية التي تصل الى القتال والحرب، ففي اللحظة الأولى، لا يوجد أثر ملحوظ للتنشئة الدينية السمحاء، وهنا، لا تجد فرقا كبيرا بين الشيخ وتلميذه، وبائع الحطب والمسؤول الإداري، وسائق الأجرة "الكلاندومان" وكذلك المسؤول السياسي في تصرفات متقاربة حقا، هذا دليل على أن جزءا من هذه التربية مشوب بالفكر التراثي التقليدي الذي امتزج مع الدين، وهو في الحقيقة ليس جزءا من الدين، لأنه عندما تحدث مشكلة تجد الأولوية للقبيلة وليس في ذلك مراعاة للدين الا عندما تتشعب الأمور فيخرج بعض الحكماء ويتراجع البعض.

بعضا من الفكر التراثي الممتزج بالدين فيه فضائل وهذا صحيح، وحتى الإسلام أقر فضائل الأخلاق عند العرب في الجاهلية، ومنع وحذر من سلوكيات أخرى وعادات سلبية، وهذا ليس طعنا في الدين، وليس طعنا في النسيج الاجتماعي، ولكن اظن أنه وصف لحالة واقعية، فالمسجد الذي يفترض أن يكون وعيا حقيقيا للناس نجده منعزلا

عنهم الا في حدود ضيقة، صحيح رأينا تغيرات من بعض الخطباء الذين بدأوا يلامسون مجريات الحياة اليومية، وكثيرا ما سمعنا عبارات تدعو الى ضرورة تجديد الخطاب الديني، وهذا بلا شك دليل على انعزال الخطاب الديني وتوجيهه في مكان وحياة العامة في مكان آخر عما يجري في المجتمع من تخلف اجتماعي واقتصادي وسياسي وعلمي.

اشكالية الوعي الديني تكمن في الخلط الواضح بين السلوكيات السلبية الناجمة عن العادات والتقاليد اليومية ومحاولة ربطها بالدين، والتوظيف السيئ للدين وتفصيله حسب مجريات الأحداث وهوى الحاكم، لا البحث عن حلول لهذه المشكلات من الدين، ونرى اليوم علماء السلاطين وعلماء المصلحة الذين شوهوا صورة الدين بتوظيفه في قهر الشعوب وتركعيها ورفض الحقوق والواجبات المشروعة باسم الدين. الدين عبادة ومعاملة، وأعلى درجات الحرية والوعي وتحقيق العدالة وتحريم الظلم جميعها موجودة في الدين، ومع ذلك الخطاب الديني العام لدينا هو الخنوع، فعندما تتحدثون عن الغاز أو الكهرباء أو غلاء الأسعار وصعوبة الانترنت أو حتى غلاء الأراضي وصعوبة الزواج وزيادة البطالة وهجرة الشباب، يصعد بعض المشايخ المنبر ويقول لنا احدهم لنفوض أمرنا الى الله؟ ثم هو يركب سيارة غالية ويمتلك قطعا شاسعة من الأراضي فيها مولدات خاصة ومزارع وعمال ويتزوج بأربعة نساء ولا تجد له أحيانا عملا حقيقيا، أو مشروعا اقتصاديا وفر له كل ذلك!

ليس اتهاما لرجل الدين وتقليلا من شأنه كما يفهم البعض، ولكنها محاولة لفهم ما يجري من واقع ملحوظ، هناك رجال دين شرفاء حقا، وهناك غيرهم يضللهم الناس، لأنهم يستخدمون الدين لمصالحهم وهؤلاء أسوأ من الذين يستخدم الكذب والمراوغة من أجل مصالحهم، ومن هنا وجب على بعض الأئمة والدعاة والمرشدين أن يكونوا مستقلين اقتصاديا حتى يستطيعون تقديم الدين على حقيقته ليس بطريقة الانتقاء التي تناسب الحاكم وتناسب مصالحهم في التعاطي مع مجريات الأحداث، وانما إرضاء لله الخالق ولخلافته حق الخلافة في اعمار الأرض من خلال نشر الوعي الديني السليم بين

الناس وليس التخبط والفوضى والانتقائية في التعامل مع النصوص الدينية.

ضعف المدرسة

يرجع البعض منا أسباب ضعف الوعي الى ضعف التعليم وحده، هذا صحيح من ناحية، ولكن شخصيا لا أوافق هذا الرأي بدرجة كبيرة لأني أعتقد أن الأمر أكبر بكثير من هذا، وأن حصر الأمر في التعليم وفي المدرسة فقط يعتبر تفكيرا سطحيا قاصرا نظرا لطبيعة المجتمع المعقدة كما ذكرت، ونظرا لتعدد الوسائل اليوم والتي يمكن أن تكون بعضها أكثر نجاعة في سرعة الوصول الى الآلاف والملايين من المواطنين في ظرف زمني قصير إذا ما استخدمناها بجانب التعليم بشكل صحيح واسع الانتشار كالإعلام بشقيه التقليدي والحديث مثلا، فنحول العلوم والمعارف والثقافة والفن الى الاعلام بدلا من سطحية اعلامنا الفارغ من المحتويات الهادفة.

ولكن مع كل ذلك تبقى مسألة التعليم مسألة جوهرية وحجر أساس في الوعي والثقافة بلا شك، تعليمنا ما زال يسوده الفوضى والاضطراب ويعيش حالة من الركود المعرفي، كثير من المعلمين لا يجددون حتى كراريس تحضيراتهم السنوية، وهناك عدم تحديث للبرامج الدراسية التي أعدتها وزارة التربية الوطنية وترقية المواطنة في بعض المراحل التعليمية، ومع أن هناك تطورات في مختلف العلوم بشكل يومي الا أن التلميذ وحتى الطالب الجامعي لدينا لا يعرف عنها الكثير بسبب عدم تحديث المواضيع، وندرة المعامل والمكتبات، وقلة برامج تدريب الإداريين والمفتشين والمعلمين، وصعوبة الانترنت والكهرباء، كما أن هناك مشكلات رهيبة في الإدارات الرسمية من البيروقراطية القاتلة والسياسات المتبعة بهذا الخصوص، وهي بطبيعة الحال تحتاج الى مراجعة دائمة وتحديث دائم..

ان التعليم مع ضعفه وانحساره في المدن الكبيرة بدرجة أكبر، ومع تشتت منابع مناهجه العربية والفرنسية التي ساهمت كلها في صياغة مواطن جديد مشتت الذهن يفكر

بتفكير تلك المناهج القادمة من ليبيا والسودان ومصر والسعودية أو من السنغال وبركينا فاسو وساحل العاج وتوغو الى غير ذلك من هذه الخلطة التي لا يمكن أن يتحملها بشر نرجو منه أن يكون وطنيا يدعو الى الوحدة واعيا بكل هذه الكلمة من معنى، لا ينزلق لمصالحه الخاصة على حساب المصلحة العامة، هذه المنظومة التعليمية صاغت عدة دول ودمجتها في دولة واحدة ومزقتها ثقافيا وعلميا وحضاريا، فصار المتعلم لدينا خليط مناهج تعليمية مختلفة " كوكتيل " يميل باتجاه الدولة التي تلقى منها منهجه أو دعمت دراسته تارة ويميل باتجاه الوطنية تارة أخرى.

مع كل ذلك أعتبر أن التعليم من أكثر الوسائل المتخذة لدينا نجاحا في نشر الوعي الجمعي حتى الآن، لأنه سمح بنسبة وعي كبيرة أو معقولة على أقل تقدير بالنظر الى الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها الشعب، والتخلف الاجتماعي الرهيب ذو العقلية التقليدية القديمة، الى جانب ابتعاد المسجد عن هموم الناس، وبالنظر أيضا الى الفترة الزمنية القصيرة التي شهدت نوعا من الاستقرار السياسي والتي بدورها شهدت كثافة الانتداب الى المدراس وزيادة الاقبال على العلم والمعرفة والثقافة، بفضل مجانية التعليم الذي عملته الدولة مع القصور والفوضى التي طالته الا أن ذلك شجع الكثيرين على ارسال أبنائهم الى المدارس، ومع ازدياد فتح الخلاوي القرآنية زادت نسبة الوعي بلا شك، ولعل بعضكم يتذكر أنه في فترة قريبة جدا كانت كثير من الأسر تمنع أبناءها من الدخول الى المدارس وخاصة الفرنسية منها، والبنات كان حظهن أقل بكثير من ذلك، لكن اليوم بدأ الناس يتجاوزون مثل هذه الحدود الوهمية المصطنعة.

ومن هنا فان مسألة توحيد التعليم أي دمج التعليم العربي والفرنسي معا في نظام وطني واحد متكامل نابع من قيمنا وعاداتنا المتعددة وتطلعاتنا المشتركة يعتبر أمرا هاما حسب نظري، وليس إدخال مادة اللغة الفرنسية هنا ومادة اللغة العربية هناك فقط في ظل توجه سياسة الدولة نحو الثنائية اللغوية، مع أنها خطوة جيدة تستحق كل الدعم والمساندة من أجل التغيير الجذري في عملية دمج التعليم، لأنه ليس من المعقول أن يكون

في دولة واحدة نظامين تعليميين مختلفين ومتصارعين، لذلك ينبغي العمل على تخطى حاجز "العربفون والفرانكفون" في المستقبل ليكون نظاما تعليميا وطنيا واحدا شاملا، يراعي أصالة المجتمع التاريخية وقيمه وحاجاته الوقتية وتطلعاته المستقبلية ليعطي ثمارا وطنية ناضجة.

٣

الإعلام ووعي المجتمع

لا يوجد بلد من البلدان لا يقدم الحد المطلوب من الخدمات الضرورية كالماء والكهرباء والغذاء والدواء وتسهيل السكن والمواصلات والبنية التحتية والاتصالات لمواطنيه مثل تشاد؟ ومع ذلك كثير من الناس لا يرون في كل ذلك أية إشكالية؟ ببساطة شديدة لأننا تأقلمنا كما يقولون؟

قد تقولون إن الأمر يرجع لقلة الوعي، هذا صحيح، وهنا يأتي دور الاعلام الناجح في توعية الناس بحقوقهم وواجباتهم المشروعة وفقا للطرق القانونية المشروعة، حيث ما يزال بعض الأهالي في القرى والبوادي يعتبرون أن عائدات البترول يجب أن توزع لهم نقدا؟ صحيح أن الوعي في ازدياد، ولكن وسائل الاعلام لدينا مع قدر من مساحة الحرية التي تمتلكها ما زالت دون تحقيق الوعي المطلوب منها عما يجري من تخلف في المجتمع.

نعيش غيبوبة إعلامية حقا، ولا يمكننا ان نفهمها دون معرفة بعض أسبابها، صحيح أن هناك قلة في عدد وسائل الاعلام لدينا من الصحف والاذاعات والتلفزة خصوصا، وأنشأت أغلبها بمبادرات فردية طموحة وبجهود مقدرة، ولكن صحيح أيضا أن هناك قلة في جودة عملها من البرامج والتقارير التي تفتقر نسبة كبيرة منها للمهنية وأخلاقيات العمل الصحفي المحترف، وعدد لا بأس به من المنتمين للإعلام لا يتقنون أعمالهم على الوجه المطلوب، بعضهم يخلط حتى بين الخبر والرأي الخاص مع تكرار نفس دورات أبجديات الاعلام من وقت لآخر ومنها أخلاقيات وأساسيات العمل الصحفي التي تقول بوضوح أن "الخبر مقدس، والرأي حر".

هناك عشوائية في الانتماء لهذا المجال الحيوي، واليوم نصحو كل صباح على شخص

يسمي نفسه صحفيا أو يسمونه كذلك دون تأهيل مهني حقيقي، حيث صار لدينا صحفيين بلا مهنة صحفية وسياسيين بلا سياسة ووزراء ومدراء عن طريق الحظوظ والانتماءات! هذه العشوائية بدون رقابة حقيقية من الجهات المختصة زادت فرص الاسترزاق وتوجيه الاعلام الى مآرب شخصية لا تخدم المجتمع بشيء، فضلا عن افتقار كثير من المؤسسات الإعلامية لمشاريع التمويل الخاصة بها ما تسبب في فقدان بوصلتها وأهدافها التي أنشئت من أجلها، بعضها أسست من أجل الحصول على الدعم المالي الذي تقدمه الدولة سنوياً، أو التطفل على سفارات وهيئات أجنبية أو على رجال أعمال وسياسيين محليين يبثون لهم الدعاية الشخصية من وقت لآخر، وأخرى تقوم على تضليل المجتمع، لأجل مصلحة السلطة الحاكمة ولأجل المصلحة الخاصة، مفروغة من التعليم والثقافة والوعي الهادف للمجتمع والمعرفة والقيم؟

وإذا كان الاعلام التقليدي لدينا ما زال يعيش غيبوبة كبيرة، فان الإعلام الرقمي يعيش هو الآخر معضلة الحجب من السلطة من وقت لآخر وتقريباً بنفس التضييق على مواقع التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والواتساب وغيرهما، مع غياب الكهرباء ورداءة خدمات شركات الاتصالات وغلاء أسعارها ونهبها المستمر للوحدات بلا مساءلة وبلا رفض جماعي لخدماتها الضعيفة التي لا توجد أي أمثلة لها حتى في دول الجوار!

تعلو في مواقع التواصل الاجتماعي الحرة مع الأسف أصوات تدعو الى التقسيم والتشرذم ويتناقل عامة الناس عبرها مقاطع تدعو الى الكراهية والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد، وجميع ذلك يمكن أن يفهم في سياق تكبيل الحريات وضياع الحقوق وصعوبة تقبل الآخر وعزل المجتمع عما يجري، خوفا من ازدياد نسبة الوعي التي يمكن أن تؤدي الى نتائج كارثية بالنسبة لبعض المسؤولين والنظام الحاكم، وبالنسبة لأصحاب المصالح المتضررين من وعي الشعوب.

هذه المواقع الالكترونية مع كل ذلك، تبقى صرحا كبيرا ومتنفسا حقيقيا يجب

استغلاله بأفضل طريقة ممكنة للبناء وليس للهدم، لأنها نقلة نوعية تبدد كل عوائق التحجر الفكري والثقافي والتقليدي لصالح المستقبل، في زمن احتكار الكلمة الحرة واغتيال صاحبها وتضليل الناس وتمييع الحقائق.

الأحزاب السياسية

تعيش معظم الأحزاب السياسية مرحلة ضمور وانكماش فعلي، ومرحلة ذبول عند بعضها الآخر، وباتت أكثر رجعية في تأثيرها على فكر الناس وقضاياهم اليومية المتجددة، الناس لا تعرف لها برامجا واضحة ولا أهدافا ولا نشاطا الا في فترة الانتخابات، بل رأينا كثيرا من أحزاب المناسبات التي لا تخلق وعيا سياسيا بمعنى الكلمة، وبعضها كون لمصلحة الفرد أو الأسرة أو القبيلة، حزب أنشأ بالأساس للحصول على هبة خمسة ملايين من الدولة سنويا فهل يقدم شيئا نافعا للمجتمع؟ انه استغلال فظيع للتعددية الحزبية التي اتاحتها الدولة، حيث وجهها المرجفون الى مآرب شخصية وأسرية وقبلية لتضليل الناس وهدم كل وعي سياسي جاد؟ ومن هنا ينبغي وضع حد لهذه الفوضى السياسية، ليس بتقييد آراء الناس وحرياتهم في انشاء الأحزاب والتجمعات المدنية، وانما بوضع أسس تنظيمية ورقابية قوية لئلا يصبح المجال للمنتفعين والمستغلين للناس باسم السياسة الوطنية، وقد رأينا الإجراءات التي اتخذتها الدولة حديثا في إطار انشاء الأحزاب السياسية.

الجو السياسي العام لدينا محشو بالكلمات المعسولة لمغازلة النظام والحاكم، في مقابل الحصول على الأعطيات من المناصب والأموال، أو البروز كمعارض سياسي ثم التحول الى مصالحة النظام والانصهار معه لأجل المصلحة الشخصية والحزبية، وقد لاحظنا أكثر من مرة مهازل سياسية في تشكيل الإطار الوطني للحوار السياسي (Cadre National de Dialogue Politique) وفي اعلان نتائج الانتخابات الرئاسية الخاصة من قبل المعارضة عام ٢٠١٦م خلافا لإعلان اللجنة الوطنية المستقلة للانتخابات، وغيرها من المناسبات التي

تكرر علينا نفس اسطوانة الفشل السياسي من وقت لآخر.

مع كل ذلك! نأمل أن نشهد بزوغ وولادة أحزاب مستقلة وقوية وواضحة في أفكارها وطموحة في خططها واستراتيجياتها وممارستها السياسية، غير فقيرة المحتوى، وغير مستندة على الخارج، أو لعلنا نشهد ولادة سياسيين مستقلين يعملون على توازن الوضع ليأخذوا المجتمع الى منحنى سياسي هادف وبناء يسهم في وعي الناس بحقوقهم وواجباتهم المدنية وفي حرياتهم في اختيار من يمثلهم ديمقراطيا بكل حرية وشفافية ونزاهة، والأهم أن لا يقبلوا سياسيا الا بالديمقراطية التي تمثل حلا جوهريا في بلد متعدد الأطياف العرقية والطائفية والسياسية وفي وجود معارضة مسلحة لا تؤمن الا بقوة السلاح.

التجمعات المدنية

أما واقع الجمعيات المدنية فهو لا يقل تخبطا عن واقع الأحزاب السياسية، هناك الكثير من الجمعيات ولدت ميتة لعدم وجود هدف لتكوينها أصلا سوى حب الشهرة والزعامة والظهور فقط لمؤسسيها، أو بسبب تشعبها وعملها في أكثر من مجال كالتعليم والأنشطة الخيرية والانسانية والثقافية والتنمية البشرية وغيرها، أي بدون مجال محدد تعرف من خلاله وتخدم فيه المجتمع بشكل أكثر كفاءة وأكثر انتاجا!

وهناك جمعيات أخرى ما زالت تصارع من أجل البقاء أو الأفول لذات الأسباب، أو بسبب أنها تقوم هي الأخرى على المساعدات والاملاءات الخارجية، ويتخذها زعماؤها فرصة للتقدم نحو المناصب والتأثير السطحي على المجتمع الفارغ من كل محتوى هادف، وبعضها الآخر قائم على تمجيد السلطة وتضليل المجتمع، والقلة النادرة منها هي الهادفة والتي تعمل على النشر الحقيقي للوعي والمعرفة والثقافة والفن والرقي بالمجتمع، ولكنها أيضا مهددة بالزوال بسبب أن أغلب هذه الجمعيات تقوم على المساعدات المالية ولا توجد لديها مداخل استثمارية مستقلة، وتنشط في المناسبات تماما كما تفعل الأحزاب

السياسية.

يبقى الرهان والأمل على القوة الشبابية الصاعدة والتي يمكنها أن تدفع بنسبة الوعي الى الأمام، فتسهم في دفع عجلة التقدم والتنمية بوتيرة أفضل وأسرع، جنبا الى جنب مع الحكومة والاعلام والمسجد والكنيسة والمدرسة والبيت والحزب والمواطن العادي تتكامل جميعها وتراجع مسيراتها لتعمل بشكل أكثر فاعلية من أجل إحداث الفرق في الوعي والتقدم والرقي.

ويبقى القول، أن ما نحتاجه اليوم من وعي يفوق الوعي السياسي الضيق للكلمة الى الوعي بحقوق الانسان وواجباته، والوعي بالعلوم والمعارف والتكنلوجيا وحماية البيئة، وبالمتغيرات والفرص والتحديات المحلية والإقليمية والدولية، وكيف ستشكل جميعها مستقبلنا ومستقبل أحفادنا، وجب إذن، أن نتمعن في بعض الإشكاليات التي تعتري وسائلنا لننفض عنها الغبار وندفع باتجاه تسريع وتيرة الوعي الحقيقي الهادف لجعل تشاد أخرى ناهضة وممكنة.

الفساد

١

ليس خافيا علينا أن الشعارات والحملات الميدانية على منوال (عملية كوبرا) التي قامت بها الدولة التشادية لمكافحة الفساد قد باءت بالفشل، ولم تؤت أكلها إلا في نطاق ضيق ومحدود، لأن مكافحة الفساد ليست قضية ثانوية تستخدم كشعار للاستهلاك المحلي أو حملة تختفي من حين لتظهر في آخر، بل هي قضية كفاح يومي كقضايا الفقر والجوع والمرض والجهل التي تعيق جميعها الدولة من الانطلاق نحو التنمية المنشودة.

المشكلة جوهرية إذا، وأعمق بكثير من المحاباة في مطاردة المتهمين الصغار والتغاضي عن المتهمين الكبار أصحاب النفوذ القوية. بل هي أعقد وأكبر من الرشاوي ونهب المال العام، وأكبر من عدم كفاءة بعض الأشخاص المسند إليهم هذا الدور الحيوي، لتمتد في نظري إلى التساؤل حول مدى نجاعة الإطار القانوني ومرونته والذي يمكن القائمين على العمل بفاعلية إذا افترضنا وجود قوانين خاصة بمكافحة الفساد؟ وأيضا إلى عدم وجود عدالة مستقلة قوية ونزيهة، هي بمثابة حجر الزاوية في مقاضاة المتهمين لإرجاع المال المنهوب من المتورطين الفاسدين إلى الدولة.

وأعتقد أن جذور القضية تمتد لتشمل أيضا البيروقراطية المتبعة في الإدارات التشادية وما يحتويها من إجراءات قاتلة للعمل غير معصرنة (تعمل بطريقة تقليدية بدون استخدام لتكنولوجيا فاعلة) لها دور في تعطيل مثل هذه الحملات الميدانية.

ليس خافيا علينا أيضا، وحتى بدون وجود إحصائيات رسمية دقيقة، أن نعرف أن درجة انتشار الفساد في بلادنا مذهلة ومخيفة، فهي بلا شك تسرع نحو انهيار متزايد لدولتنا التائهة والمتخبطة وتآكلها من الداخل، وضياع حقوق الناس وحقوق الأجيال

القادمة، جراء التصرفات غير المسؤولة التي يقوم بها المسؤول والمواطن كل حسب درجة موقعه وتأثيره.

مشاركة المواطن

اليوم، حتى المواطن العادي غير المطلع على دواليب الدولة، يعرف أن الفساد قد أنهك بلادنا من خلال ما يعايشه بشكل ملموس من عدم حصوله على الخدمات العامة مثل الماء والكهرباء والبنية التحتية والصحة والتعليم والوثائق الرسمية كالجواز والبطاقة الوطنية وغيرها إلا في إطار المحسوبية القبلية والمناطقية والحزبية أو في إطار تقديم الرشاوي والهبات؟

بل إن المواطن نفسه ذهب لتشجيع تغلغل هذا الفساد في المجتمع، من خلال مشاركته في تقديم الرشاوي للمسؤولين في التوظيف والصحة والتعليم والماء والكهرباء والشرطة والعدالة والبلديات وفي مختلف مجالات العمل العام، باعتبار أنه لا يتحصل على الخدمات العامة التي هي حق من حقوقه إلا بهذه الطريقة من ناحية، وباعتبار أنه يوفر عليه عناء الالتزام بالقوانين والإجراءات الإدارية التي تؤخر مصلحته وتؤجلها لعدة أيام وشهور أو حتى سنوات من ناحية أخرى، فبدلا من تجهيز وثائق لدراجته النارية أو لسيارته مثلا يعطي مئات أو آلاف من الفرنكات للشرطي أو يتدخل أحد أقاربه من أصحاب النفوذ وتنتهي المشكلة، وبدلا من انتظار توقيع مسؤول إداري ما على مستنداته يقوم بدفع الرشاوي وتقديم الهبات للحصول عليها في بضعة أيام فقط، وهو بذلك لا يعد مشاركا في الفساد فقط، بل وفر أرضية مريحة للتستر على قابلي الرشاوي والمختلسين وتشجيعهم للمضي قدما في تصرفاتهم من أجل المنفعة الخاصة بهم على حساب منفعة المجتمع وتطويره.

قد يقول قائل إن المواطن هو ضحية بالأساس لأزمة تسببها الدولة التشادية جراء التخلف الواضح في إداراتها وسوء التصرف في المال والممتلكات العامة وإفلات

أصحاب النفوذ من الحساب والعقاب، وهي بذلك تكون قد دفعت به بصورة غير مباشرة إلى المشاركة السلبية في مقابل دفعه للضرائب والواجبات التي تحتم عليه القيام بها.. هذا كلام منطقي ومعقول، ولكن للمواطن أيضا مسؤولية رقابية ودور إصلاحي في رفض السلوكيات المنحرفة التي تقوم بها السلطة، والدفع نحو تحقيق النزاهة والعدالة الاجتماعية، ولن يتغير شيء إذا كان المواطن نفسه يشجع أحد أقاربه عندما يعين في مواقع مسؤولية مؤثرة ويقول له بالعامية التشادية "أبقى راجل" أي (حاول أن تكون غنياً ما استطعت فلن تمكث كثيرا في هذا المنصب)!

هذه التصرفات سيدفع ضريبتها بلا شك الضعفاء من المواطنين وتدفع الدولة عموما ثمنها باهظا في صعوبة تسريع وتيرة التنمية التي ما زالت لم تبرح مكانها بعد.

الإدارة العامة

غني عن التوضيح بأن حال الإدارة التشادية يرثى لها، ولا أعتقد أننا نختلف كثيرا إن قلنا إن وجود البيروقراطية القاتلة في الإجراءات الإدارية، والنهب المتزايد للمال العام، وسوء تصرف العديد من المسؤولين في الممتلكات العامة مثل أجهزة الحواسيب والسيارات واستخدامها لخدماتهم المنزلية الخاصة، فضلا عن انعدام الشفافية والعدالة في تقديم الخدمات العامة للمواطنين إلا عن طريق المحاصصات والعلاقات الخاصة، تعد جميعها من المشكلات العويصة أمام الإدارة التشادية، بل إن العديد من الموظفين في الإدارات يتصرفون وكأنهم يتفضلون علينا بتقديم خدمة على حسابهم الخاص وليس من واجبهم، وكأن هذه الإدارات العامة ملكهم وحدهم، وكأنهم وظفوا فقط لسواد عيونهم دون أن يقوموا بشيء مقابل الرواتب والامتيازات التي يتحصلون عليها من الدولة.

تحولت الإدارة التشادية إلى أماكن ترفيهية لعدد من الموظفين للعب "الورق والليدو" على أجهزة الحواسيب والنقاشات الجانبية عديمة الفائدة والغيابات المتكررة والعشوائية في العمل، وبات منهم من لا يقدم خدمة إلا بمقابل رشوة أو هبة، خاصة في ظل انعدام

الرقابة الإدارية النزيهة لتصرفاتهم، وهو ما يخلق مزيدا من تفاقم الأوضاع الإدارية والاقتصادية والسياسية وفقدان لدور الدولة الاجتماعي والمدني وإن بطريقة غير مباشرة.

من ناحية أخرى، هذه الإدارة نفسها لا تمتلك الكثير من المقومات اللوجستية الكافية مثل معدات وأدوات العمل والأجهزة إلا القديمة التالفة، تفتقر إلى الكهرباء من حين لآخر وغير مرتبطة بالتكنولوجيا الحديثة التي تسهل الخدمات وتسرعها وتقلل من إهدار المال والجهد والوقت فتعين كل من الموظف والمستفيد من تخطي الكثير من الصعاب التي يواجهونها في الإدارة التقليدية.

ثم إن إغراق الإدارة بالتعيينات الكثيرة ولأوقات قصيرة وبدون النظر إلى معايير اختيار أصحاب المؤهلات المطلوبة وعناصر الكفاءة والخبرة سوى المحاصصات والصدف والانتماء وبدون وجود خطط استراتيجية واضحة للتنفيذ، تمثل مشكلات كبرى يجب الانتباه إليها والحد منها.. فهذا التخبط يعيق مقاومة الفساد وبالتالي إعاقة التنمية.

هذه العوامل الواقعية في نظري توفر أرضية خصبة لنمو الفساد الإداري والمالي وتدفع بالإدارة التشادية إلى مزيد من التخلف، في وقت طبقت فيه العديد من الدول مبدأ الكفاءة والشفافية والمساءلة والعدالة الاجتماعية، من خلال الانتقال إلى الإدارة الذكية المعصرنة التي تدفع باتجاه التخلص من البيروقراطية وتسرع في العمل والإنجاز وتقلص من فرص تغلغل الفساد والرشوة والمحسوبية.

٢

الإطار القانوني

من جهة أخرى، فإن مسألة تحديث الإطار القانوني تعتبر ضرورة ملحة في ظل اتخاذ الفساد لأشكال وأساليب متنوعة، كالجرائم الاقتصادية، والمالية، والإلكترونية، مثل تبييض الأموال، والتهرب الضريبي، والرشوة والهبات المباشرة، وغيرها.

ستساعد عملية تحديث القوانين بلا شك في مواكبة تطورات الفساد التي تخلف نزيفا حاداً للمال العام وإفلاسا متعمدا للخزينة العامة، وواضح اليوم بسبب الفساد وعوامل أخرى عديدة، أننا نعيش في حالة من التيه والفشل، حيث لا يوجد أي منوال تنموي حقيقي في البلاد، سوى منوال التخبط واليأس والإحباط، فمعظم الأموال التي تخصص للمشاريع التنموية تذهب إلى جيوب وأرصدة الفاسدين، وتصرف في غير مواضعها، كثير من الأفراد نهبوا أموال الدولة وبنوا بها أرصدة وعمارات في الداخل والخارج، وتلاعبوا بالثروة العامة، دون أي رادع قانوني أو قضائي، ولا أي وازع ديني أو أخلاقي.

وهناك مسألة أخرى ملحة لإصدار وتحديث قوانين خاصة بمراقبة دخول الأموال إلى تشاد؟ سواء أدخلتها أحزاب أو منظمات دينية، أو جمعيات ومنظمات خيرية وإنسانية، أو دول وكيانات هلامية، أو أفراد بطرق مختلفة قد تكون غير شفافة وقد لا تخضع لمراقبة الدولة، ومن شأنها أن تشكل خطرا حقيقيا في المستقبل على السيادة الوطنية لأنها تعتبر بطريقة أو بأخرى نفوذ خارجية تنفذ بطريقة غير مباشرة وبأيدي داخلية أيضا..

من هنا فإنه يجب على الدولة أن تتحمل مسؤوليتها كاملة في تحديث الإطار القانوني الرقابي والإداري والتوعوي، وسط إقليم متخبط أمنيا، وعالم مضطرب صحيا واقتصاديا، وأموال تنهب داخليا، وأخرى تأتي من كل حدب وصوب بلا حسيب أو رقيب!

المفتشية العامة للدولة

لا نكاد نشعر بوجود المفتشية العامة للدولة إلا في شكل حملات تختفي من حين لتظهر في آخر، تتبع عدد من المسؤولين، تتهمهم بالفساد ثم يعودون إلى مناصبهم مرة أخرى، ثم لماذا لم تقل لنا المفتشية وبالأرقام بشكل واضح لا لبس فيه؛ عدد الأشخاص الذين وجهت لهم تهم بالفساد وأحالت ملفاتهم إلى القضاء في مختلف المجالات الحيوية؟ وكذلك عدد الأموال التي استرجعها القضاء من المتورطين إلى الخزينة العامة، لتعطي للرأي العام إحصائيات رسمية من باب حقه في الحصول على المعلومة تكون قابلة للقراءة والنقاش والتقييم.. وتعطي نبذة عما إذا كانت عملية التقصي عن الفساد تسير بطريقة جيدة شفافة لا تستر ولا غبار عليها؟

ينبغي من ناحية أخرى، إدخال تعديلات في هيكلة المفتشية وتزويدها بالكفاءات والإمكانيات اللازمة كلما كان ذلك ضروريا وممكنا، لضمان فاعلية أكبر في محاربة الفساد وفي توعية المواطن وإشراكه في الحل الشامل والناجع للقضية.

ما هو الحل إذا؟

دعوني أولا أذكر لكم تجربة ملهمة لدولة افريقية فقيرة، استطاعت أن تتفوق على دول كبرى في مؤشر الشفافية العالمية في محاربة الفساد.

"بوتسوانا" دولة جارة لجنوب أفريقيا أحدثت طفرة كبيرة في مجال مكافحة الرشوة والفساد، ليس من خلال رفعها لشعار "صفر تسامح مع الفساد" فقط، وإنما جعلت الشعار واقعاً عملياً، فأنشأت القوانين الصارمة ومحكمة للتفتيش والتوقيف والمصادرة، وأتاحت رقما مجانيا للتبليغ عن جرائم الفساد، كما أنشأت مكتبا للمظالم ضد الموظفين الفاسدين ومراقبة الشركات والمؤسسات الحكومية، ولم تكتف بهذا القدر، بل قامت بتنظيم حملة سنوية لتوعية المواطنين بمخاطر الفساد، فحققت إنجازات كبيرة في المجال حتى لقبت ب "ألماسة أفريقيا النقية اللامعة" بحسب "مجلة الجزيرة" في عددها رقم ٥٢

الخاص بإفريقيا، بعنوان: (إفريقيا.. الوجه الآخر) والذي صدر في يونيو ٢٠١٦م.

يكمن الحل إذا في التعلم من الدول الأخرى، وكمتابع للشأن العام، أقترح اعتماد مقاربة جديدة من خلالها يقوم كل من الوزراء، ورؤساء مجالس المؤسسات العامة للدولة، والأمناء العامون، والمدراء، وغيرهم من المسؤولين الذين يتم تعيينهم في مواقع إدارية ومالية مؤثرة؛ أن يصرحوا بمكاسبهم وممتلكاتهم من أراضي وأموال وأسهم لدى المفتشية العامة للدولة في إطار القانون عندما يتقلدون مناصب جديدة، ويفعلون ذلك أيضا عندما يغادرونها، بحيث يسهل ذلك عمل المفتشية في توجيه الاتهام لمن تعتقد أنه اختلس من مال الدولة وإحالة ملفه إلى القضاء بسهولة.

أكد أيضا على ضرورة هيكلة الإدارة التشادية وعصرنتها، وتجديد القوانين، واستقلالية القضاء، وتعيين المسؤولين وفقا لمعايير التأهيل والخبرة والشفافية والنزاهة، بعيدا عن المحاصصات المناطقية والقبلية والصدف والعلاقات، فضلا عن توعية المواطنين بخطورة التعايش مع الفساد الذي يدمر مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع، حتى لا تسقط الدولة يوماً ما بسبب دودة تنخر في جسمها، اسمها "الفساد في كل مكان".

نهضة التعليم

غني عن التذكير، بأنه ينبغي على الدولة ضخ المزيد من الأموال لتدعيم القطاع التعليمي الثانوي، والجامعي، والتدريب المهني، وضرورة الاعتماد في مخرجات العملية التعليمية على النوعية وليست الكمية فقط.

وغني عن الإشارة أيضاً بأن استخدام التكنولوجيا الحديثة في العديد من القطاعات قد أصبح اليوم أكثر إلحاحاً، خاصة في الجوانب التي تسهم في تسريع التنمية، مثل: التعليم النوعي، والتدريب المستمر، والصحة الوقائية إلى غير ذلك من مختلف القطاعات الحيوية الاجتماعية والاقتصادية التي ترفع من الدخل العام، وتخفض نسبة البطالة، وتحد من ارتفاع الفقر.

يجب تزويد مدارسنا، وجامعاتنا، ومعاهدنا، بالدعم اللوجستي الكافي من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات كالإنترنيت والحواسيب والأجهزة ذات الصلة، وكذلك المعدات الإدارية الأساسية، فضلاً عن إنشاء المكتبات والمختبرات العلمية التي تفتقر إليها جل مؤسساتنا التعليمية، ووضعها كأولوية مطلقة لنقل وتيرة التعلم إلى مستوى أفضل، مستوى يسهم بدوره ليس في نقل المعارف المجردة بل في نقل المواطن وتغيير سلوكه السيء من مرحلة القروية والبداوة إلى مرحلة المدنية والحضارة والمساهمة في التقدم والرقي بهذا البلد المتخلف في العديد من النواحي التنموية.

ولا يفوتنا أن نذكر بضرورة التأهيل المكثف والمستمر للأطر التعليمية، والجامعية، والإدارية المعنية في مختلف التخصصات الحيوية وخاصة العلمية منها، وتحسين ظروف أعمالهم لتطوير النظام التعليمي والتربوي المتهالك وجعله أكثر كفاءة وفاعلية، لجعل مخرجات المدرسة التشادية تتناسب مع تطلعات الشعب، وتستجيب للنظم التربوية، والمعايير الدولية الحديثة، مع مراعاتها أيضا لخصائصنا وتفردنا وعاداتنا وتقاليدنا، ومن

هنا وجب على وزارة التربية الوطنية وترقية المواطنة، وخصوصاً المركز الوطني للمناهج "CNC" بذل المزيد في سبيل كتابة مناهج وطنية حديثة ومرنة ومتجددة.

كما يجب التذكير بأنه ينبغي علينا محاربة الرشوة، والفساد، والمحسوبية التي تؤدي إلى تضييع القدرات والمهارات، والموارد المالية والمادية، سيما التعيينات الإدارية اللا مسؤولة، والتي لا تخضع لأي معايير أو ضوابط دقيقة، وخالية من أي وسيلة للتقييم المهني، كما لا تنطبق عليها حتى مقولة "الرجل المناسب في المكان المناسب".

إن نتائج البحث العلمي في جامعاتنا، ومعاهدنا، يجب أن تتلاءم مع الواقع وتستشرف المستقبل، وبمعنى أدق: يجب أن تجد حلولاً للمواضيع التي تؤرق المواطن مثل: معالجة النفايات، وإشكاليات الحصول على المياه الصالحة للشرب، والنقل، والكهرباء، والأمراض الموسمية، وسوء التغذية، وتطوير الزراعة والغابات، والثروة الحيوانية، والسمكية، والمعدنية.

من هنا فإن الرهان على كل من وزارة التربية الوطنية وترقية المواطنة، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي والابتكار، وكذلك وزارة التدريب المهني يبقى كبيرا جداً، حيث ينبغي أن يقوموا بتقييم كافة المتطلبات الأساسية ويبتكروا حلولاً جديدة وأقساماً علمية جديدة لمواكبة مشكلات العصر، فمثلاً لحل معضلة الكهرباء يتم فتح "قسم الطاقة المتجددة" وهكذا... ، من أجل تأهيل كوادر قادرة على إيجاد حلول محلية لأزماتنا المتعددة من جانب علمي فعال، على أمل المساهمة في السيادة الوطنية الكاملة والتي يتجلى فقدانها بوضوح وقت النزاعات والأزمات مثل " جائحة Covid-١٩ " التي عصفت بالعالم ووضعت البلدان الفقيرة والمتخلفة على المحك.

عاصمة المستنقعات

في مختلف دول العالم، تحظى العاصمة بوضعية خاصة، من الاهتمام والرعاية ببنيتها التحتية وتخطيطها العمراني السليم، حيث جمال المباني والمؤسسات الرسمية، والحدائق والمنتزهات التي توفر أماكن للاستراحة وقضاء أوقات جميلة بعيداً عن ضجيج العمل وضغوطات الحياة العصرية، فضلاً عن نظافة الطرقات والميادين ووضع سلات مهملات مخصصة لتجميع القمامة ومن ثم التخلص منها خارج المدينة.

تعتبر العاصمة الواجهة الأولى لأي بلد، بفعل السياسة، والإدارة، والاقتصاد، وتكون غالباً مكتظة بالمواطنين والأجانب، وهو ما يتطلب عناية خاصة لها من حيث الخدمات مقارنة بالمناطق الأخرى، وهذا بطبيعة الحال لا ينقص من دور وأهمية المدن والأقاليم الأخرى وحظها من الاهتمام والرعاية وجعلها في مستوى العاصمة من حيث البناء والتخطيط والخدمات والنظافة.

إلا هنا في تشاد فالأمر مختلف، حيث تكون العاصمة في مستوى بعيد جداً عن مستوى بقية المدن والأقاليم الأخرى من حيث البنية التحتية والخدمات، ومع ذلك فمظهر العاصمة إنجمينا وحده أيضاً لا يقارب مظهر قرية نائية في ضواحي باريس أو واشنطن أو حتى قريباً منا في دول المغرب العربي كتونس الخضراء التي قضيت فيها سنوات ورأيت العديد من مدنها وأقاليمها وقراها وضواحيها التي هي بكل صدق غاية في الجمال والروعة والخضرة، وتتفوق حتى مدنها النائية وضواحيها على العاصمة انجمينا، بفضل التخطيط العمراني السليم ومراقبة النظافة والبنية التحتية الجيدة حيث لا توجد بها لا برك ولا مستنقعات مليئة بالقمامة والبعوض ولا تعرف طرقات وعرة تمتلئ بالمياه خلال موسم الأمطار.

لسنا هنا في موضع قوة للمقارنة مع أي دولة أو مدينة ما في العالم، لأننا تحت الصفر

حرفيا، حيث تمتلك العاصمة إنجمينا مع الأسف؛ بنية تحتية رديئة مهترئة لا نظير لها في دول العالم، كما تتميز بتخطيط عمراني سيء في المباني الحكومية والشعبية حيث الأزقة والمستنقعات المائية التي تغزو الأحياء السكنية وتصبح عند هطول الأمطار بركة مائية واحدة تسكنها المياه من كل مكان، يعاني منها المواطنين في السكن والمرور بل إن العديد منهم فقدوا منازلهم في خريف ٢٠٢٢م بسبب الفيضانات وأصبحوا تائهين مستوطنين في الشوارع الرئيسية والمدارس الرسمية، في عجز واضح للدولة والبلديات التي بات المواطن آخر همها في مقابل تهافت مسؤوليها على نهب المال العام وتكوين ثرواتهم الخاصة.

ومثلما فشلت البلديات والسلطات المعنية في قضية مواجهة الفيضانات وتسهيل السير في الطرقات العامة، فشلت البلديات أيضاً في إزالة القمامة التي تغزو الشوارع والحارات والتي شوهت منظر العاصمة وساهمت في انتشار العديد من الأمراض مثل: الملاريا، والتيفوئيد، والإسهال، وغيرها من الأمراض المنقولة بسبب انعدام الصرف الصحي وقلة النظافة، وبات المواطن لا يهتم إلا بنظافة بيته مثلما لا تهتم البلديات إلا بجمع الضرائب.

وبالإضافة الى أدوار البلدية الأخرى مثل وضع سلات مهملات للتخلص من القمامة وتنظيف الشوارع وتزيينها يوميا، وتسهيل الخدمات المدنية من شهادات الميلاد والوفيات وشهادة عقد الزواج، وتطبيق إجراءات السلامة فيما يتعلق ببناء المنازل والهيئات الحكومية، فإنه ينبغي على البلديات أيضاً تكوين منتزهات وملاهي للكبار والصغار والتي تعتبر مصدر دخل مساعد لها في تنمية المدينة، وفي نفس الوقت يكسب المواطن قضاء أوقات جميلة تسهم في راحة البال والهدوء النفسي والطمأنينة، فوجود الأماكن والمنتزهات الجميلة لم يعد اليوم ترفاً بل بات ضرورياً من ضروريات الحياة المدنية المعاصرة.

وجب على الحكومة ممثلة في كل من وزارة البنية التحتية وفك العزلة ووزارة السكن والتمدن فضلا عن وزارة النقل ووزارة التخطيط ووزارة المالية وكذلك البلديات وكل السلطات المعنية ضرورة تضافر جهودها ووضع لجنة خاصة بتطوير البنية التحية والعمرانية للعاصمة إنجمينا ومناقشة مشاكل الطرق والقمامة والفيضانات بدلا من الشعارات المزيفة التي ترددها علينا الحكومات المتعاقبة: "إنجمينا: مرآة إفريقيا Vitrine de l'Afrique N'Djamena:".

برودة الدم

بعيدا عن الانتظارات التنموية المرتقبة من عدهما، بدأت الساعات الأولى للولاية الرئاسية الخامسة لرئيس الجمهورية إدريس ديبي إتنو مرشح التحالف الفائز ثقيلة على الصحفيين قبل المواطنين، حيث انتظرنا طويلا، ونحن في فندق راديسون بلو الحديث لتغطية حفل التنصيب، وقبل ذلك انتظرنا كغيرنا من التشاديين في الداخل والخارج، خطابه ظهر الثامن من أغسطس لعام ٢٠١٦م.

كان يوما مثقلا بطول الانتظار لحضور الرئيس إلى قاعة التنصيب، مع قراءة شيء من الأمل يتقاطر في بعض وجوه الحاضرين في القاعة الذين جاءوا من الداخل والخارج، أما خارج القاعة وخارج شاشة التلفزيون الوطني فكان اليأس يتسرب إلى فئة كبيرة من الناس، حيث لا يرون في نظرهم أي التزامات لهذه الوعود السرابية خلال الخمس سنوات المقبلة، فالقليلون هم من يأملون بالتغيير ويثقون بمدى جدية الرئيس في إحداث التغيير المأمول الذي لم يكن يوما من الأيام متحققا في أرض الواقع خلال ٢٦ عاما السابقة من حكمه للبلاد.

تطلعات المواطن بالتغيير إلى الأفضل منذ فجر الاستقلال الجزئي الذي تحصلت عليه البلاد لم تتحقق، بعد فترة كانت كافية لإحداث الانتقال الايجابي وتخطي مراحل كانت أكثر تحديا وصعوبة، وكنت أقول "وحده الأمل يخيب الظن في عالم السياسة"، يصيبك بالبرود والصدمة، فكثيرا ما كانت الخطابات السياسية بمثابة الدواء الفاتر المهدئ من خطورة المرض كالمسكنات التي يأخذها المريض قبل الذهاب إلى الطبيب، وكثيرا ما كانت هذه الخطابات أيضا بمثابة البلسم الشافي لمعنويات البعض وطمأنته من فقدان الثقة ووضعه مجددا في حلبة الصراع بين الأمل المتأرجح والواقع المرير. رئيس البلاد بدوره كان يتقن هذا الفن، فقد جاء خطابه منمقا وموسعا كالعادة، بتطرقه لكافة المجالات السياسية،

والاجتماعية، والاقتصادية، مشخصا للأمراض وواضعا للبعض منها الحلول، لكن في السياسة دوما لا يقاس العمل بالنيات بل بالنتائج والأرقام والانجاز، أليس العمل انعكاسا للنوايا والرغبات؟

غالبا ما أصبحت النيات محل اختبار حينما يتعلق الأمر بالتطبيق الفعلي للبرامج التي تم الحديث عنها بصورة مفصلة، وغالبا ما أحدثت نوعا من فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم، إن برودة دم المواطن تجاه تغيير الواقع، وتجاه تغيير الحالة السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية وفي كافة الأصعدة التي تشهدها البلاد، أمر لا يتطلب خطابات رنانة لإعادة الثقة فقط، بل يتطلب العمل الدؤوب لإقامة العدل الاجتماعي، ومحاولة عدم شعور المواطن بالبرود، وبعدم شعوره بالغبن تجاه نظام بأكمله يفترض أن يسعى لإنقاذه من الوحل!

من الضرورة بمكان محاربة الظلم الاجتماعي وتطبيق مقولة "الرجل المناسب في المكان المناسب" في تولي المسؤوليات الوطنية القيادية، ليدرك الفرد بأن كفاءته العملية للمشاركة في التنمية المستدامة لوطنه مقدرة ولا تضيع سدى، رئيس الجمهورية كان واضحا في هذا حينما قال "أدعو كل التشاديين والتشاديات من القادة والقادرين على العمل بكفاءة أن يساعدوني في المهمة التي أوكلت إلي" وهي محاولة للاتجاه نحو الطريق الصحيح، وتمحيصا دقيقا لاختيار الرجل المناسب في المنصب المناسب وليست بالمحاصصة الحزبية والمناطقية والجهوية الضيقة، ولكنه لم ينجح في أول خطوة وهي تشكيل الحكومة الجديدة، وما دامت المشكلات القيادية أصبحت واضحة لدينا، فانه بات من الضروري العمل على تجاوز هذه الفلسفة في تولي القيادة فقط بناء على القدرة والكفاءة، ولعدم العودة إلى ما قبل الخطاب، وكأن شيئا لم يحدث.

وفي ذات الإطار، فان مسألة وجود قائد وطني مخلص تتطلب إصلاح التعليم، ومنهج التربية الوطنية خصوصا وتطبيقه في المرحلة الأساسية أولا، وهو أمر لا مفر منه

لحلحلة معضلة الرشوة والنهب والتسيب الإداري، إضافة إلى الحزم في تطبيق القوانين لردع المختلسين، والمتلاعبين، والمجرمين، وما لم يحدث ذلك بصورة دقيقة وهادفة؛ فان كل الشعارات تبقى مجرد وعود سرابية. التحدي الحقيقي يكمن في مدى تنفيذ تلك الأهداف التي ذكرها لإحداث التغيير المأمول، أمام تفاقم ظاهرة نهب المال العام المتزايدة كالفطريات النتنة أو كالسرطان الخبيث الذي يسري في دم وجسم الدولة عموما، ولم يترك شبرا إلا وحل محله، ثم إن سوء التصرف هذا لا يهدد الحياة العامة بالانحدار وخطر المجاعة الحتمية الحالية وتفاقمها فقط، بل يعرض الدولة عموما ويكبلها بمزيد من الديون ويجبرها على التسول.

من الزاوية المقابلة، ومن باب الإنصاف؛ أن لا نسلط الضوء فقط على السلبيات دون التطرق إلى الايجابيات مهما كانت ندرتها، وهو ما لا يحلو للبعض منا قوله، لكن الذي ينظر بعين المنطق والإنصاف يجد هناك أهدافا تحققت في مختلف المجالات؛ السياسية: حيث استخدام الحوار والصلح، وازدياد رقعة الحريات، وإنشاء الأحزاب والجمعيات، والمؤسسات الإعلامية وغيرها، وخارجيا بتغيير نظرة الدبلوماسية عما كانت عليه سابقا من دولة الحرب إلى دولة السلام والتعايش اليوم، اجتماعيا: في زيادة المدارس، والمعاهد والجامعات، واقتصاديا: في استخراج البترول وزيادة الدخل العام. هذه الانجازات ما كان لها أن تتحقق لولا وجود أمن واستقرار ملموس. ربما يتهمني البعض بسهولة بأني أدافع عن النظام، أو أطبل له، لكن لم أفعل ذلك من قبل ولن أفعله الآن، بل كعادتي لا أريد أن أستخدم جلد الذات وكأننا لم نشهد تغيير أي شيء، أو كالذباب هدفه تتبع الجروح والقاذورات أينما وجدت، أقول نعم هناك تغيير، وهناك الكثير من الإخفاقات، والفوضى، والفساد، والتحديات.

وبالفعل واجهت حكومة رئيس الوزراء الجديدة باهيمي باتاكي ألبير تحديات كبيرة وجسيمة في كافة الأصعدة، ووجدت نفسها في بحر من الشد والجذب لنزع فتيل الأزمات التي نعانيها، ووجد الرئيس نفسه قبلها أمام وعوده السرابية التي قطعها للوطن

والمواطن تتبخر، وقسمه الدستوري بالمحافظة والإصلاح في محل الاختبار الدائم خلال الخمس سنوات قبل الأخيرة، ما يتطلب المزيد من الحزم وتجديد الإرادة، وتمحيص القادة، وإصلاح المفسدات، وتعزيز الايجابيات، في وقت أصيب فيه المواطن بحالة من برودة الدم، وانعدام الثقة، وتقهقر الأمل في تنفيذ الوعود، وفي وجود تشاد قوية ناهضة ومزدهرة.

قصة كفاح

(١)

ذات مرة، سأل فتى الدكتور سلمان العودة عن أهم أحلامه؟ فرد له قائلا: "أن أموت وأحلامي تنبض بالحياة، وتواجه التحدي، وتنفخ روح الأمل في ضمائر البائسين واليائسين والمحبطين، لا تخف على حلمك متى ما كنت مخلصا وصبورا لأن العالم حينئذ سيتآمر كله لتحقيق حلمك"، لم أكن أعرف أن العبارة قابلة للتطبيق حتى شهدتها تتجسد في شخصية الأستاذ آدم عبد الله محمد فضل الذي كان ينثر الورود العبقة في كل مكان حل فيه، ينشر عظيم الأفكار ويسدل النصائح، ينتقد برفق، ويشجع، ويهتم ويحاور، كان إنسانا متسامحا، فعالا في مجتمعه، ملهما لشبابه، ولأنه عاش بمعنى هذه العبارة أيضا في حياته وطبقها في نفسه جاء من سيكمل المشوار بعده ويواصل التحدي لئلا تموت روح الأمل في ضمائر اليائسين والمحبطين والبائسين.

الحلم العظيم لا يموت، والفكرة القيمة أيضا لا تموت، و"الأفكار لا تموت بموت أصحابها" كما تقول الحكمة، تأبى أن يطويها الزمان عبر صفحاته الغابرة، تظل عنيدة في وجه تقلباته المتتالية كعناد أصاحبها وهم أحياء، تعيش صامدة صمود الجبال الراسيات أمام التغيرات المُناخية وأمام مختلف التحديات، من قال أن الحلم يرحل برحيل صاحبه فهو لم يحلم يوما حلما كبيرا يقف على رجليه، ها هي البذرة المطمورة في التربة "جريدة انجمينا الجديدة" التي غرسها عميد الصحافة العربية خلال عقد من الزمان تشق طريقها إلى الأفق، تخرج من التراب بثبات وعزيمة، تمد فروعها واوراقها للهواء والضوء وكأنه يؤمن بحكمة العجوز: "غرس السابقون فأكلنا ونغرس ليأكل اللاحقون"، شجرته باسقة تمنح كل فرد الحق ذاته في الجلوس لأن القضية واحدة، والحلم واحد "لا قبلية ولا جهوية أمة واحدة تشادية"، "ارفعوا تهميش لغتنا العربية عن دوائر بلدنا الرسمية"، لقد غرس

الأستاذ آدم حلمه شجرة استظل بظلها ثم غادر، شجرة تركها ليلتقط فيها الأنفاس كل مسافر إلى دوحة اللغة العربية.

لم يكن هذا الحلم مجرد شعار كما يبدو للناظر، أو كما فعل الكثيرون غيره باتخاذ عبارات منمقة خاوية المضامين، بل كانت أفعالا حية تعبر عن رجل بقدر التحديات الجسيمة، تسير معه أينما سار و اتجه، وأينما حل، لم يكن رجلا متعرجا متلونا كما يفعله بعضنا بل كان واضحا شفافا، رجل لا نختلف أبدا محبين وكارهين في أنه مكافح، لا نختلف بتاتاً في أن طموحه كبير، ونضاله أكبر، كانت عزيمته تناطح السحاب، وان بدا نحيل الجسم وضعيف القوام؛ إلا انه لم يكن يوما ضعيف الإرادة، كان يدرك بأن تغيير المجتمع يبدأ بتغيير الذات، ولذلك لم يدخر جهدا في سبيل إصلاح نفسه، لم يكن يوما خمولا بائسا يائسا، كان يتنفس أملا وثقة بالله عز وجل، يتنفس تحديا للعمل ولجسمه أولا، فقد تعرض لآفات مرضية مزمنة وعمليات جراحية لو تعرض لبعضها أحد المحبطين لبقي طوال سنين ينعي حظه العاثر، أو يبرهن ضعف إرادته بها إن لم يعش بقية عمره مستسلما بسببها. رجل لو وضع ما به من إرادة صلبة في كفة وإرادة كثير من الشباب في كفة أخرى لرجحت كفته على كفتهم، كم مرة سألت فيها نفسي حينما أجلس معه عن مستوى إرادتنا في التغيير كشباب، عن مستوى طموحاتنا وكفاحنا مقارنة بطموحه وكفاحه، وجدت أن الرجل بهذا لم يتحدى الصعاب فقط بل تحد الشباب في عزيمته وكفاحه، أعطانا درسا في الصمود والثبات والتضحية من أجل الفكرة والاعتقاد، انظر كم مشروع بدأه أحدنا وتركه، كم مرة التزمنا بواجباتنا، كم مرة أصبحنا قدوة لغيرنا، كم مرة صارحنا أنفسها بهذا الفتور والرغبة إلى الراحة والتملك دون تعب، مع كثرة التمني والتفاؤل بالانتقال إلى الأفضل؟

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

(٢)

عندما كان يأتي إلينا بدراجته الهوائية بثانوية الملك فيصل ليبيع المطبوعات العربية داخل أسوار الثانوية، كان يشجعنا لاقتناء نسخة من هذه الصحيفة أو تلك، ويستخدم كل ما بوسعه من أسلوب لبق وكلمات مؤثرة يلفت بها أنظارنا لإلقاء نظرة في الجرائد على الأقل إن لم نشتري، وكنا نستغرب من صبره وتجلده في مواصلة بيع مطبوعات بأسعار زهيدة، نسأل باستمرار عن الهدف من وراء هذه التجارة -غير المربحة- حيث كنا نعدها كذلك ونقيسها بالمادة آنذاك، لم نكن ندري بأنها ليست تجارة كاسدة كما نظن ولم نكن ندري أننا أمام رجل صاحب قضية يبذل كلما بوسعه لأجل أن تعيش فكرته التي يناضل من أجلها.

أي فكرة يناضل من أجلها الرجل لم نفهم فحواها في ذلك الوقت؟ إلى أن اتضح لي بالذات بعد التخرج ما كان يرمي إليه، كانت قضية اللغة العربية التي جسدها في رسالته الصحفية السامية، قضية كبيرة أراد من خلالها أن يثبت أن هناك من يبذل عمره في سبيلها حتى آخر لحظة، كما أراد أن يثبت أن هناك من يعيش حياته كلها ويفنيها من أجل فكرة واحدة فقط وضعها نصب عينيه يناضل من أجلها حتى الرمق الأخير.

آمن -عميد الصحافة العربية المكتوبة كما يطلق عليه- بفكرته فعاش من أجلها، وضحى من أجلها، ومات مستريحا - بإذن الله- بعد أن رأي فكرته تحلق في فضاء الصحافة الحرة بكل أناقة وتواضع، حيث أضحت "انجمينا الجديدة" اليوم الرقم الأصعب في سجلات الصحافة العربية المكتوبة في تشاد، الأكثر انتشارا وتوسعا وثباتا، الأكثر إثارة وتثقيفا، والأكثر عنادا في مواجهة الصعاب، الأرسخ قدما في "بلاط صاحبة الجلالة" أي الصحافة كما يطلق عليها في دول الشرق والغرب.

هذه المكانة الكبيرة التي احتلتها الجريدة في قلوب مثقفي اللغة العربية وخدمتها لقضية الهُوية الوطنية؛ ما كان لها أن تتحقق لولا الكفاح المستمر الذي أقدم عليه الرجل،

المستمد من روحه القوية، المقتطع من صحته المتدهورة ومن عزيمته الصلبة في إرادة التغيير ودفع عجلة الصحافة العربية إلى الأمام.

(٣)

برحيل الأستاذ آدم عبد الله محمد فضل فقدت الصحافة الوطنية قطبا كبيرا من أقطابها، وابنا بارا من أبناء اللغة العربية الذين ما فتئوا ينصرونها ويقفون بجانبها، كان آدم أيقونة من أيقونات الصحافة المحلية، وبطلا من أبطالها المخلصين الملثمين الممتلئين طموحا وتحديا، لقد أثبت أن القلم بإمكانه أن يقف أمام البندقية بل ويهزمها ويتفوق عليها، سلاح القلم لا يقهر ولا يقاوم، انه سلاح فتاك وأكثر انتشارا من غيره كلما كان يحمل في حبره الحقيقة، يجب أن يفهم المعتدين والمستبدين والذين يقفون حجر عثرة أمام الصحافة وأمام اللغة العربية أن كلمة الحق باقية وأن نارها لا تخمد، وان اعتقل أحد أصاحبها أو رحل، وهذا ما أراد أن يجسده الرجل في مواجهة الباطل والزيف من خلال بحثه الدائم عن الحقيقة، عبر التغطية الصحفية والمقابلات أو التحقيقات والمقالات ليقدمها للمواطن ولزيادة وعيه وتثقيفه ليكون قادرا على أن يفرق بين الغث والسمين، وبين الحق والباطل.

كان يدرك مخاطر الصحافة جيدا وصعوبتها في بيئة لا تعي أي دور لصاحبة الجلالة بل وتقف أمامها بالمرصاد؛ ومع ذلك كان يكرر كلما لاقيته "الصحافة مهنة الاستمتاع" على الرغم من المقولة الشائعة لدينا "الصحافة مهنة المتاعب" فحقا إنها مهنة الاستمتاع بتقديم الحقائق للآخرين، الاستمتاع بكشف الزيف والباطل، الاستمتاع بخدمة المجتمع، وكذلك الاستمتاع بالعطاء المتدفق.

(٤)

ما لا أنساه بتاتا تشجيعه لكتاباتي وانتقادي وهو أمر نادرا ما تجده عند أحد، خاصة في وسطنا المعروف بالوسط "العربفوني" حيث لا تجد من يصحح لك وينتقدك برفق أو

يحفزك عندما تصيب، بل تجد من يثبطك ويعاديك باذلا كل جهوده في سبيل عرقلتك، فليت بعض كبار العقول تعلموا من هذا الرجل قبلنا، وليتنا سرنا على هذا النهج المضيء كشباب.

اليوم، آن الأوان للبطل أن يستريح، أن يوقف قطاره عن المسير، وأن يترجل من وعثاء سفر لم يكن سهلا في كل مراحله، وأن يتوقف نزيف المرض والتعب اللذين انحلا جسده "القوي" "الضيف"، سفر طويل لم يذق فيه حلاوة النوم والراحة فهكذا دأبُ الكبار والعظماء يرحلون، تاركين فكرا لا يقاوم، وقيما لا تهزم، يلوحون لنا من بعيد ولسان حالهم: (نحني للريح ولكننا لا ننكسر).

عشق المهنة

كثيرون دخلوا مهنة التعليم بالصدفة، نظراً لضيق فرص التوظيف في المجالات الأخرى في الدولة، فكان التعليم بمثابة البوابة الرئيسية لهم للدخول في الوظيفة العامة، ولذلك لم يضيفوا شيئاً، وكان بعضهم عبئا على هذه المهنة النبيلة: مهنة التدريس.

لكن الأستاذ نذير الطري إبراهيم الرجل الذي عشق مهنته بصدق، هو كالبذرة السليمة أينما غرست نمت وأفادت بثمارها وظلالها فالأصل غلاب. قلما تجد مدرس مثل هذا الرجل الذي تعلمت منه بصدق الكثير والكثير، ومن أكثر الأشخاص الذين أثروا في عندما كنا ندرس معا في ثانوية البنات العربية بأم رقيبة بالعاصمة انجمينا من عام ٢٠١٢ وحتى عام ٢٠١٧ والتي خلدنا فيها مع العديد من الزملاء الكثير من الذكريات الجميلة.

كان شديد الإهتمام بواجباته، ولكن من أهم مميزاته عن الآخرين هو أن لديه قدرة كبيرة على تحريك المؤسسة بالأنشطة اللا صفية أو كما تعرف ب"الأنشطة الثقافية" رغم التحديات التنظيمية والإدارية والدراسية والمادية، كان يكتشف المواهب ويعدها إعدادا صحيحاً، ويحافظ من خلال قيادته للإشراف على أنشطة إتحاد طالبات ثانوية البنات رفقة بعض المعلمين والإداريين على أصالة المجتمع وقيمه الفاضلة بدءاً من أواصر الأخوة والوحدة الوطنية والمحبة وانتهاء بنبذ السلوكيات المنحرفة ومحاربتها، حيث عادت المؤسسة بالعديد من الجوائز أهمها إحراز الثانوية المرتبة الأولى في المسابقات بين المدارس والتي نظمها الاتحاد العام لمؤسسات دعم اللغة العربية في تشاد، وكان نذير هو الجندي الأول وربان سفينة هذا العمل الجماعي الجميل. مثلما كان حريصاً على تدريس مادة الأدب بشكلها العلمي الصحيح حيث تخصصه اللغة العربية.

نذير الطري إبراهيم من ناحية أخرى هو أديب من الطراز الرفيع لا يشق له غبار وإن لم يظهر على الساحة الثقافية، له ذاكرة ملهمة وسريعة، يقول الشعر في مناسبات كثيرة

بكل عفوية وتلقائية ولو كان مهتما بإخراج ما يكتبه لطبع دواوين من الشعر السلس الأنيق السهل الممتنع. كنت قد تبرعت له في عام ٢٠١٧ بجمع أشعاره التي يكتبها ويتركها مبعثرة هنا وهناك علنا نستطيع تجميعها وإخراجها في ديوان إلى الساحة الثقافية، وقد بدأت بذلك فعلاً ولكن للأسف بعد سفري إلى تونس توقف ذلك حيث مكثت سنوات خارج البلاد ولا أدري الآن إن كان يجمعها أم لا؟

لم تقف علاقتنا هنا، بل جمعتنا مع الأخ والزميل الطري مناسبات عديدة: منها إذاعة البيان في عام ٢٠١٢ عندما بدأت العمل في الحقل الإعلامي بالتوازي مع عملي في التدريس، كان نذير من أبرز الأشخاص الذين قدموا لي الدعم والنصح والإرشاد وقدموا الكثير لهذه المؤسسة، وكان لنا شرف التدريب والعمل معهم هو وأمثاله من الزملاء –من دون ذكر الأسماء لأن القائمة تطول– والذين نكن لهم كل التقدير والوفاء، في واحدة من أفضل وسائل الإعلام في البلاد على الإطلاق، بل الراديو الأول في الجمهورية بما يقدمه من باقات متنوعة من البرامج والأخبار وباحترافية ومهنية عالية قل نظيرها، بما يمتلكه من شباب وشابات مؤهلين طموحين ذاع صيتهم حيث أثبتوا وجودهم في الساحة الإعلامية الوطنية وما زالت آثارهم باقية إلى الآن، "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا".

الطري شخص بسيط، متواضع، بشوش، واسع الأخلاق لدرجة لن تتصورها أبدا، ينأ بنفسه عن التجاذبات الجانبية، لن تجده في خصومة مع أحد، رغم أحيانا التنافس المهني وطبيعة الإنسان التي بها الطمع والأنانية والتكبر والحسد مثلما بها الخير والتعاون والإحسان، بل تجده دائما ساعيا للإصلاح بين المتخاصمين من الزملاء ومحاولة رأب الصدأ، وقد يكون هو الشخص الوحيد في كل المؤسسات التي عملنا معه سويا لا يختلف عليه اثنان في نبل أخلاقه واعتدال سلوكه ويحظى بتقدير الغالبية. من الصعب جداً أن تجد صفات حميدة كثيرة تنطبق على شخص واحد ومقرونة بالكفاءة والإتقان في العمل؟ ولكن ذلك ينطبق حرفياً على هذا الرجل المتفاني المعطاة.

على وزارة التربية الوطنية وترقية المواطنة Ministère de l'Education Nationale et de la Promotion Civique تكريم هذا المعلم النبيل الذي قدم الكثير من الإضافة لهذه المهنة وهو ما يظل أثره عالقاً في أذهان الأجيال فكلنا يتذكر إلى الآن بعض أساتذته بسبب تأثيرهم عليه بينما لا نتذكر الكثيرون منهم، عمل جليل بحق خال من التكبر والغرور والرياء، حيث الاهتمام فقط بتخريج الأجيال وإصلاحهم من أجل إصلاح المجتمع ورقيه.

إن الكرام وإن ضاقت معيشتهم
دامت فضيلتهم والأصل غلاب
لله در أناس أينما ذُكروا
تطيب سيرتهم حتى وإن غابوا
ورُب مكرمة جمعت شمائلهم
صارت لنا غيثا يسري وينساب
لا يعرفون الشر قيد أنملة
همْ دائما وأبدا للخير أسباب
فى قلب من يلقون تلقى محبتهم
وهم لكل الخلق صحب وأحباب
أولئك الأخيار قد طابت منازلهم
ميراثهم دائما خُلُق وآداب.

خطف الأضواء

سطع نجم الأكاديمي المحاضر بكلية العلوم القانونية والسياسية بجامعة انجمينا البروفيسور أحمد محمد حسن، كمحلل سياسي ومُنظر قانوني في الآونة الأخيرة، قبل أن يعتلي في الخامس من فبراير ٢٠١٧م منصب وزير العدل حامي الأختام المكلف بحقوق الإنسان في حكومة باهيمي باتاكي ألبير.

ظهر الرجل بقوة من خلال الاستضافة المتكررة له عبر الفضائية التشادية، فاستغل الفرصة جيدا، ووظف مهاراته في إقناع الكثيرين بآرائه وقناعاته السياسية، من خلال قدرته على تحليل المعلومات الراهنة وربطها بالقضايا التاريخية والتطلعات المستقبلية.. أبهر المتابعين من خلال التحدث باللغتين العربية والفرنسية، وبطاقته وحيويته الزائدة التي ساهمت جميعها في جذب الجماهير إليه، وليس هذا بالغريب عليه فهو أستاذ جامعي مؤهل، استطاع أن يكسر الحاجز الذي يسير عليه الأكاديميون غالبا حيث لا يتجاوزون التنظير في قاعات الدراسة ويكتفون فقط بمحاولة إقناع الطلبة بتوجهاتهم، وآرائهم، وقناعاتهم السياسية، ايجابية كانت مع النظام أم سلبية.

أما فهو فانتقل إلى فضاء أوسع وأرحب، فضاء الإعلام، ليخطف الأنظار والأضواء في الميدان الذي يفتقد للكثيرين من أمثاله، ميدان خال بمعنى الكلمة، يعبث فيه أصحاب البيانات الصحفية المليئة بالشجب والاستنكار، والمُملة من التطبيل والمساندة، ميدان فقد أناس جديرون به، متخصصون في مجالات مختلفة علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها من القضايا التي تؤرق حياة المواطن اليومية، نجد أن البلد ما زال فقيرا من حيث تكوين المحللين في مختلف المجالات، فكبرى قضايانا الوطنية والهامة تمر بلا قراءة جيدة، وبلا استنتاج جيد، حتى قرار ترامب المسيء لسمعتنا والذي وضعنا من خلاله في القائمة السوداء ضمن الدول المحظور مواطنيها من دخول الولايات المتحدة الأمريكية في عام

٢٠١٧م، مرً هو الآخر دون تحليل دقيق ومنطقي.

فقدان رجال التخصص سمح لأناس من الشارع يتخبطون في الحديث عن المشكلات الوطنية ويتصدرون الميدان دون معرفة ودون خبرة، بل ويساهمون في قيادة البلد إلى الحضيض والى حافة الانهيار، خاصة بعد عزوف الكثير من الأكاديميين عن الدخول في عالم السياسة، أو انعزال البعض من المشاركة الفاعلة ومن الظهور في الإعلام، سار أحمد إذا على نهج يقارب نهج الأكاديميين والمُنظرين الكبار والمحللين القديرين من أمثال علي عبد الرحمن حقار، وأحمد جدة محمد، ومحمد صالح أيوب، وقالي انقوتي، وكاسيري كوموكاي وغيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم في مختلف المجالات وهم قلة، رغم الاختلافات بينهم في التخصصات والتوجهات والرؤى السياسية المساندة أو المعارضة أو الواقفين على الحياد تجاه ما ينتهجه الرئيس إدريس ديبي اتنو في تسيير البلاد.

وبينما يعتبر البعض البروفيسور المستشار القانوني السابق لرئيس الجمعية الوطنية مُطبلا لا يختلف عن بقية المُطبلين المدنيين، إلا أن المحاضر الجامعي أثبت بأنه يُنظر عن دراية ومعرفة، وليس بناء على العشوائية والعاطفة التي تملأ الساحة ضجيجا بلا فائدة، فكان بارعا في التنظير، ولكنه تنظير يقارب الواقعية، بحكم أنه يُنظر في مجاله ومُلم بكثير من مواضيع تخصصه، ما أكسبه الثقة في التحدث بهذه النبرة السريعة التي ألفها، وسهَّل له القبول والإعجاب من المتابعين، وهي تقريبا من العوامل المشابهة التي مكنت المُنظرين الكبار من تواجد أسمائهم في الميدان.

لم يكسب أحمد ثقة المتابعين وحدهم، بل كسب ثقة رئيس الجمهورية من خلال تحليله الايجابي لسياسته، وبتبريره لبعض التصرفات وتقريبها للصواب.. تحليلاته تظل عالقة في أذهان المتابعين، ويتذكر الكثيرون منا يوم التنصيب وحديثه المستفيض عن خطاب رئيس الجمهورية، وعن جرعات التفاؤل والأمل التي يبثها للمواطنين بالولاية الجديدة، وعن مدى اختلافها عن بقية الولايات الأربعة الماضية، فكان يُحلق عاليا بأحلام المواطنين

ويُقرنها بهذه الولاية الجديدة، من خلال التلاعب بتلك الأحلام المتأرجحة ورفع سقفها عاليا وإعطاءها الصورة الوردية القريبة من التحقيق قبل أن ترتطم بأرض الواقع.

كنا وقتئذ في قاعة الاحتفال بفندق راديسون بلو حينما كان يُنظر عبر التلفزيون الوطني الذي نقل الحدث مباشرة، حتى أن الرجل أراح مقدمي البرنامج في التلفزيون من إمكانية البحث عن محلل آخر يحيط بقدر من المعلومات عن القضايا الراهنة ويتحدث بالعربية والفرنسية، فلم يتوانوا عن محاورته للحديث باللغتين في نفس الوقت، وفي نفس الموضوع.

التحليلات المتتالية لأحمد محمد حسن قادته إلى وزارة العدل، الوزارة الغارقة في بحر من الفساد، والمتشعبة من الشبكات المُضيعة لحقوق المظلومين والمقهورين من البسطاء وعامة الناس على حساب أصحاب النفوذ، والعابثة بحقوق وممتلكات المواطنين في الأرياف والمدن، حتى الرجل لم ينكر بأن المواطنين قد فقدوا الثقة في القضاء بفعل هذا الفساد، وصرح أكثر من مرة بأنه جاء لإصلاح هذا الجهاز الهام ولرد الاعتبار له، ولم يتوقف تعيينه هنا، بل تم وضعه نائبا لرئيس اللجنة الفنية المكلفة بإعداد التقرير النهائي لمشروع هيكلة مؤسسات الدولة الذي وعد به مرشح التحالف خلال الحملة الانتخابية الأخيرة.

حدس الكثيرون بأن الرجل سيعتلي إحدى الوزارات تحقق، وهو حدس لم يذهب بعيدا بالنظر إلى أن من عادة الحاكم أن يضع المُنظرين له في مناصب مكافأة لهم، المهم وقبل أن يكون وزيرا، تمنيت أن يحظى مع غيره من المحللين بعناية خاصة من الدولة، أن تبعثهم إلى أرقى جامعات العالم، في أوروبا أو أمريكيا، لكي يزيدوا من قدراتهم التحليلية واكتساب مهارات وأفكار وقناعات جديدة تمكنهم من تطوير ذواتهم في مجالاتهم لكي تستفيد منهم البلاد بشكل أفضل.

تمنيت أن تفتح البلاد مراكز عملاقة للدراسات وتأهيل المحللين في مختلف المجالات

وأن يتولى أمثال أحمد إدارة مثل هذه المشاريع الهامة، يتدرب على أيديهم الناشئة، وينهلوا من أحدث وسائل التحليل العالمية ما يُوفق البلاد في توجيهها إلى دفة أخرى أكثر حكمة ورجاحة من هذا التخبط الذي تسير عليه حاليا، الاهتمام بالباحثين والمحللين ضرورة لا مناص منها، فقرارات الدول تُبنى على الدراسات المستقبلية، والتحليلات المنطقية، والبحوث العلمية المُحكمة، وتعزيز دور الباحثين في التعليم العالي، وإنشاء مراكز دراسات متطورة ومواكبة للعصر، تحافظ على الهُوية الوطنية وتقدم الحلول المستقبلية لقضايا الفساد، والجهل، والفقر، والمرض وغيرها..

لا يمكن لأي بلد من البلدان أن يكون مُستقلا في توجهاته متطورا في مختلف مجالاته ما لم يهتم بالبحث والباحثين والمحللين، وهو أمر بديهي، وهام، سيما في وقت تتسابق فيه الدول إلى انجاز المشاريع المستقبلية العملاقة، من خلال الاعتماد على الدراسات الفاعلة التي تصدر من المراكز المرموقة ومن كبار المحللين، وعبر تعزيز ريادة التعليم وعصرنته، وتمكين المعلمين والباحثين في التعليم العالي من عملهم، وسن قوانين جديدة، لاتخاذ قرارات صائبة تفتح فرصا للتقدم في كافة المجالات، وتسهل مهمة إثبات الذات والاستقلالية وسط المنافسات الإقليمية والدولية الشرسة.

زيارة الشعبوية

زارت المرشحة القوية للإنتخابات الرئاسية الفرنسية زعيمة "الجبهة الوطنية" ذات التوجه اليميني المتطرف مارين لوبين، العاصمة التشادية إنجمينا في الحادي والعشرين من مارس ٢٠١٧، في إطار حملتها الانتخابية من أجل كسب أصوات الجنود الفرنسيين المتواجدين على الأراضي التشادية وخاصة في قاعدة "برخان"، وقد خسرت لوبين السباق بفوز إيمانويل ماكرون في عام ٢٠١٧م.

لوبين التي أزاحت والدها من زعامة حزب الجبهة الوطنية وحلت محله ودخلت معه في مشادات قضائية صارت أكثر تشددا من خلال إتباعها لسياسة عنصرية بدأت تتنامى في العالم وخاصة في أوروبا وأمريكا، سياسة معادية لثقافة التعايش وهجرة الآخر، تتوجس من أصحاب بشرة معينة ومن المسلمين والإسلام عموما، وتحاول ربط الإرهاب به، مع أن الإسلام منه براء، أفكار مثل هذه الحركات لا تقل بشاعة وخطورة عن أفكار داعش وبوكو حرام، أفكار القتل والدمار والخراب فتسهم في خلق بيئة حاضنة أكثر للإجرام. ينتهج حزب لوبين أيضا سياسة ترحيل الأجانب، ويتضمن برنامجها الانتخابي إلغاء التعليم المجاني لهم وللأسر الضعيفة من الأصول غير الفرنسية فضلا عن حزمة من الإجراءات المعادية التي تطمح في تحقيقها في حال فوزها بكرسي الرئاسة في الانتخابات الرئاسية بالتي نظمت في ٣٢ أبريل ٢٠١٧، وهو ما يعد انتكاسة لقيم الجمهورية الفرنسية في حال حدث ذلك، بل ضرب لليبرالية الفرنسية، في وقت هزم فيه دونالد ترمب ذو المرجعية الشعبوية عند فوزه برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عن الحرب الجمهوري مرشحة الحزب الديمقراطي هيلاري كيلنتون بعد منافسة شرسة، وقبل ذلك فاز دعاة الانفصال في بريطانيا الذين خاطروا بـ"لندن" كواحدة من أكبر العواصم المالية العالمية وإخراجها من الاتحاد الأوروبي إلى المجهول. كل ذلك يدل على أن الفكر العنصري

الشعبوي في مرحلة تنامي عالميا، حتى أشار بعض الكتاب إلى أن انتخاب لوبين هو انتخاب للعنصرية بعينها مثل انتخاب ترمب، وفوزها هو فوز للعنصرية ذاتها.

لا يتردد البعض في وصفها بأنها أخطر من ترامب نفسه، واعتبارها تتفوق عليه من حيث التطرف نظرا للأفكار التي تجاهر بها، قالتها بكل وضوح" لا نريد أناسا آخرين هذا يكفي، البيت بيتنا ونحن من يمتلكه ".

من جهة أخرى، أعتقد بأنها أتت للحفاظ على أحد أهم حلفاء بلادها المخلصين في القارة السمراء، وهو النظام الحالي (MPS) الذي يتقاسم مع فرنسا محاربة الإرهاب في دول وسط إفريقيا وفقا لتعليمات قصر الاليزيه، أما حزب الـ (UNDR) والذي يعتبر أكبر حزب معارض في البلاد فقد أحرق ورقته أمامها لو فازت بالانتخابات، بعد البيان الذي أصدره برفضه لزيارة لوبين للعاصمة انجمينا وأن توطأ قدمها الأراضي التشادية، وهي خطوة يمكن تفسيرها بأن الحزب قد يئس من الوعود الكاذبة لبعض المرشحين الفرنسيين التي يكررونها مع كل موعد انتخابي جديد، لكنه في الحقيقة لدغ مرات عديدة حيث كانوا يعدونه بالحكم ولم يوفوا بعهدهم ففضل المعاداة الصريحة هذه المرة بدلا من المغازلة كما كان يفعله سابقا، وفي أحسن الأحوال يمكن أن تفسر هذه الخطوة بأنها انحيازا للمبدأ وهزيمة للمصلحة السياسية، في وقت أشارت فيه بعض الصحف إلى حالة التوتر بين زعيمة اليمين المتطرف ووزير الدفاع الفرنسي الذي رفض مرافقة الصحفيين لها في أثناء زيارتها لقاعدة برخان العسكرية، وهو ما يفسر تخوف الوزير من كشف بعض الأسرار التي تجري داخل القاعدة العسكرية في تشاد والتي لا نعلم عنها الكثير، سوى أنها وجدت لمحاربة الإرهاب وتمكين النظام الحاكم.

عموما، ندرك كغيرنا من المتابعين خطورة ما تقوم به الحركات الشعبوية في أوروبا وأمريكا في ظل تنامي الخلط المقصود بين الإرهاب والإسلام، ومحاولة الترويج لذلك بكل الوسائل، بل بدفع المجتمعات والعالم كله إلى تبني هذا الفكر الشاذ المعادي للقيم

الإنسانية النبيلة والإرث الإنساني الحضاري المشترك، فصعود موجة الأفكار الهدامة تقود العالم والإنسانية أجمع بلا شك إلى عصر الظلام مرة أخرى، حيث تنوع أشكال العنصرية والتضييق على عناصر الاختلاف خارج الأطر القانونية. وبما أن مارين لوبين من كبار قادة التشدد والشعبوية ليس في فرنسا أو أوروبا فقط، بل في العالم كله، وفي أرضنا التي نتعايش فيها بسلام وندعو إلى التعايش السلمي والترويج لثقافة الاختلاف وقبول الآخر، نقول: لا أهلا ولا مرحبا مارين لوبين فلسنا من دعاة العنصرية.

اغتيال الأدمغة

السابع عشر من نوفمبر ١٩١٧، الى السابع عشر من نوفمبر ٢٠١٧م، قرن من الزمان بالضبط مر على تلك المذبحة البشعة التي أفاق عليها أسلافنا (مذبحة الكبكب أو الساطور حيث قتل عدد كبير من الأئمة والدعاة والعلماء على أيدي الطغاة الفرنسيين المحتلين) ارتكبها المستعمر بحقهم، وبحق هذا البلد الجميل، وشعبه المكافح، في محاولته السيطرة على هذه الأرض التي تتدفق فيها مختلف الثروات الغالية والنفيسة.

كان الجنود الفرنسيون يعرفون تماما بأنه لا يمكنهم التحكم في بلد يتخذ أهله من القرآن والإيمان سلاحا فتاكا ضد أعدائه، ومصدرا ملهما لتوجيه سكانه في التمسك بحقهم في الحياة بحرية في معتقداتهم وقناعاتهم وسبل عيشهم، وتدريس هذه القناعات للأجيال المتعاقبة، فكانوا يدركون بأن مجتمعا كهذا لن يقع في قبضتهم بسهولة، كان لابد لهم من ارتكاب هذه الجريمة البشعة حتى يضعوا أجندتهم موضع التطبيق، وأن يعيثوا في الأرض فسادا، يقتلوا الرجال ويسبوا النساء ويكثروا من الأيتام، وينهبوا الثروات..

وللقيام بذلك كان لابد من التخلص من أولئك القادة العلماء، وأي قادة، إنهم ليسوا كالقادة الذين يبيعون دولتهم لفرنسا والتدخلات الخارجية بملئ إرادتهم، بخيانتهم للوطن والأمة، ليسوا قادة يعرفون الحق من الباطل ثم يرتمون في أحضان الباطل من أجل مصالحهم الشخصية، ليسوا من القادة الذين تهمهم فقط مقاليد السلطة وبزخ العيش لأهاليهم ومساعديهم، والتنكيل بمخالفيهم، ليسوا قادة يسمحون لفرنسا بأن تشتري ضمائرهم وأراضيهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها،، قادة يجعلون لها الحق في أن تقبع في أي بقعة تختارها من الأماكن الحيوية بالبلاد لتصبح رهينة لها، بل ملكا لها، وفي قبضتها، لكي تدير قصرنا الرئاسي من تلك القواعد العسكرية التي كانت جاثمة عليها منذ أن استطاعت إخضاع هذا البلد الأبي لصالحها.

لقد أدرك المستعمر تماما أن القادة الذين يريد اغتيالهم لا ينتمون إلى هذا الصنف من الزعماء المفسدين، بل إنهم في الخط الأخر، الخط المفارق لأجندتهم تماما، ولذلك أبطش بهم باستخدام الكبكب فقطف الأدمغة واغتالها، هؤلاء القادة هم زعماء الإصلاح والخير، والفكر المستنير، والتوجيه السديد، وصدق من قال: إذا أردتم أن تهدموا أمة فاهدموا معتقدها أولا، فإن لم تستطيعوا فأهدروا دماء قادتها واجعلوهم جثثا تكتب للتاريخ فقط، لأنه وقتها لا يمكن للناشئة أن تقتفي أثر هؤلاء المصلحين الا نادرا،، هذا ما يحصل اليوم معنا بالضبط، وجدنا أنفسنا بلا هوية تمثلنا وتجمعنا، وجدناها بهوية منسوخة في نشيد وطني لم نكتبه ودستور وقوانين ونظم فصلت على المقاس، نظم لم تنبع من محيطنا ومشكلاتنا وتطلعاتنا، بل نبعت من محيط المستعمر، والأسوأ من كل ذلك وجدنا أنفسنا بلا قادة.

لم يرد المستعمر أن يقتل الحاضر وقتها، بل أراد قتل مستقبل الأحفاد، وطمس الهوية والتاريخ، وما نعيشه اليوم من تخبط وفوضى وخيانة هو نفسه ما أراد له المستعمر أن يحصل قبل قرن من الزمان، وقام بمباركة الرؤساء، ولا يزال يحكمنا بقبضته من خلال الاستعمار الجديد، استعمار المال والاقتصاد، استعمار بعملة الفرنك سيفا، وبالنفوذ السياسي والمعرفي..

اغتيال الأدمغة بهذه الكيفية يعني اغتيال الحلم والأمل لدى الأجيال المتعاقبة، لكنهم لم يعلموا بأن تلك الجثث لم تنتهي بعد، بل غدت مصدرا للإلهام، وشرارة للانطلاق من الماضي، والإقلاع نحو المستقبل، تحييها الأجيال سنويا تنكيلا بالمستعمر وتذكيرا له بجرائمه.

اليوم، وبعد مرور مائة عام على هذه المجزرة، ينبغي أن يعلم الشهداء بأننا ما زلنا نتذكرهم كأبطال، وليسوا كأي أبطال، بل أبطال الكلمة الحرة، والفكر المستنير، والقيادة الرشيدة، مائة عام من ذكراكم، والفساد والفوضى وسفك الدماء عنواننا الأبرز، الفقر

والجوع والمرض والجهل الذي كافحتموه عبر التعليم والتوعية، هي جميعها نتيجة طبيعية لما آلت اليه الأوضاع بفعل التصرفات الفاسدة التي قام بها أيضا أبناء هذا الوطن.

التقرب من أعدائكم كان مجالا للتسابق، "الأم فرنسا" كانوا يسمونها بعدكم، وكأننا أصبحنا في غيبوبة أو فقدنا الصواب، كيف يمكن لعدو يقتل أدمغتنا، أهالينا، مستقبلنا، ثم نعود ونشبهه بالأم الحنونة لا أفهم ؟

إنها المئة الأولى من رحيلكم بكل شموخ، وبكل شرف، رحيل الأبطال الذين لا يموتون، وإن وارت أجسادهم الثرى ونخرها الدود في اللحود.. مائة عام كافية لنهوض أمة كانت ولا تزال مجروحة، هذه الأمة الضائعة يجب أن تعود إلى رشدها، إلى طريقها المستنير، طريق العلم والمعرفة والكفاح، طريق الهوية الحقيقية والانتماء، الطريق العاقل الذي يصنف الصديق صديقا، والعدو عدوا، الطريق الذي لا يخلط بين متضادين، بين الأم وبين العدو. آن الأوان لنقتفي أثركم، في العلم والإيمان والمعرفة، والعمل والإحسان، ولترقد أرواحكم الطاهرة بسلام.

المُزيفون

تعرفهم بسيماهم، يسألون الحاكم إلحافا، يلحون عليه، يستعرضون أنفسهم أمامه، مواقفهم، وآرائهم، يحشدونها له عبر شاشة صغيرة، تطالعهم صباح مساء، لا يظهرون كثيرا على الصحف أو الإذاعات، لكنك يجب أن تجهز نفسك لتتأقلم مع ظهورهم المتكرر على الشاشة.

عندما تتابع التلفزيون تصطدم بوجودهم، تلتقي بهم، شئت أم أبيت، سيكونون على موعد مع التصفيق كلما سنحت لهم الفرصة، كلما جد جديد، يملؤون الساحة ضجيجا حتى من أتفه الأحداث، إنهم لا يقرؤون، لا يخططون إلا للظهور، ولا يعملون إلا البيانات الصحفية المساندة؟

ملأى السنابل تنحني بتواضع ... والفارغات رؤوسهن شوامخ

المزيفون الجدد جاهزون للظهور في أي وقت، يترقبون الأحداث عن كثب، لا يصنعونها، بل يستغلونها وسيلة للاسترزاق، وسيلة للتطفل، ووسيلة للترقي، بل الأصح وسيلة للترمم على فضلات النظام، هؤلاء خطرون، يُسوقون القضايا الوطنية، يُزيفون الحقائق، ويعملون على تشويشها للآخرين، يتمادَون، يُزيفون قضايا لا تحتمل التزوير، يُهندسونها للحاكم ليتكرم عليهم بقطعة من لحم أو قطعة من خبز، عفوا قطعة من منصب، فماذا يفعلون بعدها، يقومون بما قام به الأولون والحاضرون: السرقة لملء الخزائن والبيوت، النهب المنظم، التزييف للحقائق، إضعاف المواطن وسلب الحقوق، وتضييع الفرص والخدمات، فلا يتركون للآخر شيئا..

تريد منصبا رفيعا؟

دعني أحدثك، تَجوَّل في أروقة مكتب النظام لتتطفل على المائدة أو قم بإنشاء جمعية

مدنية لهذا الهدف، يمكنك أن تراقب الأحداث بشغف، لتعبر عن سخطك مما سخط منه صاحب القصر، أو عبر عن فرحتك حينما يفرح، لا تحاول أن تختلف معه بتاتا، وأنصحك بالإكثار من الأحاديث الصحفية، ومن بيانات المساندة والتأييد لهذا القرار أو ذاك، أكثر من بيانات الانتقاد للمعارضة، صفهم بأبشع الصفات، بعديمي الوطنية، وفي أحسن الأحوال بالسياسيين الذين يصطادون في الماء العكر؟

أو أسس حزبا سياسيا في شنطتك لتتسوق به في كل مكان، وأنصحك بما هو معتاد، بأن تبدأ معارضا، ليس معارضا عاديا، بل معارضا شرسا، انتقد الحاكم، والنظام، انتقد الأوضاع، الموظفين الفاسدين، الأموال المنهوبة، والإدارة الفاشلة، والخدمات الرديئة، والسياسة التقشفية، ومؤتمري المانحين بباريس وأبو ظبي، وأربطها جميعا في عنق الحاكم، انتقد المعارضة نفسها، لا تقف معها بداية، وانتقد كل شيء من باب خالف تظهر، بعد ذلك يستدعونك ليعرفون من أنت، ومن هو خلفك، ثم تُدعي إلى الانضمام، أرفض أولا، دعهم يزيدون المبلغ، فأنت لا تمتلك سيارة ولا منزلا، وبعدما تتحقق المساومة انضم إلى ما تصبو إليه، إلى التزييف، إلى الكعكة التي تقسم سنويا، والى الهدايا والهبات والكرم والسخاء من صاحب القصر.

استعرض قواك بداية، الفكرية إن وجدت، تقرب إليه ليس من خلال كفاءاتك، وعملك، بل بعويلك، بتصفيقك المستمر، كتب زميلي علي بشر آدم "طبل وارتقِ"، لكني أقول لك "زيِف وارتقِ" ولا حرج عليك، فالساحة تعج بأكثر منك.

المزيفون كثيرون كيف نتعامل معهم؟، وعلى مدى طول العالم وعرضه، دول وأنظمة تمارس التزييف، هيئات ومنظمات، مسؤولين وعاديين، يمارسون التزييف للحقائق، ابتلي العالم بهم، وبخاصة إفريقيا والعالم العربي والإسلامي، إنهم ينشؤون تحت البزة العسكرية، فيعدونها شرف للانتماء، لكنهم انسلخوا من المدنية ولم يلحقوا بالعسكرية فعلقوا بين الاثنين، ينتشرون تحت الاستبداد تحت التسلط، حيث لا أحد يحق له الحديث

أمامهم، وهنا تأتي التنمية البشرية لتقول لأحدهم (كن منصتا بارعا)، لا أحد يحق له التكلم وسط أجواء العسكر، إلا المطبل، أمام النجوم المزركشة الكثيرة والقليلة، لا يمكنك الحياد، لا يمكنك السباحة عكس التيار، وجب عليك إذا الرضوخ في هذا المقام، وحدهم الأذكياء ينسحبون بالمكاسب، ينسحبون بالفضلات بعد إرضاء العسكر، لا تكن ذكيا هنا، فالذكاء يعني التطبيل، التزييف المتجدد، لتخنق الأحلام وقتلها، أحلام الصبية خريجي الجامعات أنت تغلق عليهم الطرقات بهذا الانحراف، وتسقطهم ضحية لهذا الانجراف.

المزيفون الجدد هم بالأصل مطبلون جدد، لم يذكر لنا الوطن عن سلفهم خلال سنوات وسنوات ولو مطبلا واحدا منهم في كتب التاريخ، ولو حصل ذلك سيستحي من حال رفاقه اليوم، لا تكن ثقيلا على الوطن بهذا الشكل، حتى لا يلفظك مستقبلا، لا تتمادى كثيرا، في تطبيلك المدني أو السياسي فهو لا يحتمل مزيدا من التجريح، هو يقطر دم الفساد المتراكم منذ فجر الاستقلال، الإدارة الفاشلة بكل المقاييس، الأموال المتلاعب بها، الفوضى المسيرة للأمور، وتبديد الثروات والطاقات المهدرة.

لا تصبح عبئا أكثر على الوطن بفعل كرسي لا تمكث عليه طويلا، الزمن لا يرحمك، إن لم تراجع مبادئك، سيطرحك في مذبلة التاريخ، هذا إن لم يكتبك مع الخائنين خاصة بعدما توهمت بأنك صرت من أنصار الوطن، عد إلى نفسك فقومها وخذ الكرسي بشرف، بعرقك، وكفاءتك، كما يفعل الشرفاء حتى لو طال بهم الزمن، أرجوك لا تصبح مزيفا آخر.

المخدرات

في إحدى الثانويات بالعاصمة، وجد المدرسون شابا في مقتبل العمر ملقى على الأرض محاطا بعدد من زملائه الذين معه في سن متقاربة، وسط مشادات كلامية بينهم وبين حارس المدرسة تدخل المدرسون وسألوا الشباب عن السبب ردوا بأنهم قد رجعوا من تلبية دعوة أحد أصدقائهم الذي أعد لهم وليمة فيها مسكرات، وأن صديقهم المرمي على الأرض قد غلبته زجاجة احتساها بمفرده، فأرادوا التخلص من آثار السُكر قبل أن يرجعوا إلى بيوت ذويهم، بعد دقائق أتوا ببعض المواد فشموها للشاب فقام على رجليه يترنح ومن ثم قادوه إلى خارج الثانوية.

قد يقول قائل إن هذه القصة عادية تحصل في بعض من البيوت والشوارع والأسواق لشباب بدأوا يفقدون السيطرة على أنفسهم بعد تجريب هذه الآفة، لكنها تحكي كيف بدأت المخدرات والمسكرات عموما تتحدى المجتمع علنا، وبغض النظر عن مسؤولية الشاب نفسه في الإقدام على هذا الفعل المدمر له وللمجتمع وعن مبرراته، فان كثيرا من الشباب وجدوا أنفسهم معزولين في الأسرة والمسجد والمدرسة، معزولين في وسائل الإعلام ومهمشين من قبل الحكومة والمجتمع برمته.

ومع صعوبات الحياة، بات دور الأسرة - لبنة المجتمع الأولى - مركزا على كيفية الحصول على لقمة العيش الكريم وتأمين الصحة والتعليم للأبناء، وهو أمر جيد، لكن كادت الأسرة بسببه أن تفقد دورها في توجيه الناشئة نحو القيم والمبادئ التي تحول غالبا دون الوقوع في مثل هذا الأمر، وجد الفتى أو الشاب نفسه إذا متروكا يواجه تحدى المتغيرات من حواليه، خاصة مع رفقاء السوء، وترويج الفضائيات للمخدرات والدعارة واعتبار ذلك شيئا عاديا بل من الثقافة والتحضر حسب زعمهم؟، وجد نفسه ضحية هذه المتغيرات من دون توجيه سديد من الأسرة ومن المساجد التي أصبحت ميادينا للمناطحة

بين الطوائف وعرضا للمسائل الخلافية بين بعض الطوائف الصوفية والسلفية وإبرازها لعامة الناس، أخذ المسجد هو الآخر دورا آخر مختلف عن واقع الحياة المعاش، وبدأ يتجه نحو حلبة أخرى غير مجدية، بل خطيرة، فخطب الجمعة باتت مركزة على الهجوم على الطرف الآخر، ولا تمس مشكلات الشباب اليومية إلا بقدر يسير، معالجة السلوكيات المنحرفة التي يشن عليها المسجد حربا شعواء لم تعد هي الأولوية في الآونة الأخيرة، بسبب أن الخلافات باتت مقدمة على أولوية الإصلاح والبناء، فأصبح الشاب هنا مرة أخرى يشعر بالعزلة أيضا،، يجب أن يكون المسجد في الطليعة، فمسؤوليته كبيرة تجاه الإصلاح وليس الاختلاف، وعلى التقرب من المشكلات اليومية التي تواجه الشباب والأخذ بأيديهم نحو الخير والتقدم، ليزداد شعاع النور الذي يبثه ويتسرب في كل زاوية من زوايا المجتمع.

المدرسة التي تمثل بوتقة علمية شامخة، لا ينبغي لها أن تكون مسرحا في فترة الإجازات أو غيرها لتعاطي أقراص وزجاجات وأكياس المخمرات، هناك مشكلة هي أن عددا من المدارس العامة جدرانها قصيرة وأبوابها مفتوحة وشبابيكها مكسورة وهذه كلها تشجع الشباب فاقدي العمل إلى تعاطي المخدرات فيها، هنا تحدي كبير أمام الإداريين ووزارة التربية الوطنية في الأخذ بمسؤولياتهم للوقوف أمام هذه الآفة الخطيرة، وبتشديد الحراسة على المدارس. ولا يمكن مطلقا أن يركز الاداريون والمعلمون على الجوانب الاكاديمية فقط، دون التطرق إلى الجوانب النفسية والوجدانية للتلاميذ ومعرفة خلفياتهم العائلية والمجتمعية، بل يجب الانتقال إلى مواجهة هذه التحديات من خلال التوجيه المستمر لهم والعمل على تمكينهم للأخذ بناصية حياتهم إلى الأفضل، وتفعيل الشراكة مع أولياء الأمور في الارتباط بالمدرسة لكي تتكاتف الجهود معا حتى لا تضرب بالتربية الإسلامية والقيم الأخلاقية التي يتعلمونها عرض الحائط، وعليه من الواجب ليس فقط إعادة مادة التربية الإسلامية في الفصول الممتحنة، بل إدخال التربية الدينية للمسلمين والمسيحيين في المدارس العامة للتخفيف من حدة المشكلة.

وسائل الإعلام التي تتفرج على مجريات الأحداث الاجتماعية المتزايدة، والمركزة عملها على التطبيل والمساندة أو المعارضة والإجحاف، لا يمكنها الاستمرار فقط في هذا الاتجاه، فحاجة المجتمع أعمق بكثير رغم أن صلاح القادة وحده كفيل بتغيير الكثير مما يعتري المجتمع من صعوبات، عليها تكثيف الجهود وانجاز تغطيات ولقاءات مستمرة وغاية في الأهمية، تضع اليد على الجرح، وتُعالج سواء بالكلمة أو الصوت أو الصورة مشكلات هذا الجيل المترنح.

يشعر الشباب اليوم بالتهميش في وسائل الإعلام خصوصا العامة منها وهو ما يتطلب إفراد برامج تلفزيونية وإذاعية وأعمدة صحفية تتلمس حاجات الشباب الحقيقية ومنها تعاطي المخدرات التي غزت المجتمع بها الفضائيات العابرة للحدود، وهنا تحدي كبير أمام الصحفيين ووسائل الإعلام المحلية في استضافة الأطباء لتوعية الشباب بمخاطر المسكرات ومعالجتها، شعور الشاب بأنه معزول وكل من حوله مشغول بعيدا عنه أمر خطير للغاية، حيث يفتح الباب أمام التسكع والإجرام والعنف، فيسهم بذلك في تعطيل الآخرين والإضرار بالمجتمع عموما فضلا عن ذاته.

حينما ترفع الحكومة شعارات مثل " تشاد التي نريد، النهضة، ومرآة إفريقيا...." لا يمكنها تحقيق هذه الطموحات من دون الموارد البشرية، فالحديث عن التنمية والتقدم في كافة المجالات والمستويات مرهون بمدى تطوير قدرات الشباب وكفاءاتهم، والاهتمام بهم لا ينبغي أن يكون شعارا سياسيا يتاجر به كل خمس سنوات ثم يتجه نحو الأفول، بل يجب أن يكون مبلورا في رؤية حقيقة طموحة، تنتشل العاطلين والضائعين من هذا الركود والكسل الذي حتما يؤدي إلى انخفاض الإنتاج وتقهقر التنمية.

وإذا كان تدخين السجائر وحده يعطل التنمية طويلة الأمد ويضر باقتصادات الدول بحسب إحصائيات منظمة الصحة العالمية، فإن تعاطي المخدرات بشتى أنواعها كفيل بتدمير الأساس الذي ترتكز عليه التنمية وهو – الإنسان – ، وازدياد هذه الممارسات

المؤسفة التي تتفاقم بين الفينة والأخرى بين أوساط الشباب تمثل تحديا صريحا وخطيرا للمجتمع برمته، وازدهارا للسوق السوداء المتفننة في جلب هذه الأقراص سرا والمتاجرة بها علنا، الحكومة ممثلة في عدد من الوزارات كالتربية، والصحة، والشباب، والشؤون الاجتماعية والوظيفة، والتجارة، والاقتصاد، والأمن، معنية بوضع إمكانياتها بسخاء أمام الشباب لمحاربة هذه الظاهرة وقطع الطريق على كل ما من شأنه أن يعيق التنمية المستدامة التي يطمح المجتمع إليها.

غدا الشباب إذا بين انشغال الأسرة، وغياب المسجد، وقصور المدرسة، ومتاجرة السلطة، وغيبوبة الإعلام، منعزلا ومتكاسلا وعاطلا ومجرما ومتمردا على المجتمع الذي شعر فيه بعدم الاحتضان.

بقي أن نشير إلى أن الشباب أنفسهم يجب أن يكونوا على قدر المسؤولية، وأن يتحملوا وزر أخطاءهم، وأن يعملوا على الإقلاع عنها، فمهما كانت المسببات التي دفعتهم لذلك فهم أصحاب القرارات النهائية في آخر المطاف، وعلى كل واحد منهم أن يختار لنفسه، بين أن يكون شابا عالة على المجتمع يقع في الأماكن العامة بسبب المخدرات، وبين شاب آخر يدرس ويعمل بتفاني من أجل رقي أمته ونهضتها.

الخرافات

شاهدت فيلم "ابدأ مرة أخرى" الذي أعده (تويدي نانا) بتمويل مشترك من قبل البرنامج المرافق لهيكلة دعم التنمية المحلية في إطار التعاون التشادي الأوروبي وبرنامج الأمم المتحدة لدعم السكان، قصة بنت الريف اليافعة (فنية إبراهيم) ضحية الزواج المبكر كما هو حال عدد واسع من الفتيات في القرى والأرياف خاصة وفي تشاد عامة، وبغض النظر عن غرض من كتب سيناريو الفيلم أو عن أهداف مموليه، فانه يحكي بلا مبالغة عن واقع معاش للأسف أظن أنه آن له الأوان أن يتوقف.

في الصباح الباكر، تجلب فنية بطلة الفيلم ذات الثالثة عشرة ربيعا الماء قبل أن تذهب الى المدرسة متأخرة كعادتها بسبب أشغالها في البيت حيث حذرها المدرس أكثر من مرة، في احدى الأيام قابلها العجوز (برمة) الذي قطع طريقها عندما كانت تجلب الماء ثم أرسل وفدا الى أبيها للزواج منها، فأخرجت من المدرسة بغرض الزواج كما تصر شرائح واسعة من الأسر على ذلك خوفا من العار؟ واعتقادا منها بأن البنت "قرايتها بيتها بالعامية، أي دراستها تزويجها"! فزوجتها الأسرة من الكهل برمة الذي يقارب عمره الثمانين عاما، لكن السؤال هو لماذا تفكر الأسرة بشرفها على حساب حياة البنت وتعريضها للخطر خوفا من الملاحقة الاجتماعية التي يمكن أن تلتصق بالأسرة جراء احتمالية تعرض فنية للعار – أي أنه ليس مؤكد بعد احتمال أن تصبح البنت عاهرة – ثم ألا يمكن أن يحتمل أن يكون أحدا من رجال أسرة فنية قد قام بفعل فاحش أي بهدر شرف الأسرة مثلا، ما دامت كلها احتمالات؟ وهل العيب فقط مقرون بالمرأة مع أنها عادة جاهلية ما زالت تسيطر على الكثيرين حتى اليوم، ولماذا لا يتم الحديث عن الولد العار أو الفاحش؟ وكأنه ملك؟ طبعا هناك اختلاف في الجنسين ومسألة الشرف مهمة ولكن حياة الانسان أغلى من الشرف؟ لا تقل لي أن الانسان من غير شرف ليس انسانا، فهو يمكن أن يرجع

ويتوب ويصلح، ثم لماذا الزواج دائما في حالة طوارئ مثل هذه القصة، لماذا لا نزوج الولد وهو قاصر؟ لماذا نعرض حياة البنات للخطر في أمر لا يطقنه تماشيا مع رغباتنا فقط؟

أعرف النقد السطحي الذي يتقنه البعض في نظرته للأمور واتهام الآخرين دون تريث، فأنا هنا لا أدعو الى الانحلال والدعارة كما أنني لا أبرر للأشخاص ولا للمنظمات العالمية والغربية -التي تسبب حساسية مفرطة للبعض - على ما يفعلونه، ولكني أتسأل عمن يحق له التلاعب بحياة البنت وتعريضها للخطر سواء الأب أو الأم أو المجتمع بسبب هذا الشرف الذي وضعته كثير من الأسر على حساب الدين الذي يقول بوضوح أنه (لا ضرر ولا ضرار)، وعلى حساب حق البنت في الحياة مع أن بعضا من رجال الأسرة ينتهكون هذا الشرف؟

الدين يضع حياة الانسان أعلى من كل شيء، و "لا يكلف الله نفسا الا وسعها.."، وما تقوم به كثير من الأسر بحق البنت هو حالة خطرة جدا إذا نظرنا اليه من نواحي عديدة مختلفة، فالبنية التركيبية للإنسان مثلا تتأثر بعدة عوامل منها أسلوب المعيشة وحالة الصحة العامة والحالة الوراثية والامكانيات المتاحة والنضج الجسمي والعقلي والاجتماعي والثقافي.. وأعتقد أن مراعاة كل ذلك أمر ضروري في تزويج البنت وهو جزء مما يسميه الفقهاء اليوم بفقه الواقع المنظور وفقه الممكن لا الفقه الأمثل الذي ننظر في كثير من الأحيان من خلاله؟

على العموم، اخراج فنية من المدرسة يعتبر ظلما في حقها، ثم تزويجها بكهل في نفس عمر أبيها ظلم آخر في حقها، وتأتي هنا بعد ذلك أيضا الخرافات المسيطرة على المجتمع وخاصة على الكثير من النساء، فبعدما حملت فنية ووضعت مولودا ميتا وهي في حالة شبة ميتة كادت تؤدي بحياتها، ثم أدت هذه الحالة الى اصابتها بمرض السلس البولي جراء الضرر الدي لحق بأعصابها وعضلاتها، تقوم والدتها (زهرة) بالذهاب الى الساحر أو الكاهن أو "المارابو" بغرض العلاج، فيطلب منها الأخير" دم وثلاث بيضات ودجاجة

وألفين ريال " وبعدها يقول للأم أن هناك امرأة "مصت فنية أي امتصت دمائها" فلا تتردد الأم زهرة في اتهام ضرة بنتها فنية وتشيع الخرافة في وسط اقاربها من النساء، فالمشعوذين الذين ذهبت اليهم قد خدعوها وعجزوا عن علاج بنتها فنية بعدما نسفوا نقودها، وعندما جاء علي أحد أقارب فنية والذي يدرس في انجمينا لم يستطيع اقناع زهرة بسهولة للذهاب بفنية الى المستشفى في العاصمة لعلاجها لأن زهرة أظهرت خرافة أخرى أيضا موجودة للأسف مفادها أن الماربو أو الشيخ المعالج اذا عجز عن العلاج فلا يمكن للطبيب أن يعالج بنتها التي تركها العجوز الكهل بسبب كثرة تبولها وذهب للعاصمة للبحث عن عمل، لكن علي وبعد جهد جهيد ينجح في تحويل فنية لإحدى مستشفيات العاصمة انجمينا والتي أجريت لها فيها عملية جراحية نجحت وعادت بعدها لصحتها ورشاقتها.

ينتهي الفيلم بالأمل لفنية التي بدأت بحياة جديدة وروت قصتها قصة "البطولة كما يصورها الفيلم" لإحدى المنظمات، واكتملت فرحتها بعدما سمعت عبر الاذاعة القانون الذي اعتمدته الجمعية الوطنية والذي يمنع زواج القاصرات دون السن القانونية أي أقل من ١٨ عاما.

فور انتهائي من الفيلم قررت كتابة المقالة ليس حبا في المنظمات التي تحاول في بعض أهدافها زرع الرذائل والانحلال من القيم في المجتمعات الإسلامية لجعل العالم نسخة واحدة من الانسان الغربي، وليس معاداة للعادات الاجتماعية ومسألة الشرف، فما يوجد بها من ايجابيات أدعو الى تعزيزه وما يوجد بها من خرافات وظلم للنساء وللأخرين أمقته فحياة الانسان أشرف من كل شيء، لأن الله وحده من يقضي في حقه وليس غيره، فللمرأة كما للرجل حرياتها وحقوقها وواجباتها في حدودها الشرعية والقانونية والإنسانية، وأعتقد أن غربلة العادات وفرز الصالح من الطالح منها ضرورة لنجنب قدر الإمكان الجيل القادم من سلبياتها جنبا الى جنب مع غرس قيمنا الفاضلة والتي تعبر عن أصالة المجتمع وهويته وخصوصيته.

وضوح الفيلم ومحاكاته للواقع بطريقة سلسلة ومدته القصيرة "٣٥" دقيقة كل ذلك مكنني من فهمه بسهولة وشجعني على هذا الطرح، لتذكير كافة القطاعات الفاعلة في المجتمع من الأسرة والمسجد الى المدرسة والحكومة مرورا بجمعيات المجتمع المدني، بضرورة إعادة النظر في عدد من السلوكيات الهدامة والنابعة من منظومتنا الاجتماعية، على الأقل لوقف استنزاف حياة الناس خاصة المرأة التي تعتبر ضحية هوى المجتمع في كثير من الأحيان، وأعتقد أن ذلك واجب ديني وقانوني ومجتمعي ووطني وانساني، إذا، أفلم يحن الوقت بعد للخرافات أن تتوقف؟

العدالة

حادثة الطالبة زهورة التي تعرضت لها في عام ٢٠١٦م أظهرت الكثير من الخفايا.. اعتداء فاحش على جسد بنت في الثامنة عشرة من عمرها تم اختطافها من أمام إحدى المؤسسات التعليمية، واقتادها تسعة شباب إلى مكان مجهول بحارة غيني بور شمال غرب العاصمة انجمينا؛ حيث احتجزت لمدة أيام وتعرضت للتحرش والعنف الجنسي.

حالة لم تعد خافية أمام الملايين بعد أن تم نشر صور خليعة ومقاطع كذلك بمواقع التواصل الاجتماعي، فخرجت العديد من الاحتجاجات في الداخل والخارج تضامنا مع المختطفة وتنديدا بالجناة؛ وهذه ظاهرة ايجابية ساهمت في دفع عجلة الإمساك بالمجرمين سيما وأنهم أبناء لمسؤولين كبار بالدولة، لأن سياسة الغابة هي من تجعل مثل هذه الحالات شيئا عاديا، فمن يقوم بتدنيس أعراض الآخرين بهكذا حالة ليس مواطنا بسيطا، بل ينتمي إلى الدولة العميقة.

العدالة لزهورة لافتات رفعت، ورايات رفرفت في سماء المطالبة بالعدالة والقصاص، ساندتها دفعة إعلامية واجتماعية قوية في وسائل التواصل الاجتماعي.. وعي جماعي يتقاطر لأول مرة، حراك شعبي، وملحمة اجتماعية ووطنية خلعت أسوار الانتماءات وأقنعة المصالح، وكما في الحياة؛ هناك من يصطاد في المياه العكرة دون ضمير ودون أخلاق.

في أروقة الشرطة يحاولون اجبار الفتاة على القول بأنها ليست مختطفة، ثم نمت دعوات للكراهية من قبل البعض للتحريض ضد فئة أو مجموعة من المجتمع في مقال قذف ورد للآخر وكلها تتجه عكس العدالة الاجتماعية، فالوطن ليس للذين يزرعون الكراهية والعنصرية والعنف أيا كانوا..

لا لانتهاك شرف البنات، ولا للقبلية والكراهية، نعم للعدالة الاجتماعية والعدالة لزهورة.

الجائحة

تفرج العالم خلال شهرين، على مبارزة تعرض في قاعات مدينة يوهان الصينية، بطلها هو فيروس كورونا المستجد الذي يسبب مرض كوفيد - ١٩ ويدمر الجهاز التنفسي للمصابين خاصة كبار السن، والمصابين بأمراض مزمنة، ويودي ببعضهم إلى الوفاة، كائن دقيق لا يرى بالعين المجردة يفتك بأحفاد "ماو تسي شونغ" في منطقتهم الصناعية ويفعل العجائب، يغزوها، ثم يحتلها، ثم يتحول إلى مناطق أخرى من العالم، يسدد اللكمات فيزيد من هول الضعفاء ويربك حسابات العمالقة.

لم تفق معظم دول العالم إلا بعد أن اقترب الخطر من أراضيها، ولم تكن تعرف أن أكثر من حلبة صراع جديدة ستفتح في ميادينها بعد أن حملت بالفيروس دون أن تدري!، بعض شعوب العالم كانوا يضحكون على قرب انتصار الفيروس وهزيمة التنين الصيني بعلة أن الأمر كان "عقابا من الله للكفار الصينيين على خلفية اضطهاد المسلمين"؟ وبعضهم الآخر نسوا اعتقادهم بأن العالم ما زال قرية كونية صغيرة بفعل التكنولوجيا والتقارب الحداثي وإذابة الحدود! سمع بهم الفيروس فأراد النزال في أراضيهم، لم تدم الفرجة طويلا، ولا الفرحة كثيرا، حتى باغت الفيروس المئات والآلاف والملايين وبث فيهم الرعب، واجتاح حتى مساء السبت ٢١/ مارس/ ٢٠٢٠م ١٨٥ بلدا بلغ عدد المصابين فيها ٢٧٩ ألفا، وتجاوز عدد الوفيات ١١ ألفا، بينما شفي أكثر من ٨٠ ألفا بحسب الإحصائيات الرسمية العالمية، لا مجال اليوم لأحد النأي بنفسه عن المخاطر إلا من ركب سفينة التدابير الاستباقية وعمل بجدية وصرامة في التعامل مع الوضع الجديد! ولكن هذا ليس كافيا للقضاء على كورونا المستجد بل لتأجيل المعركة فقط إلى حين التقاط الأنفاس والرجوع إلى حلبة الفيروس بعد النزول منها باستراتيجية!

لقد عرى فيروس كورونا المستجد الكثير من الأنظمة الصحية العالمية، والدول

التي تستثمر في شعارات واهمة، وفي تعرية الدويلات التي لا تزال تائهة في بحثها عن لقمة العيش، حتى الأنظمة الأوروبية القوية التي خلناها قادرة على مجابهة الفيروس في فترة قصيرة بحكم أنظمتها الصحية المتطورة ومراكز الأبحاث العملاقة التي تحتضنها والتكنولوجيا المستحدثة والكوادر العلمية التي تقبع في معاهدها وجامعاتها ومختبراتها ومصانعها والأموال الضخمة التي تمتلكها لم تجد بدآ من الانكسار مؤقتا أمام هذا الغازي الجديد للعالم.

لعل الفيروس باغتها كما باغت أبناء الرئيس "تشي جي بينق" الذي تكتم على المرض وتعامل بجدية عندما تطور الوضع، فبنى مستشفى ضخما في عشرة أيام تعجز عن بنائه دولة مثل دولتنا في ستين عاما من استقلالها الجزئي، هذه السرعة في الاستجابة بهذه القدرة الفائقة من الإمكانيات البشرية المؤهلة واللوجستيات والتقدم العلمي والتقني الذي يحتضنه ثاني عملاق اقتصادي في الكوكب الأسمر أكدت تفوقه وجدارته وتمكنه من تقليص الأضرار خلال ثلاثة أشهر فقط، ثم بدأت الصين في تقديم تجربتها لعدد من دول العالم بما فيها أوروبا التي أصحبت بؤرة للفيروس، رفضت فرنسا تجربة الصين في بادئ الأمر بمكابرة، ولكنها رجعت وقبلت المساعدة بمرارة كما فعلت إيطاليا!

هذا هو حال القارة العجوز (أوروبا) التي تقودها الأبحاث الاستراتيجية والعقول والأموال الضخمة والاتحاد العابر لحدودها، فكيف هي حال القارة السمراء التي ما زالت فيها جل الحكومات في أزمنة غابرة، وعامة الناس يفتون في الشؤون العلمية البحتة ويقودونها بالخرافات والشعوذة والانطباعات والافتراضات الساذجة في عصر العلم والتقانة والمهارة؟

اتخذت على المستوى الوطني جملة من التدابير الاستباقية الوقائية، معظمها ناجح بشكل مبدأي لدولة مثل تشاد لا يمكنها مطلقا مقارعة الفيروس منفردة، لامتلاكها نظاما صحيا فاشلاً ومتهالكا، في قلة الكادر البشري وقلة تأهيله تأهيلا عالميا، وخلوها

من المعدات اللوجستية والمالية، والمعاهد والمختبرات والأبحاث والتخصصات الطبية الوقائية والمستحدثة، وفقدانها للبنية التحتية الملائمة،، النظام الصحي هو نظام شامل، مرتبط بالتعليم والأبحاث العلمية والبنية التحتية والتغذية المتوازنة والتنقل والقدرة الشرائية والتكنولوجيا والبيئة والزراعة والإعلام والمجتمع المدني، مدعوم اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، أما نظامنا الصحي الحالي فهو غير قادر على التعامل مع الأمراض المستوطنة مثل الملاريا والتيفوئيد وإسهال الأطفال وعمليات الولادة القيصرية والتي تفتك جميعها بالآلاف من المواطنين سنويا، فكيف الحال إذا كان لابد من التعامل مع الطوارئ والأوبئة؟

نتمنى ألا نسجل حالات كثيرة بفيروس كورونا، مع سوء تصرف العامة واللا مبالاة والعناد، وحتى العشوائية في بعض القرارات الرسمية، ولعدم معرفة الكثيرين أيضا لغسل الأيادي بشكل صحيح وبقية أساسيات الصحة الفردية والجماعية الأخرى، نأكل دون أن نغسل أيدينا بالصابون ثم نقول "جدودنا فعلوا هذا ولم يموتوا" اليوم الأمر مختلف، لا ينبغي للشعب أن يفتي بغير علم ويصر على الجهل؟ يجب أن يأخذ بالوقاية الكافية ويتحلى بالوحدة والتماسك وبالبعد عن الأنانية والشراهة في تخزين المؤن الغذائية والأساسية.

بارقة أمل!

رغم كل ما سبق، يحدوني التفاؤل من أن شركات الأدوية والأنظمة الصحية الغربية كالعادة في دول (الكفار) كشركة "كيور فاك الألمانية" ومجموعة "سانوفي الدوائية الفرنسية" وغيرها من الشركات الأمريكية والروسية والصينية، قد شارف أغلبها على الانتهاء من إنتاج أدوية ولقاحات لهذا الوباء الذي كشف الوجه الآخر للإنسانية وعلاقتها بالعلم، وهشاشتها وأنانيتها وغطرستها، بعد محاولة تجريد العلم من الأخلاقيات وحصره في المختبرات والجامعات والمعاهد العليا.

ماذا بعد كورونا؟

سيخرج العالم قطعاً أقوى من قبل، وسيتعلم من لكمات الفيروس في الموسم الأول، ستستثمر الدول العملاقة أكثر في الأبحاث والعلم، وستربط أنظمتها الصحية بالتغذية والتوعية وبكل الإجراءات الممكنة، وستدرك دولنا حجم الكوارث التي اقترفتها بحقنا، ستعدل حتما في أنظمتها الصحية وهيكلتها من جديد علميا وعمليا واستراتيجيا إن استوعبت الدرس، وربما تعطي قيمة أكثر للإنسان والطب والوقاية بعد أن تدرك ضرورة القفز في "سيفنة نوح الطبية" وأنه لا مفر منها في مواجهة عاصفة من الأمواج المحملة بالفيروسات والبكتيريا وربما الحروب البيولوجية، وستتمرن أكثر على كيفية اتخاذ إجراءات استباقية ناجعة وسط الأمواج إن أرادات البقاء، وإن أصرت على الفشل والإحباط والشعوذة؛ حينها ستجد لكمات من فيروسات وربما كائنات أخرى تودي بها إلى الهاوية.

النظافة

احصائيات مقلقة:

تمثل الأغذية والمياه الملوثة، تهديدا حقيقيا للصحة البشرية، وهو ما يتطلب المزيد من الوعي الصحي بأهمية النظافة وسلامة الأغذية، والمخاطر التي تنجم عنها، وكيفية تفاديها.

في عام ٢٠٢٣م، أشارت تقديرات كل من منظمة الصحة العالمية (OMS) ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (FAO) الى أنه يصاب يوميا حوالي مليون وستمائة ألف شخص بالأمراض المرتبطة بالأغذية في العالم، يموت منهم سنويا خمسة مليون، بينهم ثلاثمائة وأربعين طفل يموتون كل يوم بسبب أمراض منقولة بالأغذية يمكن الوقاية منها.

أما في إفريقيا، فإن الإحصائيات تشير إلى إصابة أكثر من تسعين مليون شخص سنوياً، يموت منهم حوالي أكثر من مائة وثلاثين ألف شخص سنوياً، وهو ما يمثل ثلث حالات الوفاة الناتجة عن تلوث الغذاء والماء بحسب منظمة الصحة العالمية في عام ٢٠١٥م.

التحديات:

وفي وقت تعلن الدولة فيه من فترة لأخرى حالة الطوارئ الغذائية نتيجة العديد من التحديات، تأتي مسألة غياب الوعي الغذائي كمسألة جوهرية يجب العمل على تخطيها من أجل سلامة غذائية وصحية مستدامة.

تنقص المجتمع التشادي الكثير من المعلومات الغذائية العلمية المبسطة، مع أنه يمكن الحصول عليها بضغطة على الجوال الذكي المرتبط بالإنترنت، لكن المشكلة تكمن أيضاً في فهم المعلومة ثم في تطبيقها، فغياب الوعي الغذائي يفاقم امكانية التعرض للأمراض المرتبطة بالغذاء والمياه من خلال انتشار السلوكيات الغذائية السلبية في موائدنا ومطاعمنا،

والتي تتطلب الكثير من إجراءات الحماية الصحية الاستباقية وتطبيق الحد الأقصى من النظافة ومعرفة العناصر الغذائية الضرورية لبناء الجسم ووقايته، حتى لا يتم التركيز على أنواع معينة من الأطعمة وإهمال أخرى.

ينتج نقصان الوعي من غياب التعليم الغذائي Education alimentaire وقلة الاطلاع على علوم الأغذية والزراعة، وبسبب الإهمال في الالتزام بالأسس الغذائية والصحية، وقلة الحملات التوعوية والمراقبة الغذائية من قبل السلطات الصحية المختصة، فممارسات مثل عدم غسل الأيادي بالماء والصابون قبل وبعد الأكل، أو نظافة المطبخ وأدوات الطبخ وتغطية الطعام، وابعاد المأكولات والمشروبات من الطرقات المزدحمة بالغبار وعدم تعريضها لدرجات الحرارة العالية، تعتبر من بديهيات أسس الصحة السليمة التي يجب أن لا يتوانى المواطنين في تطبيقها.

أيا كانت الأسباب، فإن الواقع العام يبين إننا في مأزق غذائي حقيقي قد يكون حاد في بعض الفترات، وهو ما نلاحظه من تفاقم المجاعة وسوء التغذية وغياب الأمن الغذائي سنويا، ما يجعل من حالة إعلان الطوارئ الغذائية شيئا عاديا من فترة لأخرى.

ثم إن دخول الدولة في الأمر غالبا ما يكون متأخرا أو غير ناجع بفعل غياب تطبيق الرؤية الصحية الكاملة، وسوء تنفيذ البرامج التنموية التي ترافقها من سوء الإدارة والتخطيط والرشاوي والإجراءات الإدارية الروتينية التي تؤخر من الاستجابة للحالات الغذائية الحرجة والمستعجلة.

الحلول:

ولكي نعالج الإشكاليات التوعوية لابد من قيام الدولة والمتخصصين ووسائل الإعلام والمنظمات المتخصصة بالمساهمة الفاعلة في تقديم أهم المعلومات الغذائية للمواطنين، لفهمها وتطبيقها ليصل المواطن إلى مرحلة التوازن الغذائي الذي يعمل على تعزيز الجهاز المناعي ويقي من العديد من الأمراض التي تودي بحياة الكثيرين.

كما أنه يجب أخذ الحيطة والحذر وزيادة الوعي بالسلامة الغذائية في البيوت والأسواق والمطاعم، ففي أغلب مطاعمنا الشعبية وأسواقنا يسود الغياب شبه التام للنظافة، نظافة المكان، ونظافة الأواني والمعدات، وكذلك نظافة العمال وملابسهم، حيث تعرض هذه الممارسات الخاطئة والإهمال في التعامل مع الأغذية والمشروبات حياة المستهلكين للخطر.

تكون المخاطر المرتبطة بالأغذية بأشكال متنوعة ومتعددة، كالمخاطر الفيزيائية والتي هي عبارة عن وجود أجسام غريبة المصدر في الغذاء مثل: الحصى، والشعر، وبقايا الزجاج، والبلاستيك وغيرها من المواد التي لا تكون جزءا من تركيبة الغذاء أي هي دخيلة عليه، بينما تكون هناك مخاطر كيميائية مثل: زيادة تركيز الهرمونات الغذائية، والمبيدات الزراعية، والأدوية البيطرية، والمضافات الغذائية، والأجسام المعدلة وراثيا (OGM) والأسمدة الكيماوية، في حين تتمثل المخاطر البيولوجية في الميكروبات الدقيقة مثل: البكتيريا والفطريات والفيروسات والطفيليات والخمائر والأوليات.

جميع هذه المخاطر (الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية) تسبب أكثر من مأتين من الأمراض التي لها علاقة بالأغذية من الاسهال حتى السرطان، مرورا بالتيفوئيد، والتهاب الكبد الوبائي، والتسمم الغذائي، والتي يكون بعضها قاتلاً في حين يمكن الوقاية من بعضها الآخر إذا ما التزمنا بالشروط الصحية (OMS, FAO ٢٠٢٣).

من هنا، فإن المسؤولية تقع على عاتق مسؤولي المطاعم والمخابز والمقاهي بضرورة الوعي بسلامة الزبائن المستهلكين من خلال الوعي بسلامة الأغذية، وتدريب العاملين، ووضع كل الإمكانيات المتاحة لديهم من أجل الإستجابة للنظم والقوانين الصحية سارية المفعول، عبر اعتماد "التطبيقات المثلى للنظافة" المعروفة عالمياً: Les Bonnes Pratiques d'Hygiène)).

وعلى كل من البرنامج الوطني للحمية والسلامة الصحية للأغذية بوزارة الصحة العامة والوقاية، وكذلك مركز مراقبة جودة المواد الغذائية (CECOQDA)، وبلدية

إنجمينا، بالإضافة إلى منسقية الشرطة الصحية السهر على تطبيق السلامة الصحية للأغذية لضمان صحة المواطنين، من خلال المراقبة المستمرة للمطاعم والأسواق وتفقد سير النظافة فيها، وكذلك محاربة المواد الغذائية منتهية الصلاحية والأغذية المعرضة للحرارة والغبار والأتربة والأمطار والتي تفقد جودتها وقيمتها الغذائية والصحية، فضلاً عن كونها تمثل خطراً حقيقياً على صحة المستهلكين، كما يجب اغلاق كل المطاعم والمخابز والمقاهي التي لا تستجيب لقواعد وقوانين النظام الصحي ساري المفعول.

تطبيق النظم الغذائية Les Normes Alimentaires في الأسواق والمطاعم والبقالات خلال السلسلة الغذائية أي "من الإنتاج الزراعي وحتى الإستهلاك البشري" مروراً بالتوصيل والتخزين والاستيراد والتصدير، يمثل أولوية قصوى في انقاذ الأرواح من الأمراض المرتبطة بالغذاء والتي تقتل الملايين سنوياً وتضع حياتنا في خطر.

الكابوس

يشكل الوضع الغذائي في تشاد هاجساً كبيراً للدولة والمواطنين، حيث تشهد البلاد للعام الرابع على التوالي حالة من انعدام الأمن الغذائي قصير المدى Insécurité alimentaire aiguë.

وقد تفاقمت الأوضاع خاصة بعد جائحة كورونا التي عصفت بالعالم، وبمجيء اللاجئين، بالإضافة إلى العوامل المناخية كشح الأمطار وغيرها من الأسباب الأخرى. حيث عان ما يقارب مليوني شخص في تشاد من يونيو إلى أغسطس ٢٠٢٤م وفقاً لمعطيات مكتب برنامج الغذاء العالميPAM بالعاصمة انجمينا من انعدام الأمن الغذائي قصير المدى وسيتطور الأمر أكثر ليصل بهم إلى انعدام الأمن الغذائي الحاد Insécurité alimentaire chronique.

ومن أجل تقديم الاستجابة الغذائية الفورية لهؤلاء المحتاجين من المواطنين، واللاجئين الذين يفوق عددهم ستمائة ألف لاجئ في الأراضي التشادية في مقدمتهم اللاجئين السودانيين بحسب التقديرات الدولية، أعلن مكتب برنامج الغذاء العالمي في إنجمينا في مايو ٢٠٢٤م، عن حاجته الماسة إلى الحصول عن طريق التبرعات لمبلغ قدره ١٦٢ مليون دولار من أجل مساعدة الحكومة التشادية لتقديم الخدمات الغذائية بشكل طارئ لهم، ويحذر البرنامج الذي يعمل على تقديم الاستجابة الغذائية الفورية للسكان في مختلف دول العالم ومنها تشاد وفي مختلف المناطق الحرجة التي تعاني من النزاعات والحروب والأوبئة والكوارث، من أنه في حال لم يتحصل على المبلغ المطلوب من الداعمين والمتبرعين الدوليين في الوقت المناسب، فإن ذلك يمكن أن يؤدي إلى مضاعفة أوضاع المحتاجين ويضع حياتهم في خطر!

وبالنظر إلى المعطيات المحلية وكذلك المنبثقة من المنظمات الدولية المعنية بالأغذية

مثل برنامج الغذاء العالمي PAM ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة FAO ومنظمة الصحة العالمية OMS التي تضع دول الساحل في الخط الأحمر سنوياً من بين المناطق الحرجة غذائياً وفقاً للمؤشرات والدراسات والتقارير الميدانية المتعلقة بالأمن الغذائي في العالم التي تقوم بها، وبالنظر أيضاً إلى كثرة إعلان حالات الطوارئ الغذائية من قبل الدولة التشادية من فترة إلى أخرى، يمكننا القول بأن قضايا الأمن الغذائي في تشاد تمثل كابوسا حقيقيا للدولة والمواطنين على حد سواء، لما تخلفه من آثار صحية واجتماعية واقتصادية متواصلة، وهو ما يتطلب تقديم رؤية واضحة من الدولة وتنفيذ فوري للبرامج المتعلقة بالأمن الغذائي والتغذوي، وتضافر الجهود للتخفيف من حدة انعدام الأمن الغذائي الآخذ في التطور داخل المجتمع.

ويقصد بالأمن الغذائي توفر واستقرار الغذاء في أي وقت وأي مكان في الدولة، وأن يكون بأسعار مناسبة متاحاً لجميع المواطنين، وسليما وآمنا لهم من الناحية الصحية، كحق بشري طبيعي للحيلولة دون تعرضهم للمخاطر الغذائية التي يعاني منها الملايين وتودي بالآلاف منهم سنوياً حول العالم.

الثقوب

"حينما كنت في الجامعة عام ١٩٧٨م طلب مني كتابة ورقة بحثية عن فكرة واقعية، اخترت الكتابة عن الثقوب السوداء التي أدهشتني، لكن البروفسور أعطاني أقل تقييم عليها، وأخبرني أنها مكتوبة بلغة جيدة لكن مستحيل أن تكون حقيقية" تغريدة "بلوك توماس" على تويتر احدى المشاركات في الاكتشاف.

لعل يوم الأربعاء العاشر من أبريل لعام ٢٠١٩م، قد يكون مر على الملايين من البشر بشكل اعتيادي غير مثير للاهتمام، ودون أن يكونوا قد أعطوا حتى أهمية لخبر الثقب الأسود الذي عرضت صورته لأول مرة في تاريخ البشرية؟

ولكن القصة رهيبة حقا، حيث أننا نشاهد صورة لثقب يبعد عنا بـ ٥٥ مليون سنة ضوئية، وليس هذا فقط بل يتعداه الى أكثر من ذلك، ففي الثقب الأسود يتوقف الزمان والمكان لمادة ما في نفس اللحظة التي يتم فيها التهامها من قبل الثقب، حالة مفزعة بلا شك، فهذا اليوم يعتبر يوما مذهلا في تاريخ البشرية وخطوة مفصلية في تطور العلم وهو آخر ما توصلت اليه البشرية في مجال علوم فيزياء الفلك والكون، ولكن قد يتساءل البعض عما إذا كل ذلك مهما وهل سيحدث تغييرا يشعر به شخص عادي لا يهتم بمثل هذه العلوم التطبيقية ولا حتى بأخبارها؟

للإجابة على ذلك دعونا نتعرف سويا على الثقب الأسود أولا وكيف يتكون، ولماذا تعقد لأول مرة ست مؤتمرات صحفية متزامنة بنفس التوقيت حول العالم وبتغطية مباشرة منقطعة النظير لهذا الحدث الذي يشكل نقلة نوعية للإجابة على بعض الأسئلة الجوهرية التي يطرحها الانسان حول الكون ومساره المحكم وتصميمه العظيم كما سماه العالم البريطاني الفذ ستفين هوكينغ.

ما هو الثقب الأسود؟

لعل من الطرائف الجميلة في ذلك اليوم وأنا أتابع الخبر بكل دهشة وانبهار، أن أحد الباحثين تحدث في احدى المؤتمرات الصحفية المتزامنة حول تعريف مبسط ومختصر للثقب الأسود استقاه من أحد الأطفال قائلا: (ان أسهل تعريف للثقب الأسود وصلني من طفل، والذي قال لي: "انه مجرد ثقب لا يمتلئ أبداً")، ووفقا لـ(منظمة المجتمع العلمي العربي) فان الثقب الأسود هو "مكان في الفضاء مقدار الجاذبية فيه كبير جدا لدرجة أن الضوء لا يمكنه الافلات منه، ومن هنا جاءت التسمية، اذ أن المراقب يرى الثقب الأسود ككرة سوداء بالكامل، لأن سطحه لا يبث ولا يعكس الضوء". هذا الجسم الفضائي يلتهم أجسام فضائية أخرى كالنجوم والكواكب وأجرام أخرى، وقبل ذلك يجرها الى قلبه بطريقة رهيبة جدا تجعل هذه النجوم والكواكب والمواد تتفكك بقوة عظيمة جدا ثم يبتلعها ولا تخرج بعد ذلك منه أبدا، وتفكك المواد خارج الثقب ينتج عنه أشعة سينية "أشعة أكس" ويمكن رصد هذه الأشعة المنبعثة من خلال التلسكوبات الراديوية المتطورة الموجودة في كوكبنا كوكب الأرض، أما عمق الثقب الأسود فهو لا يرى ويبتلع كل شيء.

كيف يحدث الثقب الأسود؟

يتكون الثقب الأسود نتيجة لانهيار نجم كبير تزيد كتلته الأصلية عن ١٥ الى ٢٠ كتلة شمسية بسبب انهيار الجاذبية النهائية في قلبه فيعطي ثقبا أسودا بحجم حارة أي أقل من حجم مدينة ما. تصور أن تجتمع كتلة نجم يحتوي على ٢٠ شمسا بعد تحطمه وتتمركز كلها في حجم حي واحد فقط؟ وهذا ما يجعل جاذبيته رهيبة جدا تستطيع تفكيك كل شيء يقترب منها فيلتهمه الثقب، حتى الضوء الذي هو أسرع ما يتحرك في الكون لا يمكنه الخروج منه، وهذا ما يعرف بالثقب الأسود النجمي وهو شائع الانتشار في الكون. وهناك ثقوب سوداء أخرى تسمى بالثقوب السوداء فائقة الضخامة وهي لا تتكون الا في قلب كل المجرات تقريبا، وكتلتها تمتد من مليون كتلة شمسية الى أربعين مليار كتلة

شمسية مضغوطة في حجم صغير نسبيا، تكون جاذبيتها عملاقة بدرجة مذهلة لا يتخيلها بشر ولا تسمح للضوء أن يفلت منها، وما يزال العلماء يبحثون لمعرفة المزيد عنها.

ما هي قصة الاكتشاف المذهلة؟

بداية هناك هدفان للاكتشاف المبهر للثقوب السوداء، يتمثل الأول في تصوير الثقب الأسود العملاق الموجود في قلب مجرتنا "مجرة درب التبانة" والذي يبعد عنا ٢٦ ألف سنة ضوئية، وكتلة هذا الثقب هي (٤ مليون كتلة شمسية) أي أن كتلته تفوق حجم كتلة الشمس بأربعة مليون مرة. أما الهدف الثاني فهو تصوير ثقب أسود آخر عملاق أكبر بـ ١٦٠٠ مرة من ثقب مجرتنا (الثقب الأول) والذي يوجد في مجرة تسمى "مجرة أم٨٧" التي تبعد عنا ٥٥ مليون سنة ضوئية، وكتلة هذا الثقب هي ٦,٥ مليار كتلة شمسية، وهذا هو الثقب الذي عرضت صورته وانتشرت بطريقة رهيبة.

بدأ المشروع عام ٢٠١٢ بمشاركة ٢٠٠ عالم وباحث للكشف عن هذين الثقبين الأسودين العملاقين، فقاموا بتوصيل ثمانية مراكز للتلسكوبات الراديوية العملاقة الموجودة على الأرض والموزعة من القطب الجنوبي الى أمريكا الجنوبية والشمالية ثم الى أوروبا وأخيرا الى هاواي للرصد في وقت واحد متزامن، وبدأ الأمر كأنهم عملوا تلسكوبا راديويا واحدا عملاقا استطاع أن يجمع البيانات بالدقة المطلوبة، ويصور لنا العملية عالم الفيزياء الفلكية الجزائري الدكتور نضال قسوم الذي عمل مع الوكالة الأمريكية للفضاء "ناسا" بأنها أصعب من أن تأخذ منظار فلكي متطور ثم توجهه الى القمر فترى ثمرة تفاحة موجودة على سطحه، ويقول "ان الأمر أكثر ذهولا من هذا المثال حيث لا يمكن تصور الدقة التي وصل اليها الباحثين وهي دقة مذهلة ولازمة لتحديد أفق الحدث، أي تقاس هذه الدقة بجزء من مليار من الثانية...".

ثم قاموا بأخذ البيانات التي تم تخزينها ووضعها في كمبيوترات سريعة جدا والتي أعد بعضها خصيصا لهذا الغرض، بعد ذلك قام الباحثون بتفكيك الصور وتحليل هذه

المعطيات ومقارنتها خلال عامين من العمل المضني حتى توصلوا الى صور حقيقية للثقب الأسود العملاق مكنت البشرية لأول مرة في تاريخها من أن ترى صورة حقيقة لثقب أسود. 'انظر مداخلة د نضال قسوم على اليوتيوب، كيف تم تصوير الثقب الأسود؟'.

نبوءة آينشتاين

كانت الكندية "جولي لافاشيك" عالمة الفيزياء الفلكية تغالب دموعها من نشوة الفرح وهي تتحدث للتلفزيون الكندي عن الثقوب السوداء باعتبارها واحدة من فريق الاكتشاف، كان الأمر مثيرا ومدهشا، ولكن بي شخصيا فضول لأرى ردة فعل آينشتاين إذا كان حيا؟ كيف ستكون ملامح وجهه وكيف سيتفاعل مع الأمر؟

آينشتاين العالم الألماني العبقري الفذ والعقل الذي تجاوز الزمان والمكان وساهم في احداث نقلات عظيمة في فهم الفلك والكون هو من تنبأ بالثقوب السوداء قبل أكثر من مائة عام أي في ١٩١٥م عندما وضع الاطار النظري لها، الذي استند عليه الباحثون من خلال نظريته "نظرية النسبية العامة" والتي تعد "تعميما للنظرية النسبية الخاصة وقانون نيوتن للجاذبية، وتصف الجاذبية كخاصية لهندسة الزمان والمكان وهو ما يعرف بالزمكان" أي أن الفيزياء الكلاسيكية التي يعد العالم البريطاني الفذ نيوتن من أبرز روادها تستخدم في معرفتها للكون أبعادا ثلاثة وهي الطول والعرض والارتفاع، ولكن آينشتاين اعتبر أن العالم الذي نعيشه أكبر من هذه الأبعاد الثلاثة، فأضاف الى تلك الأبعاد بعدا آخرا رابعا وهو الزمن، فتم احداث ما يعرف بالفيزياء الحديثة والتي يعد من أبرز روادها آينشتاين حيث تفسر الكون بناء على الأبعاد الأربعة أي الطول والعرض والارتفاع والزمن، وهي دمج لقوانين نيوتن للجاذبية فيما يعرف بالفيزياء الكلاسيكية مع قانون آينشتاين للنسبية الخاصة وسمي ذلك بـ"الزمكان" (موقع أرابوست).

تنبأ آينشتاين بأن الضوء المنبعث من النجوم ينحني بفعل الجاذبية الشديدة حين يمر بثقب، والكتل الكبيرة العالية تؤثر في الزمكان محدثة تقعر يؤثر في الأجرام السماوية التي

حوله فتؤدي بانحناء للزمان والمكان.. وتعتبر النظرية النسبية العامة هذه أيضا جزءا من إطار النموذج القياسي للانفجار العظيم في علم الكون (ويكيبيديا)، كما قدم آينشتاين شكلا لصورة الثقب الأسود اذا ما التقطت له صورة في يوم من الأيام "سوف يبدو أشبه بهلال أحمر" وهو ما حصل فعلا بعد أكثر من مائة عام حيث جاءت الصورة الحقيقية مطابقة تماما لما وضعه آينشتاين من اطار نظري وما تخيله من شكل للثقب الأسود، تصور أن يفكر أحد علماءنا في المائة سنة القادمة ويضع الاطار النظري والمعرفي لذلك التصور ثم يحدث بعد ذلك الأمر بالضبط؟، ليس الأمر سهلا فهو يتطلب تفكيرا صحيحا وعلما عميقا ودقيقا ونظرة واسعة تتجاوز الحيز الزماني والمكاني الى القدرة على التنبؤ بما يحدث في المستقبل من خلال الدراسات والمعطيات التي بين يديه، فالأمر أكبر مما نتخيل، ولكن آينشتاين فعل ذلك؟ حتى علق مذيع قناة فرانس ٢٤ بأنه آن لآينشتاين أن يرقد في قبره بسلام؟

ما أهمية كل ذلك؟

على المستوى العام لعلم الفلك، تصور العالم البريطاني العبقري ستفين هوكنيغ بأن الثقوب السوداء قد تفتح لنا طريقا جديدا الى عوالم أخرى لا نعرفها، ويقول من خلال نظريته (الأكوان المتعددة) أننا "لسنا محصورين في كون واحد فريد من نوعه، ولكن أبحاثنا أظهرت أن الأكوان المحتملة هي أقل بكثير، يمكن اليوم تصور أنواع عدة من الأكوان المحتملة".

يتصور بعض العلماء بأن العوالم المحتملة قد نتصادم معها ذات يوم، فتقول الباحثة سابين هوسنفلدر من معهد فرانكفورت للدراسات المتقدمة في ألمانيا "يسود اعتقاد بأن الأكوان المختلفة ليست منفصلة عن بعضها البعض بالكامل وهي قد تدخل أيضا في تصادم".

ولكن بعض الباحثين يعملون على طمأنتنا فيقولون بأننا ما زلنا بعدين عن خطر

الثقوب السوداء رغم أن مجرتنا مجرة درب التبانة تحتوي على ١٠٠ مليون من الثقوب السوداء الأصغر حجما مع وجود ثقب عملاق في قلبها الذي تم اكتشافه كما ذكرت في هذا المقال.

أما على صعيد آخر فيشير الدكتور نضال قسوم الى أن أهمية هذا الإنجاز العلمي تكمن في كونه لأول مرة تصل البشرية الى هذا النوع من التصوير الدقيق عالي الدقة، وثانيا في اثبات آخر لنظرية آينشتاين للنسبية العامة، ثم أننا توصلنا الى تكنولوجيا جديدة ورهيبة جدا من خلال ربط التلسكوبات الراديوية الموزعة في أطراف الأرض، وستفتح الخطوة الباب للمزيد من الدراسات حول الثقوب السوداء فائقة الضخامة وكيفية نشوؤها وتفاعلها مع باقي مجراتها وهذا النوع من الثقوب لا زلنا لا نعرف عنه الكثير.

"في البداية افترض آينشتاين وجود ثقوب سوداء وفقا لنظرية، لاحقا كشف هوكينغ المزيد عن علم الثقوب السوداء، آمن كلاهما بالعقل والعلم، واليوم فقط حصلنا على اثبات ما آمنوا به بعد رحيلهم" محمد بن عبد الرحمن.

الفصل الثالث: التعلم
(التعلم الإيجابي من الغير)

يقدم الفصل الثالث:

مقاربة مختلفة في التعلم الإيجابي من الغير...

ترحيب

عندما أخذت الطائرة في الهبوط بمطار تونس قرطاج الدولي، طالعتني مناظر غاية في الروعة والجمال، مناظر خلابة: البحر الأبيض المتوسط ولونه الأزرق الجذاب، حركة الضباب والسحاب، اللون الأخضر والأبيض اللذان يكسوان المدينة، فالعاصمة تونس من فوق كلها خضراء والبيوت بيضاء، يبدو أن الدولة تعشق اللونين (الأخضر والأبيض) ولو اشتهرت باللون الأخضر.

النبات يكسو المدينة بثوب النخيل الذي يزين الشوارع والميادين الرئيسية، والمنتزهات، الأشجار الكبيرة والحشائش الصغيرة تصنع الأناقة في عاصمة تطل على إحدى روافد البحر الأبيض المتوسط، الطبيعة الرائعة هنا في تونس الخضراء وتبدو الصورة أوضح كلما اقتربت الطائرة من الهبوط. دمجت تونس بين الطبيعة الجذابة والحداثة الجميلة في آن واحد، فظهرت أنيقة ومنسقة.

حينما تدخلها أول مرة تطالعك في المطار بعض المعالم الأثرية النادرة والجذابة لتأخذ لمحة خاطفة عن ما تملكه من إرث وثراء تراثي متعدد الثقافات والحضارات. تمد تونس جسرها إلى الماضي حيث تونس إبن خلدون، تونس الزيتونة والقيروان وآثار عقبة بن نافع، تونس قرطاج وحضاراتها المتعددة الضاربة في عمق التاريخ والجغرافيا، تونس "إفريقية" حيث كانت تسمى نظير ما تمثله من أهمية استراتيجية وآفاق علمية وتجارية واقتصادية لطبيعة موقعها الحيوي الرابط بينها وبين دول أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط من جهة، وبينها وبين باقي دول افريقيا كبوابة للدخول إلى قلب القارة السمراء من جهة أخرى، فتواصل امتداد ذلك التاريخ الذي يمتد لمئات أو لآلاف السنين فتزدان به بريقا وازدهارا وتألقا، ولكنها لا تظل أسيرة عنده بل تعيش الحاضر أيضاً حيث تونس الثورة، شرارة الربيع العربي، وعنوان التجربة الديمقراطية الأنجح في العالم العربي، ومن

كل ذلك تستشرف المستقبل الزاهر.

في المطار أيضًا لا تكاد تفرق رجل الشرطة عن عامة الناس من حيث إعطاء التوجيهات بلباقة واتيكيت، هنا لا تجد أوامرا كثيرة وبأسلوب خشن، لا تكاد ترى شرطيا مكفهر الوجه، صعب المراس، ممتلئ كبرياء وعجرفة في التعامل، لكنك ترى الشرطي الإنسان، المبتسم، البسيط، المنظم، الحازم، يتحدث إليك باحترام ولطف ورقي.

لقد حظيت كغيري من الزوار بالمعاملة الراقية لشرطة المطار، تلقيت بسرور من أكثر من موظف أمن ومواطن نفس العبارة الجميلة التي بهرتني عندما سمعتها بشكل مفاجئ أول مرة وبوجوه مبتسمة بشوشة ترحب بي "مرحباً بك في تونس"، ربما يقول قائل الترحيب والبشاشة هي عادة تكون غالبا موجودة في العديد من المطارات في العالم وتقوم بها المضيفات في الطائرة، أوافقه الرأي! ولكن عندما تنتقل هذه العادة الجميلة إلى داخل المدينة وقتها تصبح ميزة إضافية وصورة مشرقة تعكس طبيعة هذا الشعب التونسي المرحة وعقليته المتفتحة على الآخرين واختلافاتهم، فيعاملونهم كضيوف أتوا ليكتشفوا تونس التي سمعوا عن خضرتها وجمالها.

قلت لأحد نقالي البضائع في بوابة المطار "بلادكم جميلة"، تمتم بعبارة سريعة وبدت ملامح وجهه تسود فاستنتجت من تعبيرات وجهه أنه غير راض عن الوضع خاصة ويبدو أنه فقير (زوالي بالعامية التونسية)؛ هكذا طبيعة النفس وبعض المواطنين لا يرون شيئا جميلا في بلادهم أبدا؟ قلت في نفسي تعال وانظر إلينا نحن في تشاد إلى أين وصلنا وستجد الفرق إن لم تكن مقتنعا بكل هذا الجمال من حواليك؟ صحيح أنه من حق المواطنين أن يحلموا ببلد أفضل وأجمل وأن يرفعوا سقف أحلامهم بعيدا، ومن واجب الحكومات والأنظمة المتعاقبة أن تسعى إلى خدمتهم وإلى مزيد من التطوير والحداثة، ولكن حتى لو كانت الهيئة العامة للبلاد جميلة أو الخطوة في مجملها جيدة ستجد البعض يستاء لأنه يراها دون المطلوب وهذا حقه، فما بالك إن لم يحدث شيئا كبيرا مثل حالتنا

نحن؟

يبدو أن السلطات هنا لا تقوم بدور جامع الضرائب فقط بل فيها تطبيق للقرارات والنظام وتقديم العديد من الخدمات ومنها التخلص من أزمة القمامة الحادة التي شهدتها عدد من الأحياء في العاصمة عقب الثورة.

لا يغيب النظام ولا الذوق في التعامل من تصرفات العديد من المواطنين البسطاء الذين أرهقتهم مضايقات الحياة وشظف العيش في الأحياء الشعبية الفقيرة مثلما لا يغيب أيضًا في الأحياء الراقية. المباني في تونس مختلفة عن مبانينا فهي صغيرة وعلى شكل قصور (غرف من فوقها غرف مبنية) حتى بيوت الفقراء كذلك، ربما بسبب ضيق مساحة الجمهورية التونسية في مجملها ولكنها مع ذلك تتفوق على مبانينا من حيث الترتيب والتنسيق في الألوان مع أن بيوتنا واسعة نتيجة للمساحات الكبيرة التي نمتلكها كخامس دولة من حيث المساحة في إفريقيا. في تونس أيضًا يتم ترك أغلب سيارات المواطنين بمختلف أنواعها على الأرصفة أمام البيوت، الدراجات النارية لدينا كثيرة جدا بل أكثر من السيارات، ولكنها هنا نادرة، بل نادرة جدا وتراها كنوع من التجوال أو للمشاوير القصيرة.

الناس هنا لا تبالي بأحد، ولا يبالي الشخص بالآخرين، الجميع يمارسون حرياتهم في اللباس والأكل، والتجوال، منهمكون في أعمالهم وترفيهاتهم في المنتزهات أو المقاهي أو الملاعب. النساء لا تكاد تجد لهن زيا خاصا بهن في فصل الشتاء، بل يلبس معظمهن مثل الرجال، يرتدين القمصان والجينز والملابس الشتوية الضيقة، وكلهم الرجال والنساء والأطفال والعجزة يرتدون تقريبا نفس هذه الملابس المتشابهة وبأنواع وماركات مختلفة، لتعمل على حمايتهم من البرد.

البرد لديهم لا يقاوم، كنت أرجف للحظات من شدة البرد في بوابة المطار فور وصولي العاصمة تونس حيث كانت درجات حرارة ذلك اليوم ٨ درجة مئوية، وكان هذا أول

صدام مناخي لي بكوني من منطقة دافئة لا تكاد تنخفض فيها درجات الحرارة عن عشرين درجة مئوية حتى في فصل الشتاء وموسم الأمطار، ولكن الطقس هنا متغير ويمكن أن تنخفض درجة حرارته لمستويات أدنى وتحت الصفر في بعض المناطق ، ومن الطرائف أنه عندما حضرت إلى السكن الطلابي قلت لهم من شدة البرد "ألا تقفلوا المكيف أو تخفضوه"؟ ضحك البعض وقال أحدهم "الأجواء طبيعية ليس هناك مكيفا مفتوحا"! برد البحر الأبيض المتوسط يقاوم بصعوبة خاصة مع هطول الأمطار بغزارة، حتى الشمس ليس لها مفعول في حضرته، ساطعة وفي منتصف النهار ولا تشعرك بالدفء، بل تشعر بالبرودة.

الحياة هنا مختلفة، والبشر هنا أيضا مختلفون، وكذلك الطبيعة، كل شيء مختلف في الرقي، والنظام، والمناخ، والطبيعة.

حياة جديدة

في أيامي الأولى في تونس، كان لدي متسع من الوقت للقيام بالعديد من الأمور أهمها تحسين لغتي الفرنسية بالمعهد الفرنسي في تونس (IFT)استعدادا لدراسة الماجستير بجامعة قرطاج كلية العلوم ببنزرت سيما وأني وصلت في ديسمبر وكان تسجيلي قد أجل للعام الذي يليه. لدي وقت للقراءة والاطلاع واكتساب مهارات جديدة تعزز من قدراتي، ووقت آخر للتأمل واكتشاف الحياة الجديدة حيث كنت منبهرا بالعديد من الأمور والأشياء من حوالي خاصة وهي أول مرة أسافر فيها خارج البلاد.

من شدة اللهفة للتعرف على الجديد لم التقط أنفاسي وأرتب أغراضي بما فيه الكفاية وأنفض غبار السفر، غبار الوطن الكثيف وغبار الطائرة التي قطعت آلاف الأميال في الأجواء، فكنت أتأمل عبر نافذتي في الطابق الأول من سكن الطلاب التشاديين في حي الإنطلاقة المشاة والطبيعة والطيور، ويزين اطلالتي مرتفع جبلي صغير يدفع إلى عيش المنظر الجمالي بكل تفاصيله في الصباح الباكر وقت مرور النسمات العطرة وصفاء الذهن وتغريد العصافير المحلقة في الفضاء تبحث عن أرزاقها.

أراقب حركات هذه الطيور التي تسير فرادى وجماعات، بأنواعها وألوانها الزاهية، بنشاطها وانسجامها وقدرتها على التفاؤل، غير عابئة بالأمس الكئيب ولا قلقة من الغد المجهول. أتعلم منها كيف يجدد الإنسان نفسه، هوائه، قدراته، ويشحذ همته كل صباح، وأن يدرك نعمة رد الروح له من جديد "الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد إلي روحي وأذن لي بذكره".

أتعلم منها كيف يمكن للإنسان أن يكون فاعلا وسط الجماعة لا تابعا وأن يشعر باختلافاته الطبيعية والفكرية والثقافية عنهم، متساويا في الصف كالصلاة التي تجمع العقول والقلوب والصفوف بينما المصلين هم من انتماءات شتى، طائفية، وعرقية،

وسياسية، من أشكال متنوعة في الطول والقصر، واللون واللباس، والهموم والتطلعات.. أتأملها جيدا، وكيف تضم في صفوفها القوي والضعيف معا فيمثلوا كتلة قوية موحدة قادرة على تخطي مشاق الرحلة الطويلة بنَفَس واحد سويا، ذهابا وإيابا.

لا أتوقف عن التأمل! أحول نظري ببطء إلى ذلك المرتفع الجبلي أتأمل صموده طويلا وأقول: إذا أراد الإنسان أن يكون متفوقا، ينبغي عليه أن يكون صامتاً كالجبل في مقارعة تحديات الحياة، بمعنى أن تكون القاعدة ثابتة وصلبة في مواجهة الأمطار، والرياح، والتقلبات المناخية.

تخيلت رؤية الجبل أيضاً من طرفه الآخر الذي لا يسمح لي بالإطلالة على الحي المقابل مثل قاصري النظر الذين تتوقف نظرتهم للحياة على ما تراه أعينهم فقط، فهكذا هي النفس، بها نظرتين، إيجابية وسلبية، بعيدة وقصيرة، فلا تعودها بالنظرة الضيقة للأمور، بل أجعل فيها مساحة للتأمل، مساحة لترى فيها الجبل بوجهين: وجه يقابل حي الانطلاقة ويمثل الصمود والثبات والقدرة على مواجهة تقلبات الحياة، ووجه آخر يمثل الزاوية الضيقة من الجبل، الزاوية الأخرى المخالفة التي لا تسمح لك بالنظر إلى جمال حي المنيهلة حيث العمارات البيضاء والشوارع المعلقة في بعضها أمام البلدية بعض صور الشباب شهداء ثورة الحرية والكرامة.

الصباح الجديد هو فرصة جديدة للتغيير، لتغيير الإنسان ولتغيير الدول والتحديق في المستقبل، فرصة لتصحيح الأخطاء وتخطي الصعاب من أجل تحقيق الرغبات والأحلام. النجاح له ثمن، وما من شيء إلا له مقابل آجلا أم عاجلا، حتى الفشل والكسل والركود له ثمن، فإما أن تدفع ثمن تذكرة قطار النجاح والتفوق، أو تدفع ثمن تذكرة قطار الكسل والضياع. لا يمكنك أن تتملص من دفع الثمن، فأيهما اخترت من القطارين لرحلتك حتما ستدفع الثمن.

مع حلول كل صباح جديد كنت أتأمل في الحي والمباني والطبيعة والبشر، عودت

روحي الجديدة أن تسبق جسدي إلى الشارع لتكون أكثر قدرة على اكتشاف البيئة الجديدة وقراءة الحياة وجمالها ومطباتها وطرق الإقلاع فيها نحو المستقبل.

حي شعبي

قبل التوجه إلى مدينة بنزرت أقمت في سكن الطلاب التشاديين بحي الانطلاقة في تونس العاصمة بضعة أشهر، وهو حي بسيط ضمن الأحياء الشعبية التي غالباً ما تتميز بالاكتظاظ السكاني في مساحة ضيقة وتظهر عليها علامات الفقر وغياب فرص العمل، ما يجعل الشباب يتسكعون في المقاهي والطرقات، تكون أحيانا هذه الأحياء غير آمنة، يحدث فيها التحرش، والتميز، والسرقة، وغالبا ما تضع عليها الدولة فرقا أمنية تحسبا لحدوث أي حالة شغب أو تكسير أو اضطرابات معينة سيما خلال بعض الأوقات التي تشهد فيها مظاهرات معينة.

يكون هذا الاكتظاظ السكاني بشكل عفوي مثلما هو الحال في بقية الأحياء الشعبية في العديد من دول العالم، أي أن المواطن يسكن حسب امكانياته المادية في الأحياء، فهناك حارات تقع في مناطق سياحية أو لديها مميزات معينة تبقى غالية التكلفة لا يمكن للمواطن البسيط شراء أو تأجير سكن فيها وبالتالي يفضل الأماكن الأقل تكلفة، وهكذا يتجمع الناس في الأحياء حسب وضعهم المادي ليس كما هو الحال لدينا حيث لا توجد مميزات وفروقات كبيرة بين الأحياء تجعل منها أحياء شعبية أو راقية بحكم تقارب الحالة المادية العامة للمواطنين.

ومع ذلك تحظى هذه الأحياء الشعبية في تونس كغيرها من المناطق في الدولة بخدمات عديدة لا حصر لها ولا يمكننا أن نحلم بها في تشاد في الوقت الحالي.

مقومات الحياة

لا ريب في أن مسألة الحديث عن توفير الماء والكهرباء والغاز والمواصلات العامة بات حديثا من الماضي لا جدوى منه لمعظم دول العالم في زمن الذكاء الإصطناعي وثورة

المعلومات وغزو الفضاء، هذه الخدمات متوفرة على مدار الأربعة وعشرين ساعة لا تتوقف حتى فترة الأزمات الكبرى مثل جائحة كورونا التي لم نشهد فيها لا انقطاع للماء ولا للكهرباء ولا للمواصلات العامة ولا للانترنت، لأنها صارت منذ وقت طويل جزء لا يتجزأ من الحياة اليومية المعاشة والتي تقدمها الدولة لشعبها ضمن سلسلة من الخدمات الأخرى في مقابل دفع المواطنين للضرائب والأداءات اليومية أو الشهرية.

تتوفر كل هذه الخدمات في حي الانطلاقة على مدار أربعة وعشرين ساعة، وتكون المواصلات العامة متعددة من حافلات الطلاب إلى الحافلات العامة والقطارات السريعة، والحق إنني أصبت بالدهشة في أيامي الأولى عندما شاهدت الناس يخرجون بسرعة دفعة واحدة وفي اتجاهات متفرقة وكأنهم في مظاهرات عامة حيث لم أرى خروج المواطنين من محطة القطارات من قبل؟ نحن نرى المواصلات العامة والقطارات السريعة في السينما والأفلام والكثيرون منا لا يعرفونها ولا نحلم بها أصلا في الوقت الذي لا تمتلك فيه تشاد إلى الآن مواصلات عامة غير الحافلات المخصصة للطلاب، ولا تتوفر لدينا المياه الصالحة للشرب ولا الكهرباء بشكل يومي وحتى وجود الوقود والغاز متقطع من وقت لآخر مع أننا دولة بترولية منتجة منذ عام ٢٠٠٣م، ولا تعمل حكوماتنا المتعاقبة منذ الإستقلال إلى اليوم على تقديم خدمات نوعية وكمية للمواطن حيث تذهب مقدرات الدولة في تعزيز الجيش والأمن وفي أيدي وفئات قليلة ويستشري الفساد في كل قطاع من القطاعات الحيوية ما يجعلنا خارج سياق الواقع المحلي والحاضر الإقليمي والعالمي.

البنية التحتية والصرف الصحي

لقد تجولت مع العديد من الزملاء التشاديين في حي الإنطلاقة وفي كل من حي العمران الأعلى، وابن خلدون، والمنيهلة، والتضامن، والتحرير، وهي أحياء شعبية متقاربة، مثلما تجولنا في الأحياء الراقية والمتوسطة كحي المنار، والنصر، والبحيرة ١ والبحيرة ٢ وغيرها، كما زرت العديد من المدن السياحية: مدينة الحمامات، سيدي بوسعيد، بنزرت، والمنستير،

والمهدية، ونابل، وبعض القرى والأرياف في ولاية بنزرت. تربط كل الحارات بالقطارات السريعة بينما تربط المدن والقرى والأرياف بالسكك الحديدية والحافلات العامة الكبيرة فضلا عن سيارات الأجرة الخاصة التي يمتلكها المواطنين، وجميعها تحظى أيضاً ببنية تحية جيدة من الطرق والمنشئات حيث الزلط والأسمنت ولا ترى أي أثر بعد هطول الأمطار. لا تمتلئ الشوارع بالمياه ولا توجد برك ومستنقعات مائية تسكنها البعوض، يمكنك المشي أثناء المطر دون أن تتسخ ثيابك وتنام في كل الفضول بدون ناموسية حيث لا بعوض ولا ملاريا ولا تيفوئيد ولا هم يحزنون. أذكر أنني عندما بدأت التسجيل في كلية العلوم ببنزرت طلبت مني مسؤولة الصحة بالكلية عمل فحوصات للملاريا وبعض الأمراض الأخرى حتى تتعرف على مدى وجود وخطورة الأمراض التي يمكن أن يحملها طلاب دول وسط افريقيا من عدمها، وقد فوجئت بأنني لم أجد لها تحاليل في إحدى المستشفيات الحكومية، وعندما سألت تبين لي إن مثل هذه الأمراض التي تقتل الآلاف لدينا سنوياً لا توجد هنا، فهي تأتي نتيجة لغياب الصرف الصحي الأمثل وغياب نظافة المأكولات والمشروبات وهو ما لا يحدث في تونس نتيجة لهذه البنية التحتية والصرف الصحي الجيد ومراقبة نظافة المأكولات والمشروبات في المصانع والأسواق والمطاعم.

وجود الدولة كما نلاحظه هنا أمر ضروري، إذ لابد من توفير الخدمات الأولية لكافة المواطنين في كل مكان بالتساوي والسهر على صحتهم وسلامهتم، نحن بعيدين كل البعد عن توفير هذه المقومات الضرورية التي لا غنى عنها بسبب غياب الدولة وانهماك قادتها في تحصين مناصبهم والتركيز على بيع الأسلحة بدلاً من قطعة الخبز والبنية التحتية والماء والكهرباء والغاز والمواصلات العامة والصحة الجيدة والتعليم الفعال.

مظاهر المدنية

أود أن أشير هنا ولو بشكل مبسط إلى بعض الحالات الإنسانية التي شاهدتها في أيامي الأولى في تونس، والتي أراها نوعا ما غريبة وجميلة، وبعضها يعبر عن فعلاً عن المدنية والرقي.

مشهد غريب

كنا في القطار السريع في إحدى المرات عندما بدأ رجلان يتشاجران لفظيا بصوت عال وبحدة ومرارة قرابة أكثر من خمسة دقائق ملفتة للأنظار استغربت لعدم تدخل أحد الأشخاص لمنعهما كما هو الحال لدينا، ظننتهما يتضاربان في لحظات لأنهما قد وصلا إلى ذروة الصراخ والشجار، لكن ما أدهشني في الأمر أن أحد المتشاجران هتف للآخر قائلاً له (صلي على النبي) فرد الآخر (يرحم والديك) أي -الله يرحم والديك- فانتهى الشجار فجأة وبكل برودة بعدما ملأ القطار ضجيجا، وعادوا وكأنه لم يكن هناك شجارا من قبل أصلا، ولكم أن تتخيلوا هذا المشهد وما فيه من الرقي والسرعة في ضبط النفس، وفي العفو والتسامح والتمدن! وفي مشهد مشابه تشاجر لفظيا عامل في المطعم مع أحد الزبائن فقال الزبون صلي على النبي، وقال العامل يرحم والديك، وانصرف الزبون دون أن يأكل.

قلت في نفسي ماذا لو حدث مشهد القطار ذلك عندنا، ستجد أن أحدهم لا يترك فرصة للآخر فيسبه ويسب أباه وأجداده بل حتى قبيلته لن تسلم من هذا السباب ثم يبدآن العراك مباشرة فإما يسقطه على الأرض أو يطعنه بالسكين هذا إن لم يخرج له مسدساً، ومع ذلك يعتقد أنه مدني ومتحضر؟ المدنية ليست ماركة هاتف غالي السعر في ثوب جميل تجاوره في الجيب الآخر سكينا، وليست سيارة مظللة الزجاج أو عمارات شاهقة ينهي أصحابها مشكلاتهم بالمسدسات لأتفه الأسباب أو تجدها مفروشة على

الأرض لتخويف الآخرين، المدنية ليست في اقتناء أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا وما توصل إليه العالم في هذا المجال أو ذاك فقط؟ بل هي سلوك في الأساس ورقي وذوق في التعامل مع الإنسان المخالف لك وتقبل الآخر ومراعاة للبيئة من حواليك إلى جانب الاستخدام الأمثل لكل تلك الأجهزة والصناعات الحديثة، نحن في الأعم الأغلب لسنا مدنيين وإن كنا متحضرين، لأن المدنية أرقى من الحضارة، وإن كان البعض يختزلها في اللباس والمقتنيات الجميلة من حوله، المدني شخص لا يمكنه شتم الآخرين أو التعالي عليهم، ولا يغلق عليهم الطريق بسيارته الفارهة أو بدراجته النارية، ولا ازعاجهم بنغمة جواله الصاخبة، لا يعنف المرأة ولا الطفل ولا الضعيف ولا الحيوان، لا يقطع شجرة بشكل عشوائي، ولا يرمي القاذورات في كل مكان، أو يتجاوز إشارات المرور بينما هي لا زالت حمراء في غياب شرطة المرور، المدني إنسان لا يعبث بممتلكات الدولة العامة ولا بممتلكات الآخرين الخاصة، هو شخص فاعل بطبيعته بسيط في التعامل وذو مبادئ وحقوق وملتزم بتأدية الواجبات المفروضة عليه، راقي بفهمه وسلوكه يعرف ما يفعله سواء لمصلحته أو لمصلحة وطنه.

وبقدر ما تكون الحضارة تغيير في الأشياء من حولنا في المباني والمنشآت العملاقة وأحدث ما توصل إليه الإنسان في العلوم والثقافة وفي الصناعات الحديثة في مختلف المجالات، تكون المدنية ترجمة عملية للاستخدام الأمثل لتلك الصناعات وللاستفادة القصوى منها، وللتوجيه الأفضل للعلوم والمعارف، وبمعنى آخر، المدنية طاقة روحية ومعرفية متجددة تظهر تغيرا إيجابيا في السلوك اليومي للإنسان، وفي تعامله مع المحيط، وقد لامست ذلك في المجتمع التونسي، ليس ثناء عليه وجلدا لنا، ولكن هي بعض من حالات التعامل الإنساني واقعة في مجتمعين مختلفين، ليس على سبيل المقارنة وإنما على سبيل تعديل السلوك والتعلم الإيجابي من الآخر، إذ ليس هناك مجتمعا كاملا كل شيء فيه مشرق والعكس صحيح.

مشاهد ثنائية جميلة

وفي مشاهد أخرى جميلة ورائعة من الثقافة التونسية اليومية، أنك ترى صاحب السيارة يقف للمشاة ليعبروا الطريق بينما يمنعك صاحب الدراجة النارية من المرور في حالتنا، ترى الرجل في تونس يأخذ بيد زوجته ويخرجون للتجوال والأب يأخذ بيد ابنته، الإبن يأخذ بيد أمه، الأخ يأخذ بيد أخته، الخطيب بيد خطيبته، تراهم متماسكين إثنين اثنين في محطة القطار وفي المحلات التجارية والمستشفيات والمطاعم وغيرها من المحلات. مشاهد تظهر فيها المودة والرحمة والأثر الإيجابي على الرجل وعلى المرأة أكثر بحكم طبيعتها التي تتطلب الكثير من الاهتمام والرعاية فهي رقيقة المشاعر تحب من يقدرها ويعاملها بلطف ولا يقسوا عليها، فتزداد الفتاة فخراً بأبيها أو بأخيها أو بزوجها دون حرج لأنهم لا يعاملونها برقي فقط، بل يتفننون أيضاً في تقديم الورد والهدايا التي تجلب لها السعادة.

سؤال يتبادر إلى الذهن كم مرة ظلمنا المرأة نحن؟ قد يتحجج البعض بتعقيدات المجتمع ويرى مثل هذه المشاهد نوعا من الانحلال أو الترهات أو إضاعة الوقت، لكنها ليست كذلك! وبعيدا عن المقولة الشائعة لدينا (المرأة رأسها قوي، أو راسها يابس)، هل تتلقى المرأة عندنا مثلا كلمة طيبة عندما تطبخ جيدا أو تقوم بمجهود في البيت فضلاً عن الأخذ بيدها لتعبر الطريق؟ كم من متزوجة تلقت من زوجها هدية أو وردة مثلا؟ أعتقد بأن الإجابة غالبا ستكون لا إذا ما سلمنا أولا بالتهجم والكلمات النابية التي تصدر من الرجال نحو النساء لأتفه الأسباب، فضلاً عن العنف الممارس ضدها ولا يمكن تبريره في أي نطاق؟ كما أن المرأة غير المتمدنة عندنا هي الأخرى لا تحفز الرجل لخوض هكذا تجربة، لعل بسبب ما يعتريها من تردد وحياء، فهي اعتادت على القهر وسماع الكلمات غير اللائقة من بيت والدها ولذلك تتفاجأ إن حصل العكس، أو تجدها متمادية أحيانا إذا كانت من المتعلمات فتطالبك بالمزيد فوق طاقتك، ولذلك يهملها الرجل ولا يصطحبها إلا نادرا أو مضطرا كالذهاب معها إلى المستشفى أو إلى بيت والدها أو إلى الجامعة.

قد يقول قائل بأن لكل مجتمع عاداته وتقاليده فلم هذا الإصرار؟ هذا صحيح فنسبة قبول هكذا تمدن أو عادات جديدة تتفاوت من شخص لآخر، لذلك أردت الإشارة إلى مشاهد تدعوا إلى المحبة والألفة والتفاهم والمودة التي نحن بحاجة إليها (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الروم الآية ٢١).

مجتمع منفتح

معاملة الآخر

المجتمع التونسي مجتمع منفتح على الآخرين بفعل عوامل عديدة، منها أن تونس شهدت تداخل للثقافات خلال تاريخها البعيد، وفي الحاضر هي دولة سياحية تستقطب الكثير من الجنسيات سنوياً منها السياحة الطبية العلاجية التي تدخل العملة الصعبة للبلاد، وكذلك وجود الطلبة الأجانب الذين يتوافدون سنوياً للتعليم العالي في مختلف المجالات بحكم جودة التعليم لديها، حيث قطعت أشواطا كبيرة في التعليم والصحة مقارنة مع العديد من الدول العربية والإفريقية وهي مميزات تجعل من وجود الشخص الأجنبي في مختلف المدن والحارات أمرا طبيعيا يعايشه المواطن التونسي طوال حياته.

لقد عشت في تونس سنوات ولم أشعر مرة بالتمييز بسبب لون بشرتي، صحيح هناك حالات تمييز موجودة ولكنها قليلة وليست بالدرجة التي يتم تسويقها في الإعلام العالمي، ففي كل مجتمع هناك أناس سيئون وهذا شيء طبيعي ولا يطغى على سلوك الأغلبية، بل إني وجدت الكثير من الترحيب والمساندة كوني طالب أجنبي وأتذكر المعاملة الطيبة وبعض المواقف الجميلة التي لن أنساها ابدا سواء في تونس العاصمة أو في بنزرت. ثم إن لساني العربي جعلني قريب من التونسي حيث أتحدث العامية التونسية بطلاقة ولذلك يعتبرني البعض وحتى الأطفال تونسي خاصة من قابس وهي مدنية في تونس سكانها تونسيون يغلب على لون بشرتهم اللون الأسمر (مثل لوني)، وهناك من يعتبرني موريتانيا أو سودانيا المهم لا يتخليون ابدا كوني من تشاد لأنهم لا يعرفون الشيء الكثير عن تشاد وأن لهجتنا العامية هي العربية نتواصل بها في كل تراب الجمهورية نتيجة عوامل عديدة منها وجود قومية عربية ومنها أن اللغة العربية هي لغة رسمية في الدستور التشادي مع اللغة الفرنسية وتدرس كذلك في المدارس والمعاهد والجامعات الرسمية

والخاصة والخلاوي القرآنية.

يغلب على التونسي الانفتاح على الآخر لمعرفة بلاده وعاداته وثقافته المختلفة فيسألك عن عاداتكم في الأكل والزواج واللباس والثقافة والتعليم والسياسة والتجارة بحكم المستوى التعليمي ودرجة الوعي التي وصل إليها.

اللهاث وراء الثقافة الغربية

من جهة أخرى هناك انفتاح تونسي أرى في بعضه نوعا من السلبية، حيث إن جذور الثقافة العربية والإسلامية في تونس الضاربة في التاريخ والجغرافيا، تبدو جلية أنها ما تزال تتعرض لهزات شديدة في العمق، بفعل العولمة وعدة عوامل أخرى منها الرواسب الاستعمارية التي خلفت بكل ما في الثقافة الفرنسية والأوروبية والغربية من انبهار وتقليد دون التوقف لغربلتها وفرز الصالح من الطالح منها.

ومع أن التونسيين استفادوا كثيرا من الثقافة الفرنسية والأوروبية في مجالات التعليم والصحة والصناعة والسياحة وغيرها من ضروب العلوم والمعارف، إلا أنهم مع الأسف الشديد كدولة، الأغلبية الساحقة من سكانها مسلمين، أخذوا سلبيات تلك الثقافة أيضا، فانخرطوا حتى النخاع فيها، فتجد الحرية الفردية بالمعنى السلبي للكلمة، حيث مظاهر التعري والاختلاط في كل شيء والانفلات من قيم الستر والحياء كموضة عصرية تكتسح شوارع تونس، حتى إن البعض يصف كل من يدعو إلى الحشمة والستر والقيم بأنه رجعي يمارس خطابا رجعيا يدفع بالمجتمع إلى عصور الظلام والجهل، ويتعرض لحملات شرسة تحمله إخفاقات لا حصر لها، وهذا لا يعفي المجموعات السياسية والدينية المتشددة من تحمل مسؤولياتها تجاه تصرفاتها السلبية في المجتمع التي تحتاج هي الأخرى لمراجعات في العمق.

في مطلع شهر رمضان المبارك لعام ١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٨م، عرضت قناة فرانس ٢٤ مظاهرة ضمت شباب وكهول في وسط العاصمة تونس، أكلوا وشربوا في وضح

النهار وطالبوا الدولة بفتح المطاعم والمقاهي لأن "الصيام مسألة حرية دينية فردية" برأي المتظاهرين، ومما لا شك في أن مثل هذا التصرف قد نبع بفعل الدعوات المنادية باللهاث وراء ثقافة التحرر من القيم، وفرز السلوك عن المعتقد، وهناك ما يسمى في تونس أسوة بالثقافة الغربية ب" المسلم غير المطبق musulman non pratiquant "، أي مسلم اسما لكنه لا يؤدي الصلاة ولا يصوم، وهم كثر في الحقيقة.

تنتشر مثل تلك المطالب من حين لآخر، كمطالبة الأقلية المثلية خلال مظاهرة لها بإلغاء القوانين التي تجرم المثليين بعد أن استطاعوا تأسيس أول جمعية للمثليين الجنسيين في العالم العربي في تونس، في إطار السعي لممارسة الشهوات وتحقيق الأهواء والمجاهرة بها دون أي اعتبار للفطرة والقيم الدينية والإنسانية وقيم الشعب التونسي، حتى أن أحد سائقي التاكسي قال لي ذات مرة بشأن هذا الانبهار والتقليد الأعمى للغير لدى البعض "لدينا انفصام في الشخصية، ولذلك ترى أشكالا من الانسلاخ من القيم العربية والإسلامية إلى القيم الفرنسية والأوروبية والغربية، وأن عددا لا يستهان به من المواطنين ينظرون إلى الثقافة العربية والإسلامية على أنها نوع من التخلف والرجعية"؟

تراجع اللغة العربية

تعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة للجمهورية التونسية بنص دستور الثورة عام ٢٠١٤م، إذ جاء في الفصل الأول من الباب الأول أن "تونس دولة مدنية ذات سيادة واستقلال، ديانتها الإسلام، ولغتها العربية، -لا يجوز تعديل هذا الفصل".

أما في الواقع فالسيطرة للغة الفرنسية على مختلف الإدارات الرسمية ومجالات الصحة والسياحة والتعليم، وأغلب التخصصات تدرس في الجامعات العامة والخاصة باللغة الفرنسية، إضافة إلى الإهمال الملاحظ للغة العربية في الخطابات الرسمية التي تستخدم غالبا اللهجة المحلية بشكل كبير. تجاوزت الفرنسية الجوانب الرسمية إلى الشعبية من خلال استخدامها بشكل ملحوظ إلى جانب اللهجة العامية في المعاملات اليومية بحكم

أن الفرنسية تدرس إلى جانب العربية والعديد من اللغات الأخرى في سن مبكرة في التعليم، وهذا شيء جميل يجعل من الفرد متعدد اللغات في عصر يشهد إقبالاً على تعليم المزيد من اللغات الأخرى. طبعاً مع ذلك لكل مجتمع هوية خاصة به فكما أن الدولة الفرنسية على سبيل المثال لا تستخدم لغة أخرى في إداراتها سوى لغتها الرسمية يمكن لتونس أيضاً فعل ذلك مراعاة لطبيعتها وهويتها كدولة عربية وهذا لا يقلل من أهمية تعلم المزيد من اللغات الأجنبية واستخدامها.

وإذا كانت المنظمات المدنية والأحزاب السياسية المدافعة عن اللغة العربية لدينا في تشاد تعمل في جبهة واحدة فقط وهي مسألة تطبيق الثنائية اللغوية في الإدارة، فإن مدافعو اللغة العربية في تونس يعملون في اتجاهين اتجاه واحد بسبب الدعوات الصريحة المنادية بتبني اللهجة المحلية عوضا عن اللغة العربية الفصحى التي ينص عليها الدستور وآخر بسبب الإستخدام الواسع للفرنسية، فدعت الكتلة الديمقراطية (مجموعة أحزاب معارضة) إلى تقديم مبادرة تشريعية لمجلس نواب الشعب في فبراير ٢٠١٨م، تتكون من ١٨ بندا لترسيخ اللغة العربية وإلزام المؤسسات الحكومية والوزراء وموظفي الدولة بالتقيد باللغة العربية في الخطابات والمراسلات الرسمية محاولة منها لتدارك الوضع قبل فوات الأوان.

تقدم المرأة

المرأة هنا تتمتع بحرية كبيرة في التصرف في حياتها بفعل هذا الانفتاح، وتضمن لها القوانين الوطنية مساحات شاسعة من حرياتها وحقوقها وواجباتها، ويشجعها المجتمع على تقليد الكثير من النماذج الغربية في اللباس والتعري والانحلال والتجوال مع الرجل كيفما تشاء ووقتما تشاء، تأكل الساندويتش وهي تمشي في الشارع ذاهبة إلى دراستها أو عملها تماما كما يفعل الرجل، ولقيت دعوة الرئيس الباجي قائد السبسي لمساواة المرأة مع الرجل في الميراث صدى إيجابي من بعض العلماء والنساء ودعاة التحرر من الليبراليين

والإعلاميين والمثقفين، وبغض النظر عن النقاش المثار حول هذه المسألة، فإن المجتمع التونسي أعطى المرأة حقوقا كثيرة غير مألوفة على الأقل في مجتمعنا الذكوري الذي يضطهد المرأة، بل هي هنا أوفر حظا من الرجال والشباب العاطلين، حيث تستقطب الدولة والقطاعات العمالية الخاصة عددا كبيرا من الفتيات والنساء بسبب كفاءتهن في مقابل تسكع الشباب دون عمل في المقاهي لشرب السجائر والشيشة ولعب الورق.

المرأة هنا ليست مساوية للرجل بل متفوقة عليه في بعض الأحيان، وهي نفسها في تونس أكثر نضالا وطموحا من كثير من الرجال، تتعلم كثيرا وتصبر وتثابر وتتدرب وتعمل باجتهاد وإتقان في البيت والعمل وتشارك الرجل مادياً في الشؤون المنزلية، ولذلك تجدها منافسة له في مهن كانت حكرا على الرجال في مجتمعنا على أقل تقدير، فتجدها سائقة للتاكسي وسائقة للحافلات الكبيرة، وسائقة للقطارات السريعة، وتعمل في ميكانيكا تصليح السيارات، فضلاً عن عملها في المطاعم والفنادق، أو تبيع ملابس رجالية، أو صحابة محلات تجارية أخرى، ووجودها في البنوك والمستشفيات والمدارس ومختلف المؤسسات العامة كالوزارات والبلديات والشرطة والدفاع والطيران وغيرها، تجدها في كل مكان، هنا المرأة كاتبة مثقفة وواعية تقود الجمعيات والمنظمات وتفوز بالانتخابات البرلمانية والبلدية وترأس الحكومة وتقود المظاهرات والاحتجاجات وتغير الكثير في المجتمع.خلاصة القول، ان المجتمع التونسي هو مجتمع ذو عقلية متفتحة بكل معنى هذه الكلمة من إيجابيات وسلبيات، نتفق مع هذا الانفتاح أو نختلف فهذا أمر آخر، لكنه انفتاح ساهم مساهمة كبيرة في تقدم البلد في مجالات حيوية عديدة ومختلفة، وأتاحت ثورة الياسمين "كما يطلقها البعض على الثورة التونسية" هامشا كبيرا من الحريات والحقوق الفردية والجماعية بعدما كانت مقيدة، إلا أنه من جهة أخرى كشف هذا الانفتاح حجم التمييع واللهاث وراء كل ما هو جديد من الثقافة الأوروبية والغربية عموما ولو كان ذلك طالحا هداما، ففقد المجتمع التونسي من خلاله جزء من كينونة قيمه ومعتقداته وذاب في الآخر.

استمتاع بالانتحار

كانت أغنية ساندرا حاج (دوا النسيان) تتردد بكل أناقة صباح مساء تحت أضواء "مقهى قرطاج" الخافتة، حيث كنا مع الزملاء نرتاده كثيرا، نشعر بالمتعة فيه ليس بسبب خدماته فقط، بل لأننا وجدنا أنفسنا بداخله أكثر من أي مقهى آخر في حي الإنطلاقة، ربما بسبب (دوا النسيان)، أو بسبب ذوق الشاي اللذيذ الذي يشبه طعم الشاي لدينا في تشاد، حيث كان يتفنن فيه المقهى شبه الوحيد من بين مقاهي الحارة، وعندما رجعت إلى البلاد كان أول شيء افتقدته هو المقهى.

لم تكن لدينا مقاهي مثل مقاهيهم، لدينا "الكاريفورات carrefours" التي تعج بالشباب فاقدي العمل، ولكن المقاهي هنا أيضا (كاريفورات) توحي بتزايد نسبة البطالة وتكدس الشباب. لهذه المقاهي سحر عجيب، فعندما تأخذ طاولة لاحتساء الشاي أو القهوة سرعان ما تتدفق إلى عقلك حزمة من الأفكار التي لن تكونها في أي مكان آخر، شخصيا أدخل المقهى لاحتساء الشاي أو القهوة ولقضاء وقت من الراحة النفسية والمتعة مثلما أدخله لمراجعة الواجبات الدراسية، بات المقهى جزء لا يتجزأ من يومياتي في تونس حيث أقضي أوقات للتفكير والتأمل والسمر مع الأصدقاء، وللقراءة الحرة أيضا فمع أجواء الموسيقى الصاخبة وارتفاع الأصوات هنا وهناك استوعبت عددا من الكتب فيها أكثر من تلك التي قرأتها في جو البيت الهادئ!.

التونسيون يرتادون المقهى بكثرة، حتى صار جزءا من عاداتهم اليومية وثقافتهم، ففي امتداد كل شارع (نهج كما يسمونه) تجد عددا لا يحصى من المقاهي، وعندما يدعوك صديقك لاحتساء الشاي أو القهوة فإنه لا يدعوك إلى منزلهم كعادتنا نحن، بل يدعوك إلى إحدى المقاهي الفاخرة، حتى في رمضان رأيت البعض ينتظر الآذان في المقهى ليبدأ باحتساء قهوة أو سيجارة، طبعا حتى المباريات الرياضية تشاهدها في المقهى فهو مكان

اجتماعي فريد من نوعه لا يمكن الاستغناء عنه وجميع المقاهي تضج بالناس ليلا ونهارا.

لكن مع كل تلك الإيجابيات، يصبح المقهى بيئة تحتضن سلبيات ضارة تؤدي إلى الانتحار الجماعي البطيء، عند أول دخول لي فيه لمشاهدة مباراة "باريس سان جارمي وبايرن ميونخ" في دوري أبطال أوروبا كانت رائحة السجائر والشيشة تغطي المكان وتتصاعد من السقف حيث كان مليئا بالمشاهدين، قلت للزميل حسن، كيف لنا أن ندخل هذا المكان، فقال "عليك التعود، فمعظم المقاهي هكذا فإما نشاهد المباراة أو نرجع"!، في تونس تجد شرب السجائر كشرب الماء في كل مكان، بل تتخذ كنوع من الموضة الجديدة والحداثة؟ المدخنون لدينا يتوارون ثم يأتون وقد ذهبت الرائحة أو تكاد، أما هنا بعدما تخرج من البيت فرائحة السجائر لا تفارقك، في المحلات التجارية ينفث فيك صاحب المحل دخانا من سيجارته وهكذا في المطعم وفي بقية الأماكن الأخرى.

أذكر أنه بينما كنت بمقهى قرطاج منهمكا في قراءة كتاب (وطن من كلمات، للصحفي عبد الباري عطوان) اتخذت فتاة إحدى الطاولات المجاورة لي مكانا لها، وتظهر في تعبيرات وجهها علامات التوتر والضغط، تطفلت عليها فأحصيت لها عشرون قنديلاً من السجائر شربتها وعدد من أكواب القهوة المرة احتستها في فترة لا تقارب ساعتين فقط، قد يقول قائل إن كل ما ذكرته مسألة شخصية لا دخل لنا فيها، مبدئيا أوافقه الرأي، لكنه عندما تتحول مثل هذه الحالة إلى ظاهرة عامة مدمرة للمجتمع فأعتقد بأنها تثير الكثير من التساؤلات المشروعة إذا كانت هناك إحصائيات مقلقة حواها تقرير صحيفة الشروق التونسية في عددها الصادر في ٣١/ ٠٥/ ٢٠١٨م من أن "تونس تحتل المرتبة الأولى عربيا في نسبة المدخنين الذكور، وتكمن الخطورة في احتمال إصابة نصف سكانها من الذكور بأمراض قاتلة كالسرطان وأمراض القلب وانسداد الشرايين والربو وسرطان الرئة وسرطان الحنجرة والمريء والفم والضعف الجنسي، ويتسبب التدخين في وفاة ١١ ألف تونسي سنويا، وأن ٧ آلاف طفل تونسي أعمارهم بين ١٠ و١٤ سنة وواحد مليون كهل يدخنون بمعدل علبة سجائر يوميا أو ما يعادلها من باقي انواع التبغ كالشيشة، وتمثل

نسبة الوفيات بسبب التدخين تقريبا ٢٥٪ من مجموع وفيات الذكور، بينما تمثل ٨ بالمائة من مجموع وفيات الاناث، فيما يؤدي التدخين بحياة ١٧١ تونسيا أسبوعيا".

تشير كل هذه المعطيات المقلقة إلى الانتحار الجماعي البطيء، والذي تكون المقاهي إحدى أكثر الأماكن المهيئة له حيث تشهد تعاطيا مكثفا للسجائر والشيشة، وكأن المستمتعون بذلك ينتقمون من الحياة بمزيد من تعاطي التبغ والمواد الكيميائية المحشوة في السجائر والشيشة والتي تعتبر خطرا حقيقيا على الصحة العامة.

كما أن مغامرة التوقف عن ارتياد المقهى بالنسبة للغرباء أمثالنا من جهة أخرى تعتبر مغامرة جريئة في حد ذاتها تزيد من فرص التعرض للضغوط النفسية والتوتر من وقت لآخر ولا تقل خطرا على صحة الإنسان. إذاً في كلتا الحالتين هناك عواقب يصعب تحملها، خاصة إذا كانت باقي الأماكن لا تقل خطرا عن هذه المقاهي في تلويث الهواء بتلك المواد الضارة والتي تؤدي مع الوقت إلى أضرار صحية وخيمة لغير المدخنين أيضاً "التدخين السلبي" فضلا عمن يختارونه كنوع من خيارات استمتاعهم بالحياة وهو استمتاع بالانتحار التدريجي البطيء.

عروس الشمال

"ضفة المرجان، لؤلؤة المتوسط، عروس الشمال،.." أسماء يطلقها سكان مدينة بنزرت عليها، فهي مدينة سياحية مبهرة تقع شمال العاصمة تونس في حدود ستين كيلومترا وتفتح في البحر الأبيض المتوسط الذي يزيدها رونقاً وجمالاً.

وأنت تتوجه من العاصمة نحوها، لا تتوقف عينيك عن رؤية امتداد الطبيعة الخلابة والمزارع على الجبال ومراوح طاقة الرياح المتجددة وشم النسيم الفواح خلال أربعين دقيقة بالسيارة، مسافة تقطعها دون أن تدري ولحظات لن تسمح لك بتفقد جوالك أو الدخول في عالم التواصل الإفتراضي بينما أنت تتواصل مباشرة مع الطبيعة وتستمتع بروعتها. تستقبلك المدينة بمياه البحر الزرقاء وخريره وأمواجه وبالطقس الجميل البارد وكأنها تقنعك بأن ما رأيته في الطريق كان بمثابة الإفتتاح لهذا الجمال الأخاذ والهدوء الذي تتمتع به.

كنز سياحي لا مثيل له

تجد في بنزرت آثار تاريخية قديمة، ومدينة للألعاب، ومرسى قديم للسفن أصبح مكانا سياحيا جميلاً يجلس على مقاهيه ومطاعمه التي تفوح منها رائحة الماء ومحلاته العديد من الزوار، تكون المدينة مزدحمة في الصيف أكثر لتوافد السياح إليها بكثرة في مقدمتهم الجزائريين والأوروبيين للتمتع بهوائها النقي وبحرها وهدوئها.

لؤلؤة المتوسط مدينة صغيرة نسبيا من حيث المساحة كعادة تونس في مساحتها الكلية الصغيرة، ولكن أثرها السياحي والاقتصادي كبير وربما السياسي أيضاً بفعل رمزية مغادرة آخر جندي فرنسي للأراضي التونسية بعد الاستقلال كان عبرها في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٦٣م، وقد خلد ذلك اليوم وأصبح مناسبة وطنية بعد الثورة يحتفلون

بها سنويا تحت مسمى "عيد الجلاء".

تعتبر وزارة السياحة التونسية أن "مدينة بنزرت كنز سياحي لا مثيل له في المنطقة العربية اليوم، حيث تزخر بمنتوج ثري متنوع وبسواحل طولها (٣٠٠ كم) وتمتاز بالشواطئ الخلابة والرمال الذهبية والخضرة الدائمة، وفي أجزاء منها تداعب خضرة الجبل مياهها المتوسطية الرائعة".

كسكروت لبلابي

من مميزات بنزرت السياحية أيضاً والتي لا توجد في كل الأراضي التونسية أكلة شعبية مشهورة تسمى كسكروت لبلابي، كسكروت بالتونسية تعني "شندويتش" أما لبلابي فهو خليط مكونات غذائية تحشى في الخبز: (حمص، وسمك التونة أو سمك السردين، وحبات زيتون سواء أخضر أو أسود ومعها فلفل جاف وكمون وثوم وبيض وزيت زيتون وهريسة، والهريسة كلمة مغاربية تعني الشطة الحارة) يؤكل هذا الكسكروت بكثرة في فصل الشتاء حيث البرودة القارسة وهطول الأمطار بغزارة وازدياد ارتفاع مياه البحر. ومثلما يستهلك التونسيون السجائر بكميات كبيرة يأكلون الحار أيضًا بشكل رهيب، فكلاهما يتم تناولهما بكثرة مثل شرب الماء في أي وقت.

أذكر أنه في أيامي الأولى ذهبت إلى احدى المطاعم في تونس العاصمة ولم أعرف أي وجبة يمكنني أن أطلبها، جاءني النادل بقائمة المأكولات وشجعني على طلب وجبة صحفة "لبلابي" وهي تختلف قليلا عن كسكروت لبلابي، فكسكروت لبلابي هو شندويتش كما أشرت وهو لا يوجد إلا في بنزرت فقط، أما الوجبة فهي منتشرة في مختلف المدن التونسية وتؤكل ساخنة وحارة جدا في فصل الشتاء أيضاً، لم أستطع مطاوعة طعم الوجبة بسبب الشطة الحارة والبيض النيء حيث لم أتعود على ذلك من قبل (ليس من ثقافتنا أكل البيض نيء والحار بكثرة)، أخذت منها لقمتين أو ثلاثة فقط وتوقفت، حاول صاحب المطعم تشجيعي على إتمام الوجبة ولكني لم استطع فدفعت المبلغ وخرجت من

المطعم جائعا. ورغم مكوثي سنوات في تونس إلا أنني لا زلت إلى اليوم لا أستطيع آكلها بينما صرت من عشاق كسكروت لبلابي في بنزرت حيث تأقلمت معه بسرعة.

كلية أمام البحر

تطل كلية العلوم ببنزرت الواقعة في منطقة جرزونة التي تتبع لولاية بنزرت على إحدى روافد البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الميناء البحري والجسر المعلق المتحرك الذي يربط بين جرزونة ومدينة بنزرت. يفتح هذا الجسر الجميل في الليل لمرور السفن الكبيرة ذهاباً وإياباً ويغلق في النهار لمرور المشاة والسيارات والدراجات وسط منظر سياحي خلاب ومشهد غاية في الروعة والجمال والهدوء، يتيح لك أن تؤلف كتابا أو تكتب قصة أو تقول شعرا لشدة جذبه وأنت ترى الأمواج ترتفع وتنخفض والأسماك تتعالى وتهبط والسفن تأتي وتذهب والصيادون والجالسون والمقاهي والمطاعم والمحلات التجارية على امتداد أطراف الشاطئ.

تتبع الكلية لجامعة قرطاج إحدى المؤسسات العامة، وتقوم بإجراء العديد من البحوث العلمية والتأهيل الأكاديمي مخصصة لدراسة العلوم التجريبية والتكنولوجيا، تحتوي على مراحل الليسانس والماجستير والدكتوراه وما بعد الدكتوراه في مختلف المجالات العلمية المنضوية تحت ستة أقسام هي (قسم الأحياء، قسم الجيولوجيا، قسم الرياضيات، قسم الفيزياء، قسم الكيمياء، قسم الحاسوب والالكترونيات أو كما يسمونه بقسم الإعلامية)، يوجد في كل قسم عدد من الفروع، فمثلاً قسم الأحياء لديه فروع للعلوم الوراثية والنباتية والحيوانية والأغذية والمناعة والكيمياء الحيوية والتكنولوجيا الحيوية وغيرها.. تلقينا خلال دراستنا للماجستير في قسم الأحياء تخصص السلامة الصحية للأغذية أحدث ما توصلت إليه العلوم في المجال مع التطبيق العملي، كنا نجري أبحاث وأعمال تطبيقية في مختبرات الكلية أو في شركات الأغذية كما نقوم بزيارة المراكز الوطنية المتخصصة في الزراعة والثروة السمكية والحيوانية مع أساتذة متخصصين

وخبراء في المجال.

في تشاد تفتقر جامعاتنا وكلياتنا ومراكزنا للمختبرات العلمية الحديثة التي تمكن من إجراء دراسات ميدانية تسهم في إيجاد حلول لقضايا المجتمع من واقع البحث العلمي الجاد والمحكم فضلا عن نقصان الكادر البشري المؤهل، لذلك حرصت على تعلم أكبر قدر ممكن مما هو متاح أمامي من إمكانية إجراء البحوث والدراسات العلمية والتدريب المهني لكي أعود إلى الوطن ببضاعة جيدة جديدة تساعد في حل بعض قضاياه في المجال. من واجب الطالب عندما يدرس في الخارج أن يتزود بالكثير من العلوم والمعارف والمهارات اللازمة للتطوير والتأهيل والتي لا تتوفر في بلاده أو لم تكن مواكبة بالصورة المطلوبة.

تقدم الكلية أيضًا العديد من الخدمات الأخرى كحافلات الطلاب وسكن ومطعم جامعي يقدم وجبتين خلال اليوم طوال العام الجامعي، إضافة إلى مركز المهن وإشهاد الكفاءات (4C–Bizerte) الذي يقوم بتدريب وتأهيل الطلاب وتمكينهم من بعض المهارات التي يحتاجونها في سوق العمل مثل دورات في أساسيات الإدارة والقيادة وريادة الأعمال وكتابة السير الذاتية المهنية والإلقاء والإنصات وغيرها من المهارات المطلوبة.

لا يمكنني الحديث عن بنزرت وروعتها والكلية وتأهيلها دون أن أتطرق إلى العلاقات الإنسانية والمهنية المتميزة، من الدعم والتوجيه الذي وجدته من الدكتورة شيراز عباس رئيسة القسم والدكتور عماد معتوق رئيس مركز المهن وإشهاد الكفاءات الذي كان ينادي ب"وزير تشاد القادم" وكذلك الدكتور حاتم فخفاخ مشرفي في بحث التخرج والدكتورة أمينة مسؤولة شؤون الخريجين التي أخرجت لي الدبلوم في يومين بعد أن ناقشت رسالتي "متابعة جودة القمح الصلب المحلي من الاستقبال حتى الخروج بديوان الحبوب في تونس" وعلى ضوئها حصلت على تقدير جيد جدا. ساندني العديد من الزملاء أيضًا على رأسهم الزميلة الرائعة والإنسانة الطيبة مريم عثمان التي قدمت

لي الكثير من التوجيه في الأيام الأولى، والزميل الموريتاني الرائع عبد الرحمن ديوب الذي عشنا معه أياما جميلة في الكلية والمدينة التي تعرفنا شوارعها وحدائقها ومطاعمها ومقاهيها وأسواقها رفقة الزميل الرائع فارس رحالي. أيام من التعب والجهد والخوف والقلق الإيجابي والأمل والكفاح اليومي للدراسة في مدينة باردة جدا وجميلة جدا تظل خالدة في ذاكرتي ومن أكثر تجاربي في الحياة التي أعتز وافتخر بها كثيرا، اكتسبتها من هذه اللؤلوة الفريدة عروس الشمال المدينة التي أعطتني كل شيء من العلم والأصدقاء وتوفير أسباب الرفاهية والجمال في أبهى تجلياته.

تلاقي الثقافات

الصحراء تفتتح التراث

كان طقس يوم الجمعة الثالث من مايو لعام ٢٠١٩م ملائما بعد زخات مطر صباحية، وكانت السماء قد تلبدت جزئيا بالغمام عندما قرب المساء أن يحل على كلية العلوم ببنزرت، كنت وقتها قد فرغت للتو من المشاركة في "دورة إدارة المخاطر البيولوجية" التي نظمتها الكلية بالتعاون مع "مركز المهن وإشهاد الكفاءات" هناك قابلت الزميل عبد الله شوماد رئيس رابطة الطلاب الموريتانيين ببنزرت حيث دعاني لاكتشاف موريتانيا من داخل مدرجات الكلية، من خلال الحفل الثقافي الذي نظموه لهذا الخصوص.

ارتدى الطلاب الموريتانيون في الحفل لباس تقليدي مثلما يوجد لدينا بطرق تطريز مختلفة، بينما ارتدن الطالبات "لفاعة" وهو لباس محتشم تلبسه المرأة التشادية أيضًا. عرفت ذلك من أول يوم دخلت فيه الكلية عندما رافقتني إلى قسم علوم البيولوجيا طالبة موريتانية كانت ترتديه، فهو لباس مشترك بين نساء دول افريقيا جنوب الصحراء وموريتانيا.

كان عرض الصحراء أولا في تلك الأمسية الثقافية بمثابة افتتاح التراث الموريتاني الذي تكون جزءا منه، خلتها (صحراء بركو-إيندي- تبستي لدينا) صحراء شاسعة بفيافيها الساحرة حيث تتلاقي الثقافات بتلاقي الرمال التي تتلاعب بها الرياح وتجرفها العيون في دول الصحراء الإفريقية الكبرى الممتدة من مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والنيجر مرورا بقلب افريقيا النابض "تشاد" إلى مالي والمغرب وموريتانيا التي تقع في أطراف القارة السمراء غرب المحيط الأطلسي والتي تحدها من الشمال المغرب والجزائر ومن الجنوب السنغال ومن الشرق والجنوب الشرقي مالي، موقع متميز يمزج بين الأصالة العربية والأمازيغية والإفريقية التي تشكل في مجملها لوحة فنية رائعة متعددة

الألوان.

موريتانيا تشبهنا إلى حد كبير في مسألة تداخل الثقافات وامتزاجها، وبالطبيعة البدوية والأغاني التراثية (الحكامات) والرقصات الجميلة والأكلات الشعبية، وكأني وجدت روحي حقيقة في موريتانيا أو قل وجدت روحي في تشاد بينما لا زلت جالسا على كرسي في المدرج بالكلية في تونس.

تبديد النقود

كنت أعتقد أن ظاهرة تبديد النقود ورشها على المغنين في الاحتفالات ظاهرة اجتماعية تشادية فقط، حتى رأيتها عند الزملاء الموريتانيين الذين قاموا برش النقود من كل حدب وصوب على طالب موريتاني كان يغني أثناء تلك الأمسية، التفت إلى القاعة فإذا بالكثير من زملائنا التونسيين فاغري أفواههم من هول ما يحصل للدينارات التونسية وهي تتساقط على الأرض، طبعا العديد من الزملاء التونسيين لا يعرفون الكثير عن عادات الشعوب الأخرى خاصة دول افريقيا جنوب الصحراء لذلك تظهر عليهم علامات التعجب! لكني رأيت مسؤول تونسي قام في الاحتفال الثقافي الذي نظمته جمعية الطلاب التشاديين في تونس العاصمة في مايو ٢٠١٨م يرمي الدنانير التونسية كما يفعل الطلاب التشاديين وقتها على طالب مغني من إحدى دول غرب أفريقيا بهر الجمهور بصوته الجميل عندما كان يتغنى بأغاني الفنان التشادي الراحل أحمد بيكوس (Enfants du Tchad) وهذه ظاهرة غريبة في تونس، لكني تأكدت أن هذه الظاهرة السلبية ليست تشادية فقط بل تشاركنا فيها موريتانيا.

عادات أخرى

أذكر أنه عندما دعوت الزميل الموريتاني العزيز عبد القادر نذيرو ذات مرة إلى حضور إحدى الأمسيات الثقافية التشادية كان فرحا مسرورا وعدد لي القواسم المشتركة بيننا، وعندما أعطيته المشروب الأحمر عرفه من لونه ومذاقه حيث نطلق عليه بالعامية "انقارا"

والذي يعتقد أهالينا في البادية بأنه يزيد الدم ولا أعرف إن كان الموريتانيون يعتقدونه كذلك أم لا، المهم أنهم يعدونه بنفس طريقة إعدادنا فهو مشروب شعبي واسع الانتشار لديهم أيضًا إلا أن الاختلاف الوحيد بيننا هو في اسمه، فهم يسمونه "بصام" ويعرف بالعربية "كركديه".

"القدح، الكانون، الطبق" معدات من الحرف البدوية توجد في موريتانيا بنفس هذه المسميات لدينا في تشاد. كذلك التشابه في تناول وجبة الأرز باللحم التي يأكلونها باليد جماعة ومن غير ملعقة وفي سفرة واحدة بدون صحون صغيرة كما يفعل الزملاء التونسيون حيث يأكلون بالشوكة والسكين، إلا إن الاختلاف هو في طريقة الإعداد وطريقة تناولهم بطي اليد فكان الفرق واضحا بيننا عندما كنا نتناول الأرز معهم في بنزرت.

المرأة التشادية تتزوج وتطلق مرات عديدة وتنجب أبناء من رجال مختلفين إلى أن تتوقف كما هي حال المرأة الموريتانية، تقوم المطلقة الموريتانية بتنظيم حفلة طلاق تدعو لها زميلاتها وهي عادة توجد في بعض القبائل في شمال تشاد أيضًا. يحدثني الزميل نذيرو بأن المجتمع الموريتاني يحترم المرأة كثيرا لدرجة أن الرجل المتزوج يقوم بإعداد فطور الصباح عندما تكون المرأة نائمة أما عندنا فالرجل يجد حرجا في المرور بجانب المطبخ وهو ما يعتبر في مجتمعات أخرى شيئا عاديا.

التلفزيون التشادي في تونس وموريتانيا

أصبحت الكرة من بين أكثر عوامل تداخل الثقافات وتلاقح الحضارات نجاعة بسبب قدرتها على إذابة الكثير من الفوارق والحدود ومقاربة المسافات والدول والشعوب، ولهذا فإن عدداً من التونسيين والموريتانيين يشاهدون بعض المباريات عن طريق بث التلفزيون الوطني التشادي كما كان يقول لي الزميل نذيرو والزميل زياد بن شرفي من تونس، وأذكر أنه في أحد المرات حدثني صاحب تاكسي تونسي عن أولاده الذين يطلبون منه أن يحول لهم "قناة الطيور" والتي يقصدون بها التلفزيون الوطني التشادي نسبة لشعاره "طائر

القرنوق".

على العموم بما أن الحياة قصة أو سيرة، فكان ذلك اليوم الثقافي الموريتاني بمثابة المحفز لكتابة جزءا من سيرتنا المشتركة، سيرة من سير الإنسانية النبيلة. أكتب عن ذلك اليوم لنتذكرهم ويقرأوه ليتذكروننا، لأن أصلنا كبشر واحد ومصيرنا مشترك أيضا، وما بين الأصل والمصير تلتقي الثقافات وتتلاقح الحضارات.

وسائل الإعلام

الحرية

غني عن الإشارة إلى أن المجتمع التونسي بعد الثورة، بات أكثر قدرة على ممارسة حرياته الفردية والجماعية، وأكثر انفتاحا وجرأة في إبداء آرائه وقناعاته وطرح أفكاره ومرجعياته الدينية والفكرية والسياسية دون خوف من الإيداع في السجن بسبب الرأي أو الاعتقاد.

فالثورة التي خلقت الانتقال الديمقراطي وافتكت الحريات من هيمنة الفرد الواحد لإرجاعها إلى الشعب، وكسرت حواجز الخوف من القمع والذل والانكسار، هيأت مناخا أكثر تعددية وأكثر تعقيدا في محاولة قراءته بسبب تعدد المشارب في تأسيس الأحزاب والمؤسسات الإعلامية ومنظمات المجتمع المدني، بل خرجت جماعات بأفكار جدلية كانت في السابق خانعة تحت ظلال الدكتاتورية والاستبداد.

وسط هذا المناخ الجديد للحريات، ازدهرت وسائل الإعلام التونسية، من حيث الكم والكيف، كما أنها غدت أكثر ابداعاً وانفتاحاً، نتيجة الشعور بالحرية، وباتت تعمل بكل جرأة في وسط سياسي شائك تميل فيه الأحزاب السياسية إلى تحقيق مكاسبها واعتباراتها الضيقة على حساب المصلحة الوطنية. وبدلا من الاستفادة القصوى من هذه التعددية، عمدت بعض وسائل الإعلام إلى استغلال هذه الحرية لشيطنة الآخر وأحيانا الخروج عن مهنية الصحافة ومسؤولية الكلمة لتعمق من خلال الطرح في حالة اليأس من الطبقة السياسية وخاصة الحاكمة منها والتي تتحمل بشكل أساسي مسؤولية الفشل في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المأمولة، بعد تحقيق المكاسب الديمقراطية ومنها الانتقال السلمي للسلطة بكل نضج وسلاسة.

الصحف والإذاعات تتفوق

في الخامسة صباحا تجد الصحف صادرة ومتوفرة في أماكن التوزيع العامة كمحطات المترو والحوانيت (الدكاكين)، عمل يومي دؤوب من أول النهار حتى آخر الليل، لا يتوقف عن تقديم الآراء وتحليلها ومحاولة فهم ما يجري، ستجد باقة من آخر المستجدات من أخبار ومقابلات وتحقيقات مع تناول قهوة الصباح. شخصيا أتابع باستمرار عددا من الصحف اليومية مثل جريدة الصباح وجريدة الشروق كما أتابع صحيفة ٢٤/ ٢٤، أقرأ بلهف شبه يومي افتتاحية جريدة المغرب التي يحررها الكاتب الكبير زياد كريشان، وهو من أفضل الكتاب الصحفيين في تونس لما يمتلكه من خبرة وباع طويل في الصحافة فضلا عن تحليلاته الواقعية عن الوضع السياسي ومجرياته عن قرب.

ولا أنفك عن متابعة برنامجي المفضل "Midi Show" من تقديم الإعلامي القدير إلياس الغربي رفقة كوكبة من الإعلاميين على أثير إذاعة موزاييك أف أم (Mosaïque FM) والذي يقدم تحليلات عميقة من خلال استضافة صناع القرار وأصحاب الشأن السياسي، برنامج " El Matinale" مع حمزة البلومي على أثير إذاعة شمس أف أم هو الآخر يعد من أفضل البرامج التي أتابعها باستمرار، كما لا يفوتني سماع اذاعة الزيتونة للقرآن الكريم التي تبث نفحات ايمانية تعيد التوازن إلى النفس والروح، والتي تذكرني بروعة البرامج التي نقدمها في إذاعة البيان ما تزال بعض تفاصيلها عالقة في ذهني ووجداني، يتردد في أذني شعار إذاعة الزيتونة الذي يبث بصوت عذب يدخل القلب مباشرة "إذاعة الزيتونة للقرآن الكريم من الجمهورية التونسية، من القلب إلى القلب".

ومع توجهاتها المختلفة نسبة لتوجهات مؤسسيها من اليساريين والإسلاميين إلى القوميين والحداثيين، تعد الصحافة التونسية المقروءة والمسموعة أكثر مهنية وفائدة في طرحها للمشكلات بجدية من خلال محاولة خلق وعي هادف لإصلاح المجتمع، ستشم بالتأكيد جزءا من رائحة الممولين في توجه الصحيفة أو الإذاعة ولكنه يبقى في إطار محدود

عند بعضها بينما يبقى أوسع عند بعضها الآخر ليأخذ من قيمة المهنية الصحفية، ومهما يكن من مآخذ أخرى فإن كثيرا من الصحف والإذاعات لا تنفخ في الهواء كما تفعل بعض القنوات الفضائية.

التلفزة التونسية وإثارة الجدل؟

تثير العديد من التلفزة التونسية الخاصة مشروعية التساؤل حول مدى المهنية المستخدمة في عدد من برامجها الحوارية، وإمكانية مدى استغلالها لمساحة الحرية المتاحة، لأنك ستجد شعبوية واضحة في بعض هذه البرامج الحوارية ذات التوجه الواحد التي تختار ضيوف يمثلون طيفا واحدا وهو نفس توجه القناة التي لا تتحمل رأي مخالف وكأنها جزء من الصراع السياسي والفكري القائم في البلاد.

وإذا كانت الصحف والإذاعات في تونس تبث شيئا من الواقعية والأمل فإن بعض قنوات التلفزة على النقيض من ذلك تدفع باتجاه اليأس والإحباط، من خلال الخوض في تفاصيل لا علاقة لها بالمهنية أو الشؤون العامة، فما بين القنوات التي تمجد الثورة إلى القنوات التي تعمل ضدها متباكية على العهد القديم يتيه المواطن التونسي اليوم بين عدد من البرامج الحوارية التي تعمق الأزمة السياسية من خلال إثارة الجدل في نقد غير بناء يتدخل في خصوصية الإنسان ويظهر سطحية المناقشة بدل البحث عن الأسباب الحقيقية للمشكلات والنقد الموضوعي لعمل صناع القرار، برنامج "وحش الشاشة" على قناة التاسعة يعد عينة مناسبة لهذا المقام، فهو واحدا من هذه البرامج الجدالية التي تثير تساؤلات مهنية أكثر من الإجابة عليها من خلال استضافة شخصيات تنتقد الضيف المحوري وتستفزه في شخصيته وسط جمهور مباشر في الاستديو، وأحياناً تنتهي حلقات البرنامج بتوجيه كلمات نابية بين الشخصيات المستضافة والضيف المحوري أو من الضيف إلى المذيع والعكس صحيح، عدد من الضيوف من الشخصيات الفاعلة قاطعوا البرنامج خلال البث المباشر نتيجة عدم وجود موضوعية في الحوار وسوء توزيع فرص

الإجابة على الأسئلة، ويظهر أن البرنامج يرمي إلى جذب أكبر عدد مشاهدة على حساب المهنية والمنفعة العامة وكأنه برنامج تجاري صرف، وهكذا ستجد أمثلة مشابهة لمثل هذا البرامج في قناة الحوار التونسي وقناة حنبعل وقناة نسمة وغيرهما.

العديد من قنوات التلفزة التونسية الخاصة يمكنك تقريبا معرفة داعميها أو محيطهم العام، فهي تلعب على المكشوف، ستشم رائحتهم من أفواه الصحفيين ومن البرامج، سواء كانوا داعمين من الداخل أو من الخارج، ومن هنا فإن أخطر ما نراه في عدد من الفضائيات هي أنها بعضها بات يعمل لتوجهات الثورة المضادة التي تحاول غسل أدمغة التونسيين وإظهار الوضع بأنه الأسوأ على الإطلاق؟

يبقى بطبيعة الحال أنه ليس كل التلفزة التونسية الخاصة وليست كل برامجها تثير الجدل على هذا المنوال، ولكنها مآخذ أراها موضوعية في بعض البرامج الحوارية، فهناك الكثير من البرامج الأخرى المفيدة التي تناقش مختلف المجالات العامة بكل تميز واحترافية، تحلل الجديد وتقدم المفيد في إطار المهنية والموضوعية العالية.

إعلام الواب.. المستقبل القادم

لا يفوتني أن أشير إلى تجربة إذاعات الواب Web الرائدة في تونس التي تبث أساسا من الإنترنت والتي أسست وازدهرت إبان الثورة، فهي تمثل دافعة أمل جديدة في تقريب الشباب من قضاياهم الشائكة من خلال التقدم الذي تشهده يوما بعد يوم، في الوقت الذي تقلل فيه من الجهد والوقت والمال.

وهنا يجب الإشادة بهذه الإذاعات المستقلة التي يقوم بها متطوعون يخدمون لصالح المجتمع، والإشادة بعمل دور الشباب الثقافية التابعة لوزارة الشؤون الثقافية والتي توفر لهذا الإعلام البديل كل سبل التقدم ليكون أقرب إلى مشاكل الشباب وتطلعاتهم ومشاكل الجهات الإقليمية التي تجد الكثير من التهميش.

يستجيب هذا الانتقال المباشر إلى البث الرقمي، إلى تعزيز مستقبل الإعلام البديل الواعد الذي يدعم صحافة المواطن ويحرر الخبر والمعلومة من دواليب وقاعات تحرير الوسائل الإعلامية التقليدية التي تتحكم فيها مصالح ولوبيات مختفية خلف الكواليس.

سنوات الرمل

تظهر أهمية قراءة كتاب سنوات الرمل (تفكر في معارك الانتقال الديمقراطي في تونس ٢٠١١ - ٢٠١٤) للكاتب عدنان منصر، في محاولته لتقديم فهم مغاير لقراءة الأحداث السياسية التي تلت الثورة التونسية منذ سقوط نظام زين العابدين بن علي ممثلة في عملية الانتقال الديمقراطي التي قادتها "الترويكا"، وقراءة سردياتها المتناقضة ووضعها في سياقها العام بكثير من النقد للأحزاب السياسية والفاعلين وبنوع من التجرد والموضوعية والإنصاف أحياناً. بالرغم من كون الرجل فاعل سياسي وقتها في حزب المؤتمر من أجل الجمهورية حيث شارك في عملية الانتقال كأكاديمي مؤرخ وناطق رسمي باسم رئاسة الجمهورية وكمدير ديوان رئيس الجمهورية في تلك الفترة.

يبين عدنان اتفاق النخب والأحزاب السياسية (رغم اختلافاتها الجوهرية) على ضرورة الاحتكام فقط إلى القانون وتطبيقه في كل خطوة إبان وقت الفراغ السياسي للدولة حيث كانت تعيش تونس على فوهة بركان سياسي واجتماعي غير مسبوق في تاريخها، وهو ما ولد ظروفا خاصة أدت إلى تسامح الثورة مع بعض أبناء المنظومة القديمة وجعلها شريكة في عملية الانتقال الديمقراطي.

كما يعرج بنا الكاتب إلى أن صراع النخب وتموقعاتها المصلحية حول الحكم بدل الانشغال بالإنجازات المستحقة للمواطنين؛ قد ضيع على تونس الكثير من فرص البناء والتنمية حيث كانوا جميعا بلا استثناء "يبنون على الرمل، وكان كل شيء يتسرب من بين أيديهم في غفلة وتحت ظلال كثيفة من السذاجة والتزييف والإنكار"، بالرغم من الإنجازات السياسية التي أهمها بلا شك فسح المجال أمام الحريات العامة وكتابة الدستور والانتقال السلس للسلطة كسابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ البلاد.

يعزو منصر هذا الفشل في تحقيق التنمية والازدهار والرخاء للمواطنين وعدم القدرة

على تحسين الحياة المعيشية في الجهات المهمشة وعدم إذابة الفوارق والطبقية بين المواطنين التي خلفتها الأنظمة المتعاقبة، إلى أنه يعود بشكل كبير في انشغال الأحزاب والنخب بتقسيم الكعكة، وفي البون الشاسع والاختلاف المنهجي والفكري القائم بين المنظومة السياسية القديمة والمتمثلة في رجال بن علي والتي هي امتداد طبيعي لمنظومة بورقيبة، وبين المنظومة الجديدة التي احتضنت الثورة أو ما يطلق عليها "منظومة الثورة" وما تشمله من ديمقراطيين وإسلاميين وليبراليين وتقدميين، والتي أخذت مقاليد السلطة والحكم بعد الثورة. بل إن عملية الاستقطاب امتدت حتى داخل هذه المنظومة الجديدة نفسها حيث استدعاء الاختلافات الجوهرية في العديد من المسائل مثل قضايا المرأة وشكل الدولة وغيرها، في مقدمتهم حزب المؤتمر من أجل الجمهورية الذي يترأسه المنصف المرزوقي الذي كان يرأس البلاد خلال الفترة الانتقالية وحركة النهضة التي يترأسها راشد الغنوشي والتي كانت تسطير على المشهد الحكومي بحكم فوزها بالأغلبية، وغيرها من الأحزاب التي كانت في الطليعة وقتها وشاركت في الفترة الانتقالية فيما يعرف ب"حكم الترويكا".

يمكننا أن نطلق عبارة "الثورة تأكل أبنائها" بالنظر إلى استدعاء الأحزاب لاختلافاتها الفكرية من أجل الحصول على أكبر منفعة من المساهمة في رسم السياسات القادمة ما بعد حكم الترويكا والمتمثلة في الانتخابات الرئاسية ٢٠١٤م وهو ما أضعف موقف الثورة وحلفائها في مقابل تغلل المنظومة القديمة وعودتها إلى استلام زمام الأمور، حيث فاز حزب نداء تونس بقيادة الراحل الباجي قائد السبسي برئاسة الجمهورية بعد أن قامت النهضة بفض الشراكة بيها وبين حزب المؤتمر من أجل الجمهورية ثم توقيع الشيخين على اتفاقية في باريس اطلق عليها البعض (اتفاقية الشيخين أي اتفاقية السبسي والغنوشي) وهي اتفاقية هجينة بين منظومة قديمة ومنظومة جديدة والتي بحسب الكاتب بموجبها أغلق قوس الثورة لصالح التحالفات السياسية والتموقعات الحزبية الجديدة التي شكلت مشهدا سياسيا جديدا ومختلفا.

يشدد منصر على أن الأخطاء الفردية والجماعية التي ارتكبوها ومنها هذه الخلطة الهجينة الجديدة (أي اتفاق حزب نداء تونس مع حركة النهضة) قد أعادت الناس إلى غياهب اليأس من السياسة والديمقراطية كأداة للانتقال السلمي للسلطة وكأداة للاستقرار والتنمية والرخاء بمقولة أن السياسيين "كلهم متشابهين"، خاصة بعدما لم يتغير شيء في واقع المواطن المعاش، بل ازداد الوضع سوءاً من ارتفاع غلاء المعيشة وزيادة نسبة البطالة، وهو ما ولد في نهاية المطاف صنف سياسي آخر مختلف تماما عن السرديات السياسية السابقة: الشعبوية.

أخيراً يمكن القول أن هناك وجه تشابه واحد على الأقل بين الفترة الانتقالية في تشاد (من أبريل ٢٠٢١ وحتى ٢٠٢٤) وبين الانتقال الديمقراطي في تونس من حيث الصراعات السياسية والتموقعات الحزبية والمصلحة الآنية على حساب المصلحة العليا، بالرغم من طبيعة اختلاف الظروف والعوامل التي أدت إلى إحداث انتقال في البلدين. طبعاً لسنا هنا في موضع مقارنة بين حدث جاء نتيجة ثورة حقيقية على أرض الميدان أدت إلى تغييرات جوهرية خلال سنوات لاحقة من انتقال سلس للسلطة وإفساح المجال للحريات الفردية والجماعية، وبين حدث آخر ما زالت الكثير من جزئياته غامضة ومفقودة وقد عمل على تثبيت أركان النظام القديم ولم يغير شيئا على أرض الواقع.

الحق أنني استمعت كثيرا بقراءة هذا الكتاب الذي لا يقدم تلك الفترة كمرحلة مفصلية من تاريخ تونس فقط، بل كان يحاول تشخيص الداء ويضع الدواء وباعتراف شديد الوضوح: "لقد أخطأنا جميعاً الطريق، لم نكتف بجعل الثورة غريبة بل جعلنا الديمقراطية هي الأخرى ملازمة لها في تلك الغربة. لقد كنا في صورة دراماتيكية واحدة نبني على الرمل، وكان كل شيء يتسرب في غفلة منا وتحت ظلال كثيفة من السذاجة والتزييف والإنكار".

جسر تواصل

في مطعم "دمشق القديمة" بتونس العاصمة، التقيت في نوفمبر ٢٠١٨م بشيخ في السبعينات من عمره، تظهر عليه ملامح الوقار والهدوء.

بداية الحكاية أنه، بعد أن خلص من تناول وجبته، لم يفارق الرجل مقعده، وانتظرني بلهفة حتى انتهيت من التهام وجبتي فسألني كعادة التونسيون "شنية بلادك" (أي من أي بلاد أنت؟) ثم قبل أن أجيب شرع مستفسراً من موريتانيا؟ هنا في تونس عندما يتحدث العربية شخص أجنبي (لونه أسمر) لا يبدو أنه من تونس، فإن خيالهم يذهب أولا إلى موريتانيا بحكم عدة عوامل منها غزو الطلاب الموريتانيين لتونس، فقلت لا، فقال من السودان؟ فأجبته أيضا بالنفي، فظهرت علامات الحيرة في وجهه لأنه لا يمكنني في نظر التوانسة، وأنا أتحدث العربية واللهجة التونسية بهذه الطلاقة إلا أن أكون (موريتانيا أو سودانيا أو تونسيا من مدينة قابس كما كانوا يصنفونني غالبا؟ حتى أنه في إحدى المرات هنأني صاحب إحدى المقاهي بفوز الفريق الموريتاني، وبشرى صاحبة مطعم الدجاج في ولاية "بنزرت" كانت تقول لي أنتم الموريتانيون لا تأكلون الحار -الشطة)!

على العموم، وبحكم معرفتي باهتمام الكثيرين من التوانسة بأوروبا واعتبار البعض أنهم دولة -أوروبية وليست إفريقية- أولا، وعدم معرفتهم بالكثير عن البلدان الإفريقية الأخرى خاصة تلك التي لا تشتهر بشيء في الرياضة أو السياسية أو في الاقتصاد ثانيا؛ أجبته بكل برودة أعصاب: أنا من تشاد هل سمعت بها؟ تهلل وجه الشيخ، وقال كيف تتحدث العربية وحتى اللهجة التونسية بهذه الطلاقة التي لم نعهدها من عدد كبير من الأجانب خاصة الذين يأتون من خارج بلدان العالم العربي، هل تعلمت العربية في تونس؟ أم انكم تتحدثون العربية في بلادكم؟

قلت له نحن البلد العربي الوحيد الذي لم ينضم إلى جامعة الدول العربية مع أن

الجامعة قدمت له قبل سنوات طلب الانضمام إليها إلا أنه ما زالت السلطة التشادية مترددة في هذا الانضمام، فقال لي لماذا هذا التردد إن كنتم دولة عربية؟ قلت له لدينا لغتين رسميتين، اللغة العربية الحاضرة شعبيا والغائبة في الإدارة والتي تريد أن تتبوأ مكانتها الرسمية، واللغة الفرنسية الغائبة شعبيا والمسيطرة إدارياً والتي تريد تضيق الخناق على اللغة العربية رسميا ويقف أهلها عقبة في هذا الاتجاه. وحتى أعطيك لمحة سريعة فعلى العموم هناك رأيين حسب معرفتي: الأول يرى بأنه طالما أن جامعة الدول العربية ضعيفة إقليميا ودوليا ولم تستطع حل الكثير من القضايا العربية الشائكة فإنه لا فائدة من انضمام تشاد إليها، أما الرأي الثاني فيرى أنه طالما أن تشاد عضو في المنظمات الفرانكفونية فإنه يجب عليها أن تنضم إلى الجامعة العربية لتمثيل الواقع التشادي والأغلبية من الشعب أيضاً، وإظهار الوجه الآخر الذي يتلاءم مع ثقافتها وتراثها وأصالتها وتنوعها دون تهميش طرف لآخر -بغض النظر عن أحوال ومقدرة الجامعة العربية- كما هي الحال مع المنظمات الفرانكفونية -بغض النظر عن أحوالها ومقدراتها- والتي لم نستفد منها في شيء أيضا؟

تهلل وجه الرجل مرة أخرى، لأني أضفت إلى معلوماته معلومة جديدة لم يقرأها في الكتب.. ثم فاجأني وقال أليس رئيسكم الحالي هو إدريس ديبي؟ والسابق هو حسين هبري؟ قلت له نعم كيف عرفت ذلك، فلم يرد وأخذ يواصل في حديثه عن النظام السياسي في تشاد وعن الثورات المسلحة وعن الاقتصاد والبترول والذهب والثروة الحيوانية والمناخ وعن الدول المجاورة لها، ثم صلاة معمر القذافي في تشاد مطلع الألفية الثانية، وأنا أنصت بكل فرح وإعجاب وانبهار لثقافته العامة ومعلوماته الجيدة عن تشاد، فسألته هل سافرت إلى تشاد مرة؟ فأجاب بالنفي، ثم انتقل الحديث بشكل ودي أكثر عندما قال إنه اشترى ضأن (علوش بالتونسية) من تشاد عبر صديق له كان يقطع الفيافي والصحاري القاحلة في الشمال التشادي بين تشاد وليبيا حملها له عبر الطريق البري، وأنه لم يتوقف عن ذلك، إذ كان يرسل مع أي شخص يعرفه طلب جلب حاجة رمزية من تشاد،

كان يتحدث بكل ابتهاج واعتزاز وفخر تارة، وبكل مرارة وأسف تارة أخرى عندما يصف التخلف في مجتمعنا وكيف أنه لا يختلف كثيراً عن تخلف بعض الدول العربية.

فقلت له إذا كيف عرفت كل ذلك، فقال عرفت بعضه من خلال القراءة وسعة الاطلاع إلا أنه فاتني أن أعرف أنكم تتحدثون العربية! قلت له كما أن التونسيين يفرحون بي عندما أتحدث لهم عن متابعتنا للثورة التونسية وتجربتهم الديمقراطية التي نضجت بشكل سريع وملحوظ، وقبل ذلك عن معرفتنا لابن خلدون وشاعر الثورة أبو القاسم الشابي وبورقيبة وبن علي ومنصف المرزوقي والغنوشي والسبسي كنا نقرأ عن بعضهم في المدرسة والجامعة ونعرف مجمع الزيتونة والقيروان وقرطاج وغيرها من المعالم والأشخاص في تونس بحكم القراءة والاطلاع قبل أن نأتي إليها؛ فأنت أيضاً قد افرحتني اليوم لأنك أول تونسي ألتقيه ويعرف الكثير من المعلومات عن بلادي دون أن يكون قد سافر إليها يوما ما، وفخر لي هذا اللقاء وهذه السانحة الطيبة الجميلة.. فعانقني الشيخ بكل حرارة، وانصرفنا.

الخلاصة أن القراءة جسر تواصل عابر للحدود يسمح لنا بالسفر إلى بلدان أخرى دون طائرة، وبالدخول إلى بيوت وقلوب آخرين دون استئذان، نحتاج أن نقرأ لنفهم أنفسنا ونوسع عقولنا ونفهم العالم في الطرف الآخر من الأرض، وأن نتواصل مع ذلك الإنسان، لأن إنسانيتنا المشتركة وروابطنا المتينة أعمق وأقوى من أن تمنعها ظروف طبيعية معينة أو تعيقها حدود أو حتى حواجز وهمية مصطنعة.

- نشرته في مجلة ألواح الالكترونية

استيعاب الدروس

"نريد أن نتعلم من سنغافورة لأن الأمر يتعلق بالاستثمار في الإنسان".

(بول كاغامي)

لا أخفيكم سرا، إن قلت بأني تمنيت أن أحظى بالتقاط صورة تذكارية مع الرئيس الرواندي بول كاغامي، حينما حضر إلى البلاد للمشاركة في حفل تنصيب رئيس الجمهورية إدريس ديبي إتنو في الثامن من أغسطس لعام ٢٠١٦م لولاية رئاسية خامسة، وكنت وقتها حاضرا داخل القاعة لتغطية الفعالية.

وبغض النظر عن تمشيه الديمقراطي، إلا هذا الرجل خلافا لبقية نظرائه من الحكام العساكر، يتمتع برؤية استراتيجية وإرادة صلبة أخرجت بلاده من أزمة الحرب الأهلية التي دمرت البشر والحجر، واستطاع تغيير صورتها في العالم من خلال التقدم الذي أراده لها.

عندما وضعت الحرب الأهلية أوزارها سنة ١٩٩٤م في رواندا، وجد بول كاغامي وزير الدفاع نائب الرئيس وقتها، ثم لاحقا رئيس الجمهورية عام ٢٠٠٠م نفسه أمام قيادة دولة مفككة.

دولة سالت فيها دماء قرابة مليون قتيل نتيجة غرس بذور الكراهية، وتجذر فكرة "استئصال الآخر"، حيث نشبت هذه الحرب بين أبناء الوطن الواحد أنفسهم "قبيلتي: الهوتو، والتوتسي"، وبتدخلات خارجية أيضاً، كان شبح الموت يحوم فوق أراضيها، وتجوب القيوم السوداء كل مكان فيها، دولة على الحضيض بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة، نزحت منها الكفاءات، والأيدي العاملة، حتى المنظمات الإنسانية لم يتبقى منها إلا القليل! كانت البطالة، والكراهية، والفساد، والمجاعة جميعها تواصل النخر في

جسدها المتهالك، المنهك، الهزيل، الضامر، المتعفن، المتناثرة بعض أجزاءه في كل مكان على الأرض؟

كانت الدولة أفقر بكثير بعد الحرب، وبحسب مجلة الجزيرة في عددها الصادر في يونيو ٢٠١٦م بعنوان "إفريقيا.. الوجه الآخر" فان متوسط دخل الفرد الرواندي قد وصل حينها إلى ٣٠ دولار شهريا بعد الحرب، وكانت نسبة الفقر قد وصلت إلى ٦٠٪، ونسبة الأمية إلى ٥٠٪، وكان التحدي وقتها ضمان الأمن الغذائي في الوقت الذي هربت فيه الأيدي العاملة في الزراعة حيث كانت الحرفة الرئيسية للسكان، كان الأمر بالنسبة للدولة بحاجة إلى معجزة تسقط من السماء ليتلقفها الزعماء للخروج من الأزمة؟ تماما كما كنا إلى اليوم ننتظر المعجزات أن تنتشلنا من القاع والحضيض رغم أن عصرها قد ولى بلا رجعة، أفزعت رواندا دول العالم من خلال هذه المجزرة، لكن كاغامي الممتلئ عزيمة وتحدي قال بصريح العبارة "يكفي أن نجلب لرواندا اسما كبيرا" وقد كان له ما أراد.

لم يكن خطابا سياسيا منمقا كما يستخدمه غيره من الزعماء الأفارقة لتخدير المواطنين فقط، بل كان صادقا وعمليا، فقد رفع جميع العراقيل التي تقف حجر عثرة أمام المستثمرين الأجانب، ويمكن الآن خلال بضع ساعات أن تؤسس شركة في رواندا في مكان واحد بقوانين شباك موحد، في الوقت الذي تحتاج فيه بعض دول العالم إلى أسابيع أو أشهر لكي تفتح شركة استثمارية. لم يكتفي بهذا القدر، بل ذهب بنفسه للمغتربين الروانديين وأقنعهم بضرورة العمل إلى جانبه لصالح الوطن، كما ذهب لمدير شركة غوغل وأخبره بأنه يريد أن يجعل رواندا مركزا لمحطة الاتصالات في المنطقة، وأنشأ نظام الشباك الموحد للأمن الغذائي، أسس مجلسا من أعضاء روانديين وأجانب خبراء في الاقتصاد، والطب، والإعلام، والإدارة رافقوه إلى سنغافورة لاستلهام التجربة الناجحة منها حينما قال "نريد أن نتعلم من سنغافورة لأن الأمر يتعلق بالاستثمار في الإنسان".

كانت نتيجة كل هذه الجهود أن حققت رواندا نجاحا باهرا في أقل من عشرين سنة

فقط، انخفضت نسبة الفقر إلى ٤٥٪، والأمية إلى ٢٥٪، كما تفوقت بحسب "مجلة الجزيرة" على ايطاليا والبرازيل والهند وجل دول العالم في مؤشر الشفافية العالمية حيث نالت المرتبة ال٤٤ عالميا، وتعد رواندا اليوم من بين الدول الأفريقية الأسرع نموا في القارة السمراء، حيث بلغت نسبة مؤشر النمو فيها إلى ٩٪ في العام ٢٠١٥م، حتى قالت منظمة دول تجمع السوق الإفريقية المشتركة لدول شرق وجنوب إفريقيا (الكوميسا) "إن رواندا سجلت نموا اقتصاديا هو الأكبر على مستوى العالم منذ عام ٢٠٠٥م"، كما حصلت على لقب أنظف عاصمة أفريقية في عام ٢٠١٥م، وتعتبر القمة الأفريقية المنعقدة في يوليو ٢٠١٦م التي استضافتها العاصمة كيغالي من أنجح القمم الإفريقية، حيث أنجز خلالها الجواز الإفريقي الموحد.

كل هذا النجاح تحقق بسبب رجل سياسي استطاع أن يقدم الأفضل لبلاده، صحيح أن الدول تسقط وتقوم وتعاني من المشكلات والويلات والتقهقر، ولكن تظل الإرادة القوية والرؤية الثاقبة للزعماء المخلصين ومشاريعهم الجادة منفذا حقيقيا للخروج من رحم التخلف والارتهان للخارج، ليت بعض الزعماء وخصوصا الأفارقة تعلموا من هذا الرجل الذي رغم كل تلك المصائب لم يترك بلده رهينة للمساعدات الأجنبية حينما قال: "نقدر المساعدات الخارجية، ولكن عليها أن تساعدنا في تحقيق ما نريد الوصول إليه، فلا أحد يعرف مصلحتنا أكثر منا، ولا دولة يمكنها أن تقيم تنمية بالاعتماد على المساعدات، إن الارتهان بها يسلخ عنا إنسانيتنا ويسرق منا كرامتنا".

لكن كاغامي الذي أنتخب لولاية رئاسية رابعة في ١٨/ ٠٧/ ٢٠٢٤م وشهدت فترة حكمه إنتقادات سياسية حيث لم يؤسس إلا لديمقراطية شكلية أسوة بمعظم نظرائه الأفارقة فعل ما لم يفعله أغلبهم في منوال التنمية، وإن كان ما حققه لا يبرر طريقة حكمه، إلا أن الإرادة الجادة في رفع راية الوطن وعلو شأنه واعتباره أولوية مطلقة يمكنها أن تدهشنا، خاصة في عالم اليوم الذي تتسلح فيه الدول أكثر بالعلم والمعرفة، وبالإستثمار في الإنسان، ثم في التكنولوجيا التي تتحكم فيها شركات متعددة الجنسيات وضعت

مسألة سيادة الدول على المحك، وفي خانة الماضي، وقد رأينا في شهر يوليو ٢٠٢٤م كيف تعطلت المطارات، والبنوك، والمستشفيات، والمحلات، ومختلف الخدمات في عشرات الدول حول العالم نتيجة عطب فني في شركة تنكولوجية واحدة فقط "مايكروسوفت"؟

هذا عالم جديد لا يؤمن بتاتاً بالضعفاء، ولا بالصراعات الزائفة، والشعارات الجوفاء، وطواحين الهواء، عالم تكنولوجي جديد فعلاً، لكنه لا يزال يحمل في جيناته الشفرات المورثة للبقاء على طريقة داروين "البقاء للأقوياء، وفقط للأقوياء"؟

وبينما لا يزال معظم القادة الأفارقة قابعون في التاريخ، لم يفهموا الحاضر، ولم يستوعبوا المستقبل، فهم كاغامي الدرس باكراً عندما قال: "نريد أن نتعلم من سنغافورة لأن الأمر يتعلق بالإستثمار في الإنسان، ويكفي أن نجلب لرواندا إسما كبيراً"، وقد تحولت رواندا الدولة الفقيرة المتعفنة من جثث البشر الميتة المرمية في كل مكان إلى حديقة غناء وغابة مثمرة، وواحدة من بين عشرة دول في إفريقيا الأكثر جذبا للمستثمرين والسياح الأجانب من مختلف دول العالم!

الاستيعاب:

هذه دروس للاستيعاب من القارة السمراء، دروس ليست بعيدة عنا، وتمخضت عن أوضاع تشبهنا إلى حد بعيد، لقد عشنا قصصا مشابهة لقصة رواندا ورغم أننا تخطينا -بفضل الله- الحرب الأهلية المدمرة وغيرها من النزاعات التي شهدتها البلاد بفضل التضحيات التي قدمها أبناء الوطن المخلصين، لكننا بالمثل لم نحقق أية تنمية تنقل البلاد إلى فضاء المنافسة الإفريقية فضلاً عن العالمية، بل ساهم زعماؤنا في نشر مزيد من الفوضى الإدارية، والرشوة، والمحسوبية، والفساد، وغياب المؤسسات، واهتموا بسفاسف الأمور بدل مواجهة التحديات لتي تعاني منها البلاد.

كانت كل شعارات: (النهضة، مراءة أفريقيا..) جوفاء خاوية من المضامين، لم تنفخ فيها أية روح وطنية فعالة لتحريك العجلة نحو تحقيق التنمية، فكانت هذه البهرجة

سموما مثبطة للعزيمة بدلا من شحذها، ما يؤسفني كثيرا أننا لا نتعلم من تجارب الآخرين، وكنت أردد دوما بأن الدولة كالإنسان يمكن أن تتعلم من أخواتها تجارب ملهمة في مسيرة البناء والنهضة، لكن من الواضح أنه ليس لنا أي استعداد في دراسة أي تجربة ناجحة ومن ثم بلورة النموذج الخاص بنا، الرئيس يسافر بوتيرة تفوق الخيال ويعود بلا تجارب خالي الوفاض، ومثله بقية المسؤولين، لأنهم ببساطة لا يشعرون بالدونية وهم ينظرون إلى تطور الدول التي يزورنها، بينما يصبح المواطنون تحت تخدير شعارات مزيفة لا تسد لهم رمقا، ولا تبرأ لهم جرحا.

لقد نخر الفساد كل جسم الدولة ولم يترك فراغا إلا وحل محله، وهو الآن يسرع من وتيرة إسقاطها نحو الهاوية، كتبت في إحدى افتتاحيات إذاعة البيان في موضوع الفساد في عام ٢٠١٥م، وقلت بأنه "ما لم نغير سياستنا في مجال مكافحة الرشوة والفساد، ونضع خططا أكثر نجاعة ونجدد العزيمة لاقتلاعها من جذورها، نصبح ذات يوم نجد فيه الدولة تسقط على رؤوسنا نتيجة لدودة تنخر فيها اسمها الفساد الإداري والمالي".

لذلك فالحديث عن المستقبل رهان خاسر، بل هو ضرب من ضروب الخيال وأحلام اليقظة، في وقت تفتك فيه الملاريا وحدها بالآلاف سنوياً، تموت الأمهات من الولادة، والأطفال من سوء التغذية، وتهدر طاقات الشباب على الطرقات والأرصفة، تنهب الأموال العامة دون أي رادع قانوني أو أخلاقي، وتغزو المحاباة مختلف دواليب الدولة الضائعة، تطفو بيوت السكان على المياه الراكدة، وتنعدم المياه الصالحة للشرب والكهرباء بما فيها المؤسسات الحكومية؟

لطالما قلت بأن أكبر أزماتنا في دول العالم الثالث وفي تشاد خاصة هي أزمة قيادة بالدرجة الأولى، حيث لم نتمكن طوال ٦٤ سنة من وضع أهم أسس ومقومات الدولة الحديثة: من التعليم الفعال، والرعاية الصحية الجيدة، والإدارة الرشيدة، والطاقة، والطرق، والمواصلات والمؤسسات المستقلة..؟

فمن الحقائق المؤلمة التي أوصلتنا إليها هذه الفوضى أيضاً أننا نتصدر دول العالم في قائمة مؤشر الفقر والتخلف، والأمية والغلاء، ولا نتفوق نسبيا إلا على دول ذات صراعات عسكرية دائمة مثل الصومال، وإفريقيا الوسطى، وجنوب السودان الدولة الوليدة ذات العقدين فقط، الحال تؤكد أننا نتجه نحو الهدم وليس البناء، نحو التخلف وليس النهضة، وهنا يجب أن نعي بأنه لا يمكن أن تسقط المعجزة من السماء ليتلقفها قادتنا، بل يجب أن يضعوا أولوية البناء وتقديمه على الهدم، فزمن المعجزات قد ولى، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا.

علينا بلورة رؤية جديدة، ولم لا "الحلم التشادي" على غرار الحلم الأمريكي، تحت رؤية يعدها خبراء في مختلف المجالات السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية، والعلمية، والثقافية، رؤية علمية صادقة بإشراف مباشر من الرئيس وبفريق عمل جديد وطني صادق، ويتجند حولها مختلف أبناء الوطن من القوى الحية والمواطنين للخروج بهذا البلد الجميل من الحضيض إلى آفاق التنمية والازدهار والرخاء، غير ذلك لن تنفعنا الحلول الترقيعية وسنكون في ذات القاع بينما يتجه العالم من حوالينا إلى آفاق مختلفة في عصر الذكاء الإصطناعي وغزو الفضاء!

لقد أثبت كاغامي بطل رواندا بأن الرجل القوي قادر على إنشاء دولة قوية مهما كان حجم التحديات ومهما كانت الأسباب وخيمة وكارثية، وأن الرؤية وامتلاك المشروع الجاد والعزيمة والحكمة والصبر والإخلاص للوطن؛ جميعها تقود سفينة البلاد إلى النجاح وإخراجها من مغبطة التخلف والدمار الذي لحق بها إلى تحقيق التطلعات والأحلام، فهل لنا من نظير مثله إن لم يكن حلمنا ضربا من ضروب الخيال؟

كلمة أخيرة

يتغير الإنسان في كل بقاع الأرض ويتأثر، في وقت يتغير فيه الكوكب وتتقارب أكثر المسافات والأزمنة. وصل الإنسان إلى مسافات أبعد في الطب والفضاء وفي مختلف المجالات، ونعيش اليوم ثورة تكنولوجية رقمية رهيبة لا مثيل لها في التاريخ البشري، يقودها الذكاء الاصطناعي في قادم الأعوام القليلة المقبلة، ويمثل هذا التغيير عمق التحول الذي وصل إليه الإنسان في مجال البحث العلمي التجريبي.

وبقدر ما أفرزت التكنولوجيا من مزايا وخدمات وذللت العديد من الصعاب، إلا أنه ينبغي على الدول والشعوب أخذ مزيد من الوقاية والاحتياطات وجرعات من الوعي والإدراك والتبصر بالمعضلات التي تعتري سير التقدم والنهوض، منها أحداث طارئة لا يمكن التنبؤ بحدوثها ويمكنها أن تقضي على البشرية مثل جائحة كورونا التي عزلت دول العالم، وفككت الروابط، وأغلقت الحدود، وأعادت النظر في العديد من القضايا ومنها مسألة الصحة الوقائية والبحث العلمي العميق إلى طاولة التقييم والمناقشة.

تراقب الدول النامية هذا التغير بشيء من التفرج والتخبط في مختلف ميادين الحياة، ويراقب الإنسان التشادي الواقع المحلي والعالمي بنظرة التعجب والعجز! وهو الذي لم يفرغ بعد من وضع أهم أسس مقومات الحياة اليومية المعاصرة، من التعليم الفعال، والصحة الجيدة، وتوفير الماء، والكهرباء، والغذاء، والمواصلات، والبنية التحتية، وتكنولوجيا المعلومات والإتصالات.. بسبب غياب القادة المخلصين، والرواسب التي خلفتها الحروب العسكرية، والنزاعات القبلية، والأنظمة السياسية المتعاقبة، والتدخل الخارجي، ولعدم القدرة أيضاً على تجاوزها والتخلص من آثارها من أجل البناء والتجديد كسنة من سنن الحياة.

يحتاج التشادي إلى المزيد من الوعي الجمعي لما يجري في واقعه ونقده وتحليله، نقد

البرامج والأنشطة والممارسات المجتمعية الآنية بكل إنصاف وشفافية، فلا وجود للتقدم دون تغيير في الصورة السائدة وتقييم الأداء، خارج أطر الحسابات الضيقة، والرؤى القصيرة وسجون النفس وحظوظها.

وإذا كان الحديث عن بناء الواقع المجتمعي أمر في غاية التعقيد من جهة، فإن الإبحار في أغوار الذات الفردية والجماعية وبنائها من جهة أخرى مرحلة أعمق وأكثر تعقيدا، حيث لا تأتي إلا من التفطن لمكامن القوة والضعف والخلل والتي بعلاجها يتشكل مواطنا مدركا قادرا على الإصلاح والتغيير في المجتمع. ومن هنا تتضح أكثر مقولة جان برنارد شو: "التقدم مستحيل بدون تغيير، وأولئك الذين لا يستطيعون تغيير عقولهم لا يستطيعون تغيير أي شيء" فتغيير المجتمعات مرهون بتغيير ذوات أصحابها، حيث يصب التغيير الفردي في وعاء التغيير الجمعي، وكلما كان الوعاء ممتلئا كلما سهل ذلك وسرع في دفع المجتمع نحو التنمية وأسباب الرفاهية والازدهار، وهي مرحلة تتطلب بلا شك قدرا كافيا من الإرادة والصبر والحكمة والعمل.

غصت خلال هذه الرحلة في بعض جوانب الحياة اليومية المعاشة لتقديم زاوية مختلفة من الوعي في نقدها وبنائها، مثلما غصت في العديد من جوانب مجتمع الآخر، محاولا تقديم صورة أشمل وأكثر وضوحا وواقعية لقراءتها ونقدها ووضعها للتفكير سويا لحلها في إطار جماعي، وسط كم هائل من المتغيرات والتحديات المحلية والعالمية، في عالم شديد السرعة وغاية في التعقيد والتشابك.

المؤلف في سطور:

حبيب محمد أبرص

اعلامي تشادي ومهندس في علوم الأغذية والزراعة، متخصص في السلامة الصحية للأغذية. مؤسس ومدير "مروة للتوعية الغذائية" والتي تعنى بقضايا التوعية الغذائية والزراعية، يستضاف في التلفزيون الوطني وعدد من وسائل الاعلام لتنوير المجتمع حول هذا المجال الحيوي. كما يقوم بتدريس مادة علوم الحياة والأرض. ويكتب المؤلف العديد من المقالات الصحفية في كل من جريدة انجمينا الجديدة وصحفية برس ٢٣٥ Presse الالكترونية. وقد شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والدورات والأنشطة الثقافية، وحصل على شهادات تكريمية في كل من تشاد وتونس.

– حاصل على شهادة الماجستير المهني في العلوم والتكنولوجيا (الزراعة والأغذية – تخصص السلامة الصحية للأغذية) من جامعة قرطاج، كلية العلوم ببنزرت بالجمهورية التونسية عام ٢٠٢٠م

– حاصل على شهادة البكالوريوس – متريز– في العلوم والتربية (تخصص علوم الحياة والأرض) من جامعة سبها كلية التربية – فرع تشاد عام ٢٠١١م

– رئيس قسم شعبة الأحياء بثانوية البنات العربية، والمشرف الثقافي على أنشطة اتحاد طالبات الثانوية عام ٢٠١٧م، ومدرس بثانوية فايا المزدوجة ٢٠٢١–٢٠٢٣م.

– رئيس التحرير والأخبار بإذاعة البيان ٧, ٩٣ بانجمينا ومقدم برامج فيها ٢٠١٢–٢٠١٧م

– نائب مكلف بالشؤون الثقافية والاجتماعية بجمعية الطلبة والمتدربين التشاديين في تونس وممثلا لها في مدينة بنزرت عام ٢٠١٩م

- نائب مكلف بالإعلام بجمعية الطلبة والمتدربين الأفارقة في تونس عام ٢٠٢٠م
- رئيس لجنة التلميذ القارئ في حملة اقرأ عام ٢٠١٧م.